دريني خشبه

قصة الإلياذة

وأخبار حرب طروادة

لشاعر الخلود هوميروس

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الثانية

هذه أيها القارىء الصديق قصة الإلياذة نعيد طبعها لك اليوم بعد أن صدرت نسختها الأولى منذ ربع قرن ، وبعد أن قرأها جيل من الناس هم اليوم أسن منك ، كما قرأها جيل آخر عند ظهورها فى كتاب واحد قبل اثنتى عشرة سنة . . نعيد طبعها كما ظهرت ، . دون تبديل أو تغيير ، اللهم إلا كلمة هنا أو عبارة هناك ، مما لم يعد ذوق الشيخوخة يسيغه من ذوق الشباب . . ، واللهم إلا ما آثرناه من تغيير اسم القصة الذى كان « قصة طروادة » فجعلناه « قصة الإلياذة » ... وما آثرناه أيضا من تأخير مقدمة الطبعة الأولى وإلحاقها بآخر القصة ، لما فيها من نقد وعرض قد ينفعانك إذا كنت ممن يفرغون لهذا الأدب اليونانى القديم يدرسونه ويعنون به فى ملاحمه ومسرحياته ، ويهمهم أن يحيطوا به إحاطة واسعة قائمة على الكثير من البحث والتمحيص .

هذا ماغيرناه من شكل الطبعة الأولى . . . ولو تهيأ لنا الوقت ، ولو رضى الناشر الجديد ، لآثرنا أن نكتبها بأسلوب الشيخوخة أيضا . . . الأسلوب الرزين الهادىء الذى يعف عن ضجيج الألفاظ وبريق العبارات ويؤثر السلامة التى لا تكلف القارىء . . قارىء هذه الأيام . . . تعباً ، ولا تجشمه نصبا

القاهرة — الروضة
يولية ١٩٥٧

دريني خشبة

محتويات الكتاب

	صفحة
التفاحة	٥
باريس يعود	١٦
إلى أسپارطة	٢٤
التعبئة	٣٤
أخيل	٤٣
القربان	٥٣
الفدائى الأول	٦٣
من السماء	٧١
فتنة	٨٢
معركة بين الآلهة	٩٤
أندروماك	١٠٤
پتروكلوس	١١٥
مقتل پتروكلوس	١٢٦
أخيل يبكى پتروكلوس	١٣٦
صلح	١٤٤
فزع الآلهة	١٥٢
طوفان	١٦١
مصرع هكتور	١٧٠
بعد مصرع هكتور	١٨٢
پريام الحزين	١٩٣
مقتل أخيل	٢٠٥
فتح طروادة	٢١٥
خاتمة عن هوميروس	٢٢٧

obeikandl.com

الفاتحة

نشـــيد الزمان !
وقصيدة الماضى !
وغنـــاء السلف !

وحـُداء القافلة التى لا تفتأ تخب فى بيداء الأزل ، إلى الواحة المفقودة فى متاهة الأبد ، ركبانها الآلهة ، وأپوللو وكيوپيد وملؤهما ولدانُها المخلّدون !

* * *

أنشـــد يا هوميروس !
واملأ الأحقاب موسيقى !
واللانهاية جمالا وسحراً !

فالأرواح ظامئة ، والقلوب متعبة ، والإنسانية واجفة ، والآذان مكدودة من دوى العصر ، فهى أبدا تحن إلى سكون الماضى !

* * *

لن تصمت يا هوميروس !
فالقيثارة الخالدة لا تزال بيديك !
والقـــلوب هى القـــلوب !

فدع أوتارها تملأ الدنيا رنيناً ، فقد أوسعتنا هـذه الدنيا أنينا ،

ورنينك العذب أذهبُ لأنين الشاكين ولوعة الباكين !

— ١ —

رآها تخطر فوق الثبج، وتميس على رؤوس الموج ، فهام بها ، وشغلته زمانا عن أزواجه فى قصور الأولمب ، فكان يقضى عند شاطىء البحر يترقب الفرصة السانحة ، ويفتش فى كل موجة عن حبيبته « ذيتيس » ... عروس الماء الفاتنة ، « ذات القدمين الفضيتين » ، ابنة نريوس ، رب الأعماق ، الثاوى مع زوجته الصالحة دوريس ، فى قصور المرجان ... هنالك .. هناك تحت العباب ...

ورقت له الفتاة، حين علمت أنه رب الأرباب ، وسيد آلهة الأولمب، زيوس العظيم ، فوصلت بحبالها حباله ، تطمع الخبيثة فى أن تصبح زوجة أولمبية عظيمة ، تصاول حيرا أم مارس وڤلكان ، وتفاخر لاتونا أم ديانا وأبوللو ، وتُدِل على ديون أم ڤينوس ... وعلى سائر أرباب الأولمب!

وابتسم لها الزمان ، وتساقيا كؤوس الهوى ، وأوشك الإله الأكبر أن يبنى بها لولا وسواس خامر قلبه ، فآثر أن يستشير ربات الأقدار (١) قبل أن يبت فى الأمر، أو يقطع فيه بشىء :

ولقد شاء حسن طالع الإله الأكبر أن يفعل ، إذ أخبرته أن ذيتيس الجميلة التى يهواها سيد الأولمب ، تلد غلاما لا يزال يقوى ويشتد ، حتى

---

(١) زيوس هو صاحب الأمر والنهي على جميع الآلهة في الميثولوجيا اليونانية، ماعدا ربات الأقدار Fates وهن ثلاث ربات : (١) كلوتو صغراهن تغزل حبل الحياة من خيوط بيضاء وسوداء (٢) لاخيسيس تبرمه فتجعل منه المنين والواهى (٣) أتروپوس كبراهن وهى تقطعه جزءاً فجزءاً بمقص كبير .

يخلع أباه ويستأثر بالملك من دونه ، أو على الأقل « تكسف شمس » عظمته شمس أبيه ، فيعيش إلى جانبه إمّعة لاشأن له . وهو لا شك قد ثنته عما يكون للغلام من مقام حين يُثار النقع ، ويستعر القتال ، بين شعبه « الإغريق » وجيرانهم « الطرواديين » ...

وخفق قلب زيوس ، وذكر تلك الحرب الضروس التي انتصر فيها على أبيه ساترن (١) بعد فظائع وأهوال ، فأشفق أن يكون له ولد يصنع به ما صنع هو بأبيه .

لذلك قصر هواه ، وأصدر على غفلة من كل آلهة الأولمب إرادة سامية تقضي بأن تتزوج ذيتيس من پليوس ملك فيتيا ، الذي كان هو الآخر مولعا بها ، مشغوفا بجمالها . . . حتى لقد خطبها إلى أبيها غير مرة فرفض رب الأعماق أن تتزوج ابنته من بشري هالك ولو كان ملكا . بيد أنه صدع بأمر الإله الأكبر ، وقبل پليوس لابنته بعلا ...

وحزنت ذيتيس ، وانكفت في غرفتها المرصعة باللآلئ تشكو وتبكي ، فلما علم زيوس بما حل بها ، زارها من فوره ، وطفق يلاطفها ويترضاها ، حتى رضيت أن تكون زوجة لپليوس الملك . « على أن تحضر بنفسك ، أنت وجميع الآلهة ليلة الزفاف ، وليعزف أپولو على قيثارته ، ولترقص ديانا ربة القمر ... »

— ٢ —

ودقّت البشائر ، واضطرب بطن اليم ، وانشق الماء عن طريق رحب

---

(١) حرب طويلة لايتسع المكان للتحدث عنها

يتهادى فيه موكب الآلهة إلى قصر نريوس فى أعماق المحيط ، ووقفت الأوسيانيد والنيريد وسائر عرائس الماء صفوفا صفوفا تحيى الضيوف الأعزاء ، اللطفاء الأحباء ، وتغنى وتنشد ، وترسل ألحانها الخالدة موقعة عل الموسيقى المشجية .

وانبرى أبوللو يوقع على قيثارته الذهبية . أبوللو ! الذى اشترك فى بناء أسوار طروادة ، فلم يكن يصنع شيئا أكثر من أن يلعب بأنامله على أوتار القيثارة ، فتقفز الحجارة راقصة من الطرب إلى مكانها من الأسوار !

وانطلقت ديانا ترقص . . . فما علم أحد من الآلهة أخطرات نسيم تهبط من القمر الفضى ، وتعلو فى السماء ، أم ديانا الهيفاء ، ترقص فى القلوب والأحشاء !

ونهض الجميع إلى المقصف الفاخر ، الذى تفننت فى تنويع آكاله وأشرباته أيدٍ إلهية ماهرة ، فأكلوا ما لذ ، وشربوا ما طاب ، وأخذوا فى سمر جميل . وكان هرمز يرسل نكاته الطريفة فيقرقع المكان الحاشد بالضحك . وتُدوى الأكف بالتصفيق !

وبينما الآلهة فى قصفهم ، لا يفكر أحدهم إلا فى هناء العروسين ، إذا بالربة المنكرة إيريس (١) تظهر فجأة فى وسط الجماعة ، ثم تشرع تقلب فيهم عينين تقدحان بالشرر ، وتنفثان سم البغض . وعلى رأسها الفاحم الأسود تتلوى خُصَل ثعبانية شائهة ذات فحيح وصلصلة ، وعلى صُدغيها

---

(١) تسمى أيضا دسكورديا (ومعناها نزاع) أو إيتيه

الأبرصين مُخشخش عقربان منكران ، لكل منهما ذُنابَى يقطر الموت الأسود منها هنا وهنا .

ظهرت إريس غضبى مُحنَقة ، لأن القائمين بالدعوة إلى العرس أغفلوها فلم يرسلوا اليها بالدعوة التى أرسلت إلى الأرباب جميعا . وهم قد قصدوا إلى ذلك عن عمد ، لأنهم خشوا على العروسين من أذاها الذى ما تفتأ تثيره فى كل مكان وطئته قدماها . أليست هى ربة الخصام ، النافخة فى نار العداوة التى تتضرم منذ الأزل فى الجوانح والقلوب ؟

لكنها لم تنس لهم هذا الإهمال ، بل أقبلت ، وهى تتميَّز من الغيظ ، انقلب هذا العرس الكريم إلى مأتم أليم .

ولقد أوجس الآلهة جميعا خيفة حين رأوا إليها تتقلَّب فيهم ناظريها المشتعلين ، غير أنهم اطمأنوا قليلا ، حين رأوها تنصرف بعد إذ ألقت على الخِوان الفخم تفاحة كبيرة من الذهب ، نقشت عليها هذه الكلمة المقتضبة : « للأجمل ! »

— ٣ —

باريس :

درجت عادة القدماء على أنه كلما ولد لأحدهم غلام توجه من توه إلى هيكل أبوللو فى دلفى يقدم القرابين ويزف الهَدْي ، ثم يستوحى الكاهنة عما يكون مستقبل ولده وما يفيض به من سعادة أو شقاء ، ليأخذ الأمر أهبته ، وليعد لكل شىء عدته .

فلما وضعت هكيوبا ، ملكة طروادة ، غلامها باريس ، حمله أبوه

الملك پريام إلى هيكل أپولو ، ليرى رأى الإله فيه .

واربدّ وجه الملك الشيخ ، وتنفضت أساريره ، حين قالت له كاهنة المعبد : إن ولده سيكون كارثة على قومه وعلى بلده ! وسيأتى من الإثم مايجر إلى قتل ذويه وبنى جلدته . ويفضى إلى سقوط طروادة فى يد أعدائها .

وتحدث پريام إلى هيكيوبا فى ذلك ، فصمما على الخلاص من الطفل بتركه فى العراء ، فوق إحدى جنبات الجبل ، يَنْهَشُه طير جارح ، أو تفترسه ذئاب البرية . وأنفذا فعلتهما الشنعاء ! ولكن القضاء ينبغى أن يتم ، والقدر يجب أن يأخذ مجراه ، فلقد جاز بهذا المكان من الجبل أحد رعاة الأغنام فوجد الغلام وفرح به واتخذه لنفسه ولداً ، ثم سهر عليه واعتنى به ، ونشّأه على الفروسية التى كانت أحب مايزاوله الناس فى الحياة فى هذا الزمن .

وشب پاريس فتى يافعا ، جميلا عشوقا ، فعمل مع الراعى الذى أنقذه . وكان مولعا بالبحر ، تَعْشُوقه أمواجه ، وتفتنه أوذايه ، فكان يختلف إليه ريثما تفىء الأغنام من الحر ، يلهو بالسباحة ، ويتريض بمصارعة الموج ، وبدت له إحدى عرائس الماء — إيونونيه — وكانت قسيمة وسيمة ، فهويها وعَلِقَها قلبه ، وما لبثت أن أصبحت أعز شىء عليه فى هذه الحياة .

وهامت به إيونونيه ، وأخلصت له الحب ، وكانت تنتظر أوبته من رعى الغنم كما ينتظر الظمآن جرعة الماء ، والعليلُ برد الشفاء .

وا أسفاه !

لقد قضت ربات الأقدار — كلوتو وأختاها — ألا يدوم هذا الحب طويلا !

— ٤ —

اجتمع الفانيات حول التفاحة كل تريدها لنفسها ، وكل تدعى أنها أجمل من فى الحفل جميعا .. ثم سادصمت عميق حينما نهضت حيرا وميترفا وڤينوس ، ميممات شطر الجهة التى يتنازع فيها الفانيات من سائر الربات على التفاحة الثمينة ...

— « أنا حيرا العظيمة ، مليكة الأولمب ، وصاحبة الحول والطول فيه ، وآثركنّ إلى قلب الإله الأكبر ، أنا أحقكن بهذه التفاحة الملوية وأعرفكن بقدرها ... سأضمها إلى تفاحات هسپريا (١) ، فهى بهن أليق ، وهن عليها أحفظ ... سيعلقنها مع أخواتها الثلاث لتزدان بها حدائقهن ..»

— « أنت تفاخرين بملك الأولمب ، وبالجاه والسلطان ؟ إذن أين جمال الحكمة ، وسَنَا الموعظة الحسنة ، وجلال الرأى السديد ؟ بل أنا . . ميترفا . . . ربة الهدى والسبيل الحق . . . أحق منك بهذه التفاحة ... »

— « فيم تختصمان يا أختىّ العزيزتين ؟ أليس قد كتب الحكم على التفاحة نفسها ؟ أليست هى للأجمل ؟ أو لست أنا ... ڤينوس جميعا ...

---

(١) راجع قصص « هرقل » فى كتاب أساطير الحب والجمال عند الاغريق ص ١ .

ربة الجمال ؟ لِمَ تربعتُ على عرش الفتنة إذن ؟ هي لي من دونكما ! ... »

واختلف الآلهة ، وساد الهرْج والمرج ، ولم يجسر أحد من احتشد حول الخِوان أن يفوه بكلمة يفضل بها إحدى الربات الثلاث حتى لا يقع في سخط الأخريَيْن ، وحتى لا يكون أبداً عرضة لنقمتهما ...

وتفرق الجمع بَدَداً .

وقصدت الربات الثلاث جبلا شامخاً يشرف على البحر فانتظرن عنده ، واتفقن على أن يفصل أول عابر ، مهما يكن شأنه ، بينهن في أمر التفاحة ، وتعاهدن ، بالأيمان المغلظة ، على أن يخضعن لحكمه ، وأن تكون كلمته فصل الخطاب فيما اختلفن فيه .

وانتظرن طويلا ، وكان البحر يضطرب من تحتهن فيقذف باللآلىء والمرجان ، كأن إلهاً حاول أن يشبع نهَم الربات بالجواهر الغالية فلا يتشاجرن من أجل تفاحة ، ولكنهن ما كن يأبهن لحصباء الدر المنثور على الشاطىء ، بل ما كانت أعينهنّ تريم عن الفتية إيريس !

وكانت عروس فتانة من عرائس الماء تعلو وتهبط مع الموج ، ولا تفترّ تحدق ببصرها في الجهة التي جلست بها الربات يتربصن ...

وكانت إيونونيه من غير ريب ! وكان الجبل مستراد باريس الذي يريح فيه قطعانه ، ثم ينطلق للقاء حبيبته ، فيتبادّان ويتشاكيان .

وأقبل باريس يشدو لأغنامه ويغنى ، فزُلزل قلب إيونونيه ، وهلعت نفسها ، وخافت على حبيبها خوفاً شديداً ، ذلك أن أخبار النزاع الذي انتهى إليه يوم الزفاف من أجل تفاحة إيريس كانت قد شاعت ، وتسامع بها كل عرائس البحار ، فلما عرفت إيونونيه ما اجتمع الربات من أجله ،

اضطربت أيما اضطراب ، وقلقت على باريس أيما قلق . لأنه وحده هو الذى يجوز بهذا الطريق ، حين ينفذ إليها يحلمان ويتناجيان . وكان مصدر قلقها هو ما عساه أن يجره على نفسه — إذا قضى بينهن — من سخط الربتين اللتين لا يقضى لهما بالتفاحة ...

— ٥ —

وصاحت حيرا . « قف أيها الراعى الجميل فاحكم بيننا فيما نحن مختلفات فيه ، تلك تفاحة من الذهب ساقتها السماء إلينا منحةً منها لأكثرنا جمالا وأبهانا رونقاً ، وأنا — حيرا — مليكة الأولمب ، وذات الحول والطول فيه ، وربة التاج والصولجان ، وصاحبة القوة والسلطان . وآثر أزواج ربك ، كبير الآلهة ، وأحبهن إليه ... أنا — حيرا ذات الجبروت — وولدى مارس إله الحرب ، ورب الطعن والضرب ، أقوى أبناء زيوس العظيم . . . وولدى ڤلكان كذلك ، إذا شئت سَرَد لك الدروع من حديد فتصبح سيد أبطال العالم ، لا يُشق لك غبار ، ولا يُجرى معك فى مضمار ! إذا خضت حرباً حماك مارس وأيدك ، ونصرك ڤلكان وآزرك .. ألست ترى إذاً أيها الراعى الجميل أننى أحق من هاتين بتلك التفاحة ؟ أنا — حيرا مليكة الأولمب — سأمنحك الثروة التى لا تفنى ، والسلطان الذى لا يبيد ... سأجعلك ملك هذه الديار التى ترى . . . ستكون صاحب عرش وتاج ، وستستريح إلى الأبد من هذه الحياة الضنك التى تحياها ... أنت جميل يا فتى . . . وأنت بعرش عظيم أولى منك بهذا القطيع الذى يثغو . . . . »

وصمتت حيرا ... وجعل باريس يقلب فى التفاحة ناظريه ، وفى قلبه مما رأى وما سمع قلق عظيم ...

لقد كانت حيرا تختال فى ثوبها الأولمبى الموشّى ، وكان طاووسها الجميل — الذى اتخذته منذ الأزل رمزا لها — يتشبث بناصيتها ويميس ، فيزيدها جلالا وكبرياء .

— وأوشك الفتى الراعى أن يقدم التفاحة لحيرا ، لولا أن صاحت به مينرڤا .

— « على رسلك أيها الشاب ... اسمع منا جميعا ثم اقض بيننا ... أنا لن أزخرف عليك يملك ولا سلطان ، فأنت أعقل من أن تنخدع بالعَرَض الزائل . وأعلى من أن يهيمن جسمك على عقلك ، وهواك على قلبك ، أنا مينرڤا ربة الحكمة وإلهة الروح الأعلى المقدس ... سأمنحك السداد ، سأكشف لك حُجُب الجهالة ، وسيضىء مصباح المعرفة بين يديك فتكون أهدى الناس ، وأعلم الناس . وأحكم الناس ... »

وسكتت مينرڤا ، وسُمع هاتف من جهة البحر يصيح : « باريس ، أعطها لمينرڤا يا باريس ... » ، وكانت إيونونيه ما فى ذلك شك ! !

وكاد باريس يلقى بالتفاحة فى يدى مينرڤا ... لولا أن تقدمت ڤينوس الصُّناع ... ڤينوس الحلوة .. ڤينوس الساحرة ... ڤينوس ذات الدل ... ڤينوس التى تكفى غمزة ما كرة من طرفها الفاتر الساجى لإذلال ألف قلب .. ... لولا أن تقدمت ڤينوس كلها تطارد قلب باريس وتحاصر عينيه حتى ما يقعان إلا على عينيها ... ... تقدمت ڤينوس ترنو وتبتسم ، وتتبرج وتهتز ، وتشد هذا الصدر وتثنى هذه الذراع ، وتميل برأسها الذى

كاه خدود وعيون وأصداغ .. تقدمت ڤينوس تبسم الراعى الجميل عن فم حلو رقيق ، تتلألأ ثناياه ، ويتضوع عبيره ، وقالت . « پاريس ! هل لك عينان تعرفان الغزل ، وقلب يعرف الحب ؟ . . پاريس أنا ڤينوس التى صليت لها بالأمس ، والتمست منها التوفيق ... ها أنا ذى يا پاريس . . . التفاحة للأجمل ! .

ألست تحب أن أهبك أجمل زوجة فى العالم ! ستكون زوجتك مثلى ، تفمرك بجمال لا حدود له ، ولن تشعر معها إلا أنك تعيش منها فى جنة ... فتنة . . . نظرات حلوة . . . خد مورد . . . أهداب كظلال الخلد ... عينان نجلاوان ... جسم ممشوق طويل ... زوجة ترضيك وتفى لك ... قلب ينبض بحبك ... هاتها يا پاريس هاتها يا حبيبى ... »

وقبل أن تتم الخبيثة سحرها ، كان الفتى البائس ، قد ألقى التفاحة فى يديها الجميلتين ، بالرغم من الصيحات المتتالية التى كانت تأتى إليه من البحر . « لا يا پاريس ... لا يا پاريس ... أعطها لمينرڤا يا پاريس ... »

وجر على نفسه غضب حيرا ومينرڤا ، وكتبت التعاسة عليه وعلى قومه ولم يلق ليونونيه بعدها . .

باريس يعود

— « ألست تحن إلى وطنك ، وتتمنى لو ترى والديك يا باريس ؟.. »

— « وطني ووالدي ؟ »

— « ... ؟ ... »

— « وهل لي وطن غير هذه المروج الخضر ، ووالدان غير أبي الراعي وأمي المتداعية الفانية ؟ »

— « مسكين ! »

— « بل أسعد الناس بأن أكون ابنهما ! ولماذا ؟ أليس أبي سيد هذه الفلوات ، وأمي أعز الأمهات ؟ »

— « ذلك حق لو أن أباك هو هذا الراعي يا باريس ! »

— « ماذا تعنين ؟ »

— « أعني أنك لست ابنه ؟ ... »

— « وَيْ ! لو لم تكوني ڤينوس لقتلتك ! »

— « الحق أقول أيها العزيز ! »

— « أنت تعذبينني ! ابن من إذن ؟ ... »

— « أترى إلى جمالك البارع وجسمك المشوق السمهري ؟ أيكون هذا الخلق من نسل الرعاة الأجلاف ؟ »

— « ..... ؟ ... »

— « أتدور بك الأرض إذا علمت أنك ابن ملك ؟ ... »

obeikandi.com

— « سخرية وهُـزُؤ ... إلام تعذبين فؤادى ياربة الحسن والحب ؟ ألأنى أعطيتك التفاحة الخالدة ؟ ... ... »

— « الآلهة لا تكذب يا پاريس ! »

— « أنا ؟ .. أبى ... ملك ؟ ... هذا الراعى ؟ ! ملك ماذا ؟ »

« ليس هذا الراعى قلت لك ! ! أنت لست ابنه ! أنت سليل الملوك الصِّيد !! ... ... »

— « إذن من عسى أن يكون أبى ؟ . . ... »

— « ملك طروادة ! ! . . . . »

« ملك طروادة أبى ؟ ... پريام ؟ ! ... ... »

— « هو ... هو ... ... »

— « هاهاها ... ... ومن جاءبى هنا ؟ سرقونى ؟ . . . أليس كذلك ؟ ... ... »

لاتنس ياپاريس أنك فى حضرة ڤينوس .. وأقولها لك مرةً أخرى: إن الآلهة لا تكذب ... أجل أنت ابن پريام ملك طروادة . . . قيل له إنك تجر عليه ألوانا من العذاب فصدق ، وأرسل بك من تركك فوق جبل بعيد لتأكلك الذئاب ... كل هذا إذ أنت طفل صغير ... وليد ... ولقد عثر بك ذلك الراعى الذى تحسبه أباك ففرح بك وقال لامرأته : عسى أن يكون لنا منه ولد ... والآن . . لقد وعدتك زوجة جميلة . . . أجمل امرأة فى العالم ... فاذهب أولا إلى طروادة ، والقَ أباك فإنه سيعرفك لأن له أبناء خلقهم كخلقك ... وسيحدثه قلبه ... وتكلمه روحه أنك ابنه ... سيفرح بك پريام ياپاريس، وسيخفق قلب هكيوبا ... أمك

التى تبكى من أجلك ، وتتمنّاك بنصف مُلكها !

فإذا اطمأنوا إليك ، ولبثت فيهم أياما ، فأبْدِ لهم رغبتك فى الإبحار إلى بلاد الإغريق فى أسطول كبير ... إلى أسپرطه ... إن ثمة المرأة التى وعدتك ... أجمل نساء العالم .. »

وغابت ڤينوس وكأنما ، أبتلعها الهواء !

* * *

وجلس پاريس على صخرة تُشرف على البحر المضطرب من جهة ، وعلى السفح المعشوشب المصطخب بالحياة من جهة أخرى ، ثم أخذ يفكر فى كل كلمة انفرجت عنها شفتا ڤينوس ...

« ترى ؟ ! أصحيح ماقالته ڤينوس ؟ أصحيح أن پريام أبى ؟ ألا أنادى الراعى أبى بعد اليوم ؟ وأنت أيتها الأغنام : أفراق لالقاء بعده ؟ وا أسفاه الم لقيت ڤينوس؟عزيز على أن أهجرك إلى الأبد أيتها البطاح ! وأنت أيتها السماء الحبيبة ؟بم أستبدل قلائدك الدرية فى الليل ، وشمسك الدافئة ، وسحبك الموشاة بالذهب فى النهار ؟ ! . . . . . »

الآلهة لا تكذب ! ! هكذا كانت تقول ڤينوس ! أنا إذن ابن ملك ! وأبى لابد أن يكون غرّا ضيق العَطَن ، وإلا فلماذا صدق ماذكرته له الكاهنة عنى ؟ طفل صغير ينبذ بالعراء لتأكله السباع ! يالقساوة القلوب ، وتحجر الأكباد ؟ ! وأمى ؟ أين كانت أمى ؟ وأين كان قلب الأم فى هذه المرأة ؟ كيف سهل عليها أن تدعنى يُخنطَقُ بى لأنبذ بالعراء ، فريسة لأحول لها لكلاب الجبل ، وطعمة شقية لسباع البرية ؟ ! ... ... »

لابد أن أذهب ! لابد أن أعلم حقيقة أمرى ! وداعاً أيها البحر !

وداعا أيتها المروج ! يا كل شيء هنا ... وداعا .

وانطلق لايلوى على شيء ...

وكان أصدقاؤه الرعاة يلقونه فى الطريق فينكرون منه كل شيء ! ينكرون منه انقباضه، وعهدهم به طلق المُحَيَّا لايفارق المرح ثغره البسام، وينكرون منه صمته الطويل وهو الثرثار الذى لايقف لسانه ولا تسكن شفتاه ! وينكرون منه هذه النظرات العميقة الحزينة ، وهو ذو العينين الضاحكتين والجبين المشرق الطروب ...

وكان هو ينكرهم جميعا كذلك! أليس قد عرف أنه ابن ملك ؟ وابن أى ملوك العالم ؟ ابن ملك طروادة ! وهل أقوى وأعظم فى ملوك العالم من ملك طروادة ؟

وبالرغم من هذا الإنكار كان الرعاة لايبرحون يحبون باريس ويعجبون به ، وقد أحزنهم أن ينطلق فريداً وحيداً فى فلوات تدمدم فيها السباع وتهمهم الوحوش ، فذهبوا يقتصون أثره ، وكانوا له حرسا شديداً فى وحشة هذه البرية المخوفة ...

ووصل إلى طروادة ...

وجلس فوق هضبة مرتفعة قليلا فنظر إلى المدينة الخالدة ! واجتمع حوله أصدقاؤه الأمناء الأوفياء يسألونه فيم جاء إلى هذا البلد ، ولم هجر قطعانه وأوطانه ، وهل فى أمره .. حب ... ؟

وطمأنهم باريس . وزوق لهم الأحلام والأمانى ، ووعدهم خيرا « لا ترى مثله عين . ولا يخطر على قلب بشر »

ودخلوا المدينة ...

ويمموا نحو ميدانها الرحب الفسيح ، حيث اجتمع خلق كثير يشهدون المهرجان الرياضى ، ويمتعون أنظارهم بشتى الألعاب التى يمارسها أبطال طروادة وما جاورها من القرى ، ولبث باريس وأصحابه ينظرون إلى المتبارين ساعة ، ثم زهاهم الروح الرياضى فقدموا أنفسهم إلى الرئيس المشرف على الألعاب ، فأشركهم فى كثير من المباريات ...

ولقد برّز باريس على أقرانه ، وبذّ كل من تبارى معهم فى مضمار ، حتى لفت إليه أعين النظارة وأصبح موضع إعجاب الحاضرين ...

وكانت الأسرة الملكية ، الملك وزوجه وأبناؤه وحاشيته ، يحدقون فى الفتى مشدوهين مأخوذين ، وكانت الملكة بخاصة تحس كأن رباطا روحانيا يجذبها إلى الناحية التى يجول باريس فيها ويصول ؛ بل كانت تشعر كأن الحديد الذائب فى عضلات البطل ، إنما يتدفق من عضلاتها هى! وأعجب من ذلك جميعا ، ذلك الخفقان المتفجر فى قلبها ، وذلك الحب الحزين السادر الذى يفمرها كلها من أجل هذا الغريب المفاجىء المجهول !

ولمحت كاسّندرا ، ابنة الملك ، ما كان ينتاب أمها من عواطف ، وكانت فتاة بارعة الحسن مليحة الدل ، فيفانة ريانة ، أعجب بها أپوللو فمنحها حبه ، وهام بها حتى كان يعبدها عبادة ، وهو الإله المعبود !

وكان ما يفتأ يباركها ويخلع عليها من نعمه ، فمن ذلك أنه وهبها القدرة على كشف الغيب ، والتنبؤ بما كان وما يكون ؛ فكانت تخبر الناس بماضيهم وحاضرهم وما يكون من مستقبلهم ، وهم يسمعون ويعجبون ...

ولكنها تاهت على أپوللو ودلت وكانت أبدا تمنحه الجفاء والصدود ، وتعرض عنه وهو المقبل عليها بروحه وقلبه وبشعره وموسيقاه !

رجاها أبوللو أن تكون له ، وأن ترتضيه لها بعلا ، ووعدها لقاء ذلك أن يبنى لها القصور الشماء فى قبة السماء ، وأن يحملها معه أبدا فى رحلاته العلوية فوق مركب الشمس ، فترى كل ما يدب على الأرض . وأغراها بالتوسط لدى كبير الآلهة زيوس الأعظم فيمنحها الخلود ، وربما رفعها إلى صفوف الآلهة أنفسهم ... بيد أنها ما كانت تزداد إلا شماسا وعنادا .

ولما ضاق أبوللو بها ذرعا ، صب جام غضبه عليها ، وسلط عليها سخرية ساميها ، فما تقول شيئا ، ولا تتنبأ بشىء ، ولا تكشف غيبا ، إلا استهزأ بها الناس ، وعيروها بأنها تكذب وتهرف وتدعى ! .

فلما شاهدت ما كان من فورة الإحساس التى تجرف قلب أمها من أجل پاريس ، ذكرت أن هذا الشاب إن هو إلا أخوها الذى نبذوه بالعراء فوق الجبل لتأكله السباع ، وآيتها على ذلك هذا التشابه الشديد بينه وبين أبيها الملك . وحاجّها قومها فأحضروا پاريس ليطابقوا بينه وبين هكتور . . . ولكن المطابقة ما كادت تتم حتى أخذته هكيوبا فى حضنها الحنون المرتجف ، صائحة مستعبرة : « ولدى پاريس ... إبنى پاريس ... ولدى ... إلىّ إلىّ يابنى ... ! » . أما الملك فقد بكى هو الآخر ، ونهض فعانق ابنه عناقا طويلا حارا ، غاسلا جبينه المتلألىء المشرق بدموع الاعتذار عن الماضى البعيد المحزن .

ولما أخبرهم پاريس أن ڤينوس ، ربة الحب والحسن ، هى التى هدته إلى مولده ومنشئه وكريم أرومته ، خر الملك وأهله لها ساجدين . . . إلا كاسّندرا .

لقد عبست عبوسة قاتمة ، وحدجت أخاها الغريب بنظرة كالحة ! ثم صاحت بالملك : « أبى ! لتحذر هذا الأخ . . . لتحذر باريس . . . ولتذكر نبوءة الكاهنة فى معبد أپوللو . . . ابنك يجر الخراب على مملكتك ويعرض شعبك للدمار ، وينشر الموت فى بيوت رعاياك ! » .

وهنا ينتقم أپوللو ، ويسخر من حبيبته الجافية !

لقد تضاحك الملك مستهزئا ، وغمزت الملكة ابنتها ، ولمزتها بكلام قارص . أما هكتور ، فقد عبث بأخته ومازحها مُزاحا ثقيلا .

مسكينة كاسّندرا !

حتى الحاشية استهزأت بها وأشهرتها المذلة والهوان .

كل ذلك والرعاة . . . أصدقاء باريس . . . ينظرون ويعجبون . . . ولا يفهمون !

أفرخ روع باريس إذن ! وصدق كل ما ذكرته ڤينوس !

الآلهة لا تكذب !

هاهو ذا يعيش فى قصر منيف باذخ ، وهاهو ذا لأول مرة فى حياته يخلع هذا الصوف الخشن الغليظ ، ليلبس من سندس أبيض وإستبرق ! والولدان البيض كالتماثيل يطوفون عليه بأكواب الخمر من فضة ، وصحاف الآكال من ذهب ! وشعب بأسره يطيع أباه ويطيعه ، وجيوش تصدع بأمره ، وأساطيل تجوب متملا البحر ، إن شاء أرست ، وإن شاء أقلعت ، وملك وسلطان ، وتاج وصولجان . . . !

لا تنقصه الآن إلا أجمل فتاة فى العالم . . .

تلك الفتاة التى وعدته ڤينوس ! وما دامت الآلهة لا تكذب فأجمل فتاة فى العالم هى من غير ريب فى بلاد الإغريق . . ه لأن ڤينوس أوصته بوجوب الإبحار اليها .. وهل أجمل من حسان أسپرطة فى بلاد الإغريق ؟! إنهم قوم يعبدون الجمال واعتدال القوام.

إذن فليبحر پاريس إلى أسپرطة !

---

obeikandl.com

إلى أسبارطة

— « سمعت يا أبي قصة أختك المهذبة « هسيونيه » إذ أنا أرعى الشاء والبُهْم، فكان قلبي يتفطر أسى ، كيف يسكت شعب عظيم كشعب طروادة على إهانة تصيبه في الصميم من شرفه ، وعار ليس أيسر من دفعه ، لكنه يمضي عليه ، وينام عنه ، كأن العزة القومية عند أهل هذا البلد ليست إلا أسطورة قديمة ، أو حلما لا يدور لهم بخلد ! ؟ » .

— « حسبك يا باريس . حسبك يا بني . إنها محنة كتبت على طروادة صنعها جدك بيديه » .

— « جدي ؟ » .

— « أجل ! جدك ... أبي ... أبي لا يوميدون ، هو الذي نكث بعهده لبطل الأبطال هرقل . . الرجل العظيم الذي أنقذ هسيونيه من براثن هذا الوحش البحري الهائل ... الوحش الذي فتك بهذاري طروادة ، لقد أعلن أبي أن من يقتل هذا التنين فإنه يتزوج هسيونيه . ولما قتله هرقل العظيم ...

— « رفض والدك أن يزوجها منه ! »

— « هو ذاك ! »

— « لم أسمع بهذا من قبل ... ولكن كيف سمحتم لهرقل وملئه أن يعتبيحوا طروادة ويذهبوا ببعض الأعزاء من أفراد البيت الملكي ..

— « كنت طفلا ... وقد كنت بعض هذا السَّبْي ... ثم منذ الذي كان

يستطيع دفع هرقل ، أقوى أبناء زيوس ، وصاحب المجازفات الخرافية ! من كان يستطيع حماية طروادة منه ، بعد أن نكث الملك بوعده ؟

أنت كنت بعض السبي ؟ انت يا أبي ؟

— « أجل يا باريس ! وقضيت فى أيدى أعدائنا الشرفاء أجمل حقبة من شبابى ! لله كم كانوا كرماء حقاً ؟ ... »

— « وكيف عدت إلى طروادة إذن ؟ » .

— « مات أبي بعد حياة مفعمة بالمتاعب ، ولم يكن له ولى عهد غيرى ، فتوجه الطرواديون إلى الأعداء يطلبونى ملكا عليهم ، بأى ثمن ... ولكن أعداءنا كانوا أكرم من أن يسترقّوا الملوك أو يبيعوا الأمراء ... لقد أعادونى معززاً مكرماً إلى وطنى ، بعد إذ أخمد خصومتهم موتُ هرقل ...

— « ولِمَ لم تعد عمتى هسيونيه يا أبتاه ؟ » .

— « تزوجها تيلامون يا بنى ، وأحسبها الآن أيّمًا »

— « ذلك أدعى لعودتها ... إنها لا شك تتعذب فى دار غربتها . . مسكينة ! إن حدائق الخلد لا تجدى نفعاً إذا كانت سجنا لأحدنا !

— « هذا حق يا بنى . . . ومثلها القفص من ذهب يحبس فيه البلبل المحزون !

— « أنا حزين يا أبتاه . . . لا بد أن تعود عمتى . . . أفتأذن لى فى الإبحار إلى هيلاس ؟ إذا أذنت ، فإن أعود إليها .

* * *

الآلهة لا تكذب !

هكذا قالت ڤينوس ، وإذا كانت الآلهة لا تكذب ، فإن يكذب أپوالو . لابد أن تصدق النبوءة القديمة ، لابد أن يبحر پاريس إلى هيلاس ليجر الخراب على طروادة ، وليخيم الموت فى داراتها جميعا ...

الآلهة لا تكذب .

لقد أبحر إلى أسبارطة فى يوم عاصف . أسود من جبين الموت ، وأبرد من بطون القبور . ولقد كان أسطوله اللجب يرقص على نواصى الموج ، كما يرقص الطائر المذبوح فى قبضة الفناء ...

هيلين (١)

ثمرة الحب الأولمبى الساخر ... إبنة زيوس الغَزِل ، زير النساء ، من ليدا الفاتنة ، التى حوّلها حبيبها كبير الآلهة ، وسيد أرباب الأولمب ، إلى بجعة بيضاء تتهادى فى مرايا المستنقعات والغدران ، ليسهل عليه لقاؤها دون عزول ... أو رقيب ، ولقد ولدت له هذه الطفلة التى كانت كقطرة المداد يمهر بها إعلان الحرب .

شبّت هيلين وشبت فى أثرها شياطين الفتنة ، وكبرت ، وكثرت تحت قدميها مصارع العشاق .

لقد كان جمالها أسطورة مصورة فى السحب ، موشّاةً بذهب الأصيل . كانت نظراتها تتغذى بأرواح المحبين فى غير شره ، وترتوى بماء حياتهم فى غير نَهَم ... وإن كان محبوها ليُحْصَوْن بالآلاف ...

وهى لم تعمد يوما إلى قتل هذه الأرواح المظلومة ، ولم يكن ذنبها

---

(١) إيلين أو هيلانه أخت كليتمسنسترا من أشهر الشخصيات الكلاسيكية .

كذلك أن تنظر فتصرع ، أو تنعس فتصطمى... ولكن القتل كان يذهب بأرواح محبيها عفوا كلما نظرت هنا أو هناك ... وذاك هو القتل البرىء ...

وكان لها فم شكتيت حلوا، أودعت فيه السماء أسرارها ، وصبغته عرائس (١) الفنون بحمرة الفتنة ، فهو دائماً يبتسم ، وكل ابتسامة منه تحيي وتميت .

وخداها الأسيلان كذلك . لقد كانت لها نعومة ولمعة و « نونة » (٢) خلابة ، هى ملتقى الفتنة بين الخد والفم والعين والأنف .

ثم عنقها الطويل البلورى الشفاف ، وجيدها المتلىء الخصب . وجسدها الرخص المرمرى . وساقاها الملتفتان ، يختلط فى بشرتهما بياض النّدف بحمرة الورد .

هذه هى هيلين .

فإذا فترت العينين ، وأرخيت الأهداب الكحيلة السوداء ، ذات الوطف ، وأرسلت نظراتك المذهولة ترف بالخد والجيد ، والفم النضيد ، فترتد إلى فؤادك بأحمال الحب ، وأثقال الهوى . . رأيت التمثال المعبود الذى خلب ألباب أمراء هيلاس ، وأجج قلوبهم بالفتنة ، وقرّح أجفانهم بالسهاد .

* * *

---

(١) Muses

(٢) للخد البارز المستدير خط مما يلى الأنف يزيد عرائس الفنون التسع جمالا وقد أطلق عليه بعض الكتاب (نونة) ودعاه بعضهم « قسمة »

لم تنشأ هيلين مع ذلك فى حجور الآلهة ، فقد تزوجت أمها ، بعد أن هجرها زيوس ، من تنداريوس ، أحد أمراء هيلاس ، فترعرعت الطفلة فى مهاد النعمة ، وسعدت بالهناءة والعيش المخفرج ، حتى كانت هيلين التى رأيت ! ؟

وقد تقدم إلى خطبتها كثير من سادة الإغريق ونبلائهم ، ولكن أحداً منهم لم تقبله هيلين بعلا لها ... لا لعيب فيهم . . . ولكن القلب ؟ أجل ، لم يكن يتفتح قلب هيلين الأولمبية الرائعة ، إلا لكل جميل رائع ، ولما لم يكن فى كل من تقدموا لخطبتها من هو سليل الآلهة مثلها ، فقد رفضتهم جميعاً ، وعلة ذلك هذا الدم المتكبر الذى يجرى فى عروقها ، وذلك الجمال المعبود الذى كان أكثر من أن يجرى فى امرأة واحدة ؟

وجرت الألسن فى هيلين ، وجمال هيلين ، وأحباب هيلين . . . والساخطين على هيلين ممن جرحت كبرياءهم لرفضها إياهم ؛ ولقى زوج أمها من جراء ذلك هولا شديداً ورهقاً ...

تحدثوا أن خُطّاب هيلين ، ومنهم أبطال هيلاس وشجعانها وذوو الصولة والجبروت فيها ، كانوا يضربون معسكراتهم حول بيت زوج أمها ، يطمع كل منهم أن يفوز هو بهذه الفادة ذات المفاتن ، التى أذات الأعناق العزيزة ، ورغمت بها الأنوف الإغريقية الشماء .

وخشى تنداريوس أن تشب الحرب بينهم لو أن هيلين قبلت أحدهم زوجاً لها دون الآخرين . . . وأسقط فى يده حين تقدم منلوس ، ملك أسبارطة ، وسليل الآلهة أيضا ، إلى هيلين يطلب يدها . . فلما أسرّت الفتاة إلى زوج أمها أنها ترضى ملك أسبارطة بعلا لها ، تضاعف فزعه ،

وازدادت خشيته ، وأيقن أنه لو أنفذ من أمر ذلك الزواج شيئاً ، فإن أمراء هيلاس بأسرهم يصبحون له أعداء ألدّاء ، وهو لاحول له بعداوة أحدهم بمفرده ولا قوة !

ولجأ تنداريوس إلى الحيلة ...

لقد أقام حفلا شائقاً دعا إليه كل من تقدموا لطلب يد هيلين ، وبالغ فى إكرامهم والاحتفاء بهم ، ثم خطبهم فتحدث عن فتاته وما كان من أمر خطبتهم لها وعدم التوفيق فى إنجاز شىء مما أقدموا له واختلفوا فيه ... « فإن بدا لهيلين يا سادة أن تختار أحدكم ليكون لها زوجاً من دونكم انقلبتم على أعقابكم ، وثرتم بمن يقع عليه اختيار الفتاة ، فقتلتموه أو فضحتموه فى عرضه ، وجعلتم اسم هذا البيت الكريم مضغة فى أفواه الملايين وجيرانهم ؟ إنما نريد أن نتقى هذا الشر فلا يستطير ، ونتدارك الأمر ، فلا ندعه هجية بيننا ، ولن أكلفكم فى سبيل ذلك شططاً ، . . يمين ، يا سادة ، صادقة ، تقسمونها فتكون عهد الوفاء بيننا ، أن ترتضوا جميعاً ما ترتضيه هيلين ، وأن تكونوا يداً على من يحنث ولو كان أعزكم جانباً وأكثركم قوة . . ، بل لنتفق جميعاً على أمر يكون أعم مما أشرت إليه ، أن نكون يداً على من تحدثه نفسه بالإضرار بهيلين أو بسببها ؛ فقد تحدث إلىّ من عنده علم أن بعضكم ينتوى هذه النية السوداء . . . ينتوى أن يسرق هيلين إذا لم يكن من حظه أن يقع اختيارها عليه ليكون بعلاً لها ، وأنتم السادة النجُبُ من علية الإغريق وجيرة الأولمب ، أترضون أن يحدث هذا الحدث فى أمر كلكم شاركتم فيه من قبل ؟ . . »

ويجيب المدعوون فى صوت واحد : « حاشا حاشا ! لنقسم جميعاً . . »

وأشرفت هيلين على الملأ ، وكادوا يفتتنون بعد إذ أقسموا ، لولا أن أرسلت الفتاة صوتها الموسيقى الرنان . . . تختار ملك أسبارطة ، الملك منلوس ليكون زوجها الوفى الأمين !

وطأطأوا رءوسهم . . . وانصرف أحدهم فى إثر الآخر . . .

* * *

رسا أسطول باريس فى مرفأ ليسديمونيا(١) الأمين وخرج الأسبارطيون وعلى رأسهم ملكهم ومليكتهم للقاء ابن پريام العظيم ، حيث شاع أنه ينزل ضيفاً كريماً على صاحى العرش ، فيلبث أياما فى ضيافتهما ثم يعود أدراجه إلى طروادة مصطحباً عمته الأيم هسيونيه !

وتقدم الملك والملكة فسلما على الضيف الشاب ، وتحرك الموكب الكبير فى طريق حُفّت بالشعب الطروب ، وفُرشت بأوراق الورد ، وتأرجت فى جنباتها أنواع الرياحين . وكانت فرق الموسيقيين تعزف هنا وهناك ، فتراقص ألحانُها العذبة حبات القلوب . وكم كان جميلا رائعاً إنشاد الجنود وقد وقفوا صفوفاً صفوفاً ، كلما مر الموكب الملكى بفرقة منهم دوّى هتافهم حتى يبلغ عنان السماء . . . فإذا فرغوا وصلت هتافاتهم فرقة ثانية . . . وهكذا . . .

وكان سرب من أجمل فيان اليونان وحسانها يحيط بالملكة الجميلة ، وقد قصرن ثيابهن وأرسلن شعورهن ، فبدون فتنة الركب ، وكن سحر الموكب ، ولفتن من باريس بصره وسمعه وفؤاده !

وكان الفتى يخالسهن نظرات مشغوفة ، وكن بدورهن يبسمن له

---

(١) أوليقديمونيا عاصمة أسبارطة قديما ويطلق هذا الاسم على أسبارطة نفسها .

ويتبرجن ، حتى التقت عيناه بعينى الملكة . .. فنسى نفسه ؟

لقد خُيِّل له أن قلبه انخلع من مكانه الذى بين جنبيه ، ليتأرجح فى مقلتيه ! أين رأى هذه الملكة من قبل ياترى ؟ إنه لم يذهب إلى الأولمب قط ، وهل لبشرى أن تطأ قدماه أرض الأولمب فيرى مثل هـذا الجمال الساحر ، والحسن الفتان ؟ .

الحق أن هيلين تعمدت أن تشك قلب پاريس فى قوة وعنف ، حين أدركت رسل العيون تنتقل بسرعة بينه وبين قيانها وحسانها ! فلما التقت عيناها بعينيه غمزت قلبه الضعيف الغض بسهم مُحراش من عينيها الساجيتين ، انطلق إلى جوانحه فى برق من بسماتها ... ورعود !

لقد زُلزِل قلبه .

وأحس كأن قوى خفية تجذب روحه لتمرغها تحت قدمى هيلين ! وطفق يفكر ويفكر أين رآها من قبل .. ولكن بلاجدوى ..

ثم بدت له ڤينوس بحيث لا يراها أحد غيره . . وقالت له : « هى .. هى . . كن شجاعا ! » ... ثم غابت ربة الحسن ...

فذكر ماضيه القريب ، وذكر ما وعدته به ڤينوس ، وذكر أن هيلين إن هى إلا صورة أرضية . . . سماوية . . . من ربة الحب ، وأنها مخلوقة كخلقها ، عذوبة روح ، ورقة نفس ، ودفء دم ، وسحر عيون .. فصمم على أن تكون له !

* * *

ولبث پاريس فى ضيافة الملك أياما كانت تتصرم كأطياف الأحلام ! ثم حدث حادث جلل فى أطراف المملكة استلزم وجود الملك نفسه ليرى

رأيه فيه ، فلما كان يوم السفر ودع منلوس زوجته الحسناء ، وأوصاها بإكرام ضيفه العظيم ، باريس ، « ابن صديق ملك طروادة ! » . فطمأنته هيلين ، وخرجت تودعه ، حتى إذا كانت عند أسوار ليسديمونيا ، حيته تحية فاترة ... وعادت ترعى عصفورها الغرِّيد . !

أقبلت هيلين على ضيفها غير هيابة ، وأقبل هو عليها فى غير وجل . أقبلت عليه تؤانسه كما أوصاها زوجها ! وأقبل هو عليها يغازلها ، ويبحث فيها عن أجمل امرأة فى العالم كما وعدته ڤينوس !

« هى هى ... كن شجاعا » . هكذا كانت تردد هذه العبارة المقتضبة فى أذنى باريس كلما ذكر الوفاء وشكران الجميل ، وكلما هم أن يبتعد بقلبه عن زوجة الملك الكريم المضياف الذى احتفى به وأكرم مثواه ...

« هى هى .. كن شجاعا ! » إذن فليكن باريس شجاعا كما أمرته ڤينوس ! ليقترب من هيلين فى هذه الخلوات الحلوة التى تمن عليه بها ، فتستطيل كل مرة إلى ساعات وساعات ؟

ليقترب منها ، ولتصب فى سلسبيلا من الموسيقى فى أذنيه المرهفتين إلى كل كلمة من كلماتها ... وليرشف هو هذا السحر الذى يتدفق من عينيها وأهدابها . . وليرشف هذا السحر حتى تشمل روحه ، ويسكر قلبه ، وتزيغ عيناه !

لقد وقف كل منهما أمام صاحبه كأن شيئا كان يدفعهما دفعاً ؛ أجل . . لقد كان هذا الشىء هو يد المقادير التى كانت تلعب وراء الحجب . . . المقادير التى تعمل عملها من وراء ستار ، حتى لا تراها ، وحتى تنفذ ما كتبته فى ألواحها . . . لا نستطيع له دفعا ولا نستطيع له رداً .

* * *

لقد وقف كل منهما أمام صاحبه ليسمع إلى لغة المقادير فى الأعين المغرورقة بالدموع ، وخفقات القلب التى تقول ما لا يفهم .

لقد كان كل منهما يحملق فى عين أخيه كأنه كان يبحث عن شىء قديم عزيز ضائع .

تُرى ؟ ماذا كان هذا الشىء ؟

علم ذلك عند ڤينوس .

وعلمه فى لوح القضاء والقدر

* * *

— « ألا يسرك يا هيلين أن نعيش سويا أبد الدهر .. »

— « ألا يسرنى ، ما السرور إذن ياحبيبى پاريس ؟ »

— « إذن فلنرحل فى ظلام الفجر »

— « إلى أين ؟ »

— « إلى طروادة ؟ »

* * *

وأقلع الأسطول فى غبشة البكور يحمل... هيلين.

وعفا الحب عن عمة پاريس ، عفا الحب عن الأيم هسيونيه .

النسيم

عاد منلوس من رحلته فى الحدود ، وليته لم يعد :

لقد جنّ جنونه حينما علم من أمر زوجه وضيفه ما علم .

« علام إذن كانت كل هـــذه الضجة ، التى أحدثتها تلك اللعينة قبيل زواجنا ؟ لقد تركت خُطّابها الكثيرين صرعى حول قصر أبيها ، وظلت تتيه وتدِل ، وتتأبى وترفض ، وفيهم شجعان هيلاس وحماتها وأبائها ، وملوكها الصيد ، وفرسانها الصناديد .

فيم إذن كانت كل هذه الضجة ؟

هل منحتنى جسمها فقط يوم اختارتنى بعلا لها ؟ وهل ذخرت قلبها للحب الأثيم ، والهوى الفاجر ، حتى ترزقها شياطين الفتنة هذا الشاب الفُرانِق ، اللاهى المستهتر ، فراحت تقدمه فوق مذبح جمالها قربانا طواها النجس ، وتَقْدِمة لشبابها الرجيم ؟ وا حَرَبا . هل اختارتنى بعلا لها ، لا لشىء ، إلا أننى ملك وسليل آلهة ؟

يا للفاجرة !

أفى ذلك البيت الرفيع الذرى ، ظلت تتقلب التاعسة فى ضلالات الخيانة ، وظلمات الإثم ؟

أيتها الجدران الحزينة : كم كلمة دنسة أصمت آذانك ، وكم صرخة فاجرة دوّت كالرعد فى حناياك ؟ حدِّثنى أيها الهواء المسموم عما كنت تشهد

فى صميمها ، حين كانا ينفثان من صدريهما سما قتالا ! خبرى أيتها الستائر ، أيتها المصابيح ، يا شموع قصرى ، أيتها الأرض الملوثة . أيها العرش المهين أيها التاج الذليل .. أيتها الكؤوس المتناثرة ، والأكواب المقلوبة . . تحدثى إلىّ !

حدثنى يا كل شىء هنا عن مهازل الفسق ومذابح الشرف !

آه ! الشرف ؟ الخرافة الكبرى !

الحرب ! الحرب ! الانتقام ! . من الفاجرة . . اقتلوا الخائن . . ياحلفائى . ، تنداريوس . . أدع حلفاءك . . لقد أقسموا جميعا . . لقد كنت تتوقع هذه النهاية يا تنداريوس . . إستيقظ . ، إستيقظى يا أسبارطة . ، جنودى . . شعبى . ، هلموا إلى . . »

وهكذا أرسلها منلوس صرخة مدوية تجاوبت أصداؤها فى جميع أجواء هيلاس ، واستجاب لها كل قادر على الحرب فيها .. إلا القليل .

لقد عجب عشاق هيلين حين وصلتهم صيحة تنداريوس ، وصدقوا يمينهم التى أقسموا ، فلبوا سراعا ، وانتفضت هيلاس كلها فصارت ثكنة تعج بالجند وتضج بآلات الحرب ، واضطربت البحار بالأساطيل ، تيمم شطر أوليس(١) ، حيث اتفقت الكلمة على أن يبحر منها الأسطول المتحد ؛ فلا يرسو إلا فى مياه طروادة .

ولبى الصيحة كل عشاق هيلين الذين أقسموا اليمين ، فهرعوا من المشارق والمغارب بخيلهم ورجلهم .. إلا ملك إيثاكا .. أوليسين (٢) .

---

(١) أوليس ثغر كبير فى مقاطعة بووطية (التى كانت طيبة حاضرتها قديما)

(٢) آثرنا هذه التسمية بدلا من التسمية الشائعة (عولس) لحوشيتها ، وبدلا من أوليسيس أو يوليسيس لتكرار السين ، ويسمى أيضا أوديسيوس وبها دعوناه فى قصة الأوذيسة

أوليسيز

كبر فى نفس أوليسيز أن يتقدم لخطبة هيلين فترفضه فيمن رفضت ، وهو مع ذاك ملك إيثاكا وبطلها الحُلاحِل ، وفارس هيلاس الذى لا يشق له غبار . وكبر فى نفسه أن تؤثر عليه منلوس ، وهو مع ذاك دونه شجاعة وأقل منه إقداما حين يثار النقع وتستعر الحرب ؛ وكبر فى نفسه أيضا ألا تكون له زوجة يفاخر بها ويُزهى على كل جميلة فى العالمين . فذهب من فوره إلى عمها فتزوج ابنته الجميلة الرائعة پنلوب : « الزهرة التى تهتز للندى ، وترقص لخيوط الشمس الذهبية ، وتغنى مع الأطيار . ويسكر النسيم إذا داعب خديها .. قبلة الحب الخالد على خدود الجمال الطليق ، وابتسامة السماء الضاحكة فى قلوب المحبين المعذبين پنلوب . الوديعة كالأطفال ، الحلوة كالرضا ، الصافية كقطرة الندى بين أوراق الورد ، المرحة كسطور الغرام فى خطاب الحب . . پنلوب . . التى تفخر الأرض بأن تحملها . والهواء بأن تستنشقه . . والسماء بأنها تظلها وتشرف عليها والجبل بأنها تنظر إليه . . والبحر بأنه يغسل قدميها المعبودتين .

پنلوب : ذات الفم العطرى ، والخد اللامع المورد ، والجبين الناصع الوضاح ، والعنق الناهضة الجيداء . . ربيبة الآلهة . ولمحة الأولمب ، وپندورا الثانية . . »

تزوج أوليسيز من پنلوب هذه فأخلصت له الحب ، وأصفاها المودة والغرام ، وولدت له طفله الجميل المتلألىء تليماخوس (تلماك) ، فزادت

حبتها له ، وتضاعفت عبادته لها ، بعد هذا الرباط القدسى الكريم .

عز على أوليسيز أن ينأى عن زوجته الجميلة وطفله العزيز المحبوب ، لا لشىء يجر عليه مغنما أو رفعة ، ولكن ليحارب حربا لا تعلم إلا الآلهة كيف تنتهى ؛ فقد تكون عقباها القتل أو الغرق أو الأسر ، فتعيش الزوجة الجميلة أيِّماً محزونة ، ويحيا الطفل يتيما مُفتَجَّعاً . . وثمن ماذا كل هذه المصائب وتلك الآلام ؟ ثمن امرأة أذلت سادة هيلاس ، وجرحت كبرياء زوجها ، وفضحت أباها . ثم هتكت عرضها ، إذا كان لها عرض ، بفرارها مع هذا العاشق الفاجر الأثيم .

لم يشأ أوليسيز أن يقامر بسعادته وحياته فى هذه الحرب إذن ولو كان فى ذلك ، كله أو بعضه ، الخنث العظيم . . فما يمين شرفٍ هذه التى يتمسك بها ملك كبير كملك إيثاكا ، من أجل امرأة ليس لها شرف ؟

ليقعد إذن عن هذه الحرب ، وليُصِمَّ أذنيه دون صيحتها الكبرى ، فإذا ألح عليه الملحون . . فليتظاهر بأنه مجنون مأفون . . لا تهديه مسكةٌ من عقل ولا تُرشده أثارة من تفكير .

أرسلوا إليه رسولهم السياسى الكبير پالاميدز يحضه على الحرب ويذكره بيمينه التى آلاها ، ويحرضه على « الطروادين اللؤماء ، الذين يوشكون أن يفضحوا الهيلانيين فى أعراضهم » ، ولكنه ألفاه يحرث شاطىء البحر بمحراث هائل يجره ثور ذو خوار . . وحصان عربى أصيل !

— « عم صباحا أيها الملك . . »

— « . . . ! . . . »

— « ماذا يصنع مولاى ؟ »

— « أحرث هذا الحقل الخصيب ! »

— « أى حقل ؟ »

— « الحقل الذى ترى . . أليس لك عينان تسمع بهما ، وأذنان ترياق ما أفعل ؟ »

— « عينان تسمعان ، وأذنان ترياق ؟ »

« إذهب . . لا تشغلنى . . أريد أن أبذر حقلى هذا الصباح »

— « وماذا عساك أن تبذر أيها الملك »

— « لست ملكا فلا تهزأ بى . . نحن الفلاحين نطعمكم ونسمنكم ثم يكون جزاؤنا أن تسخروا بنا ، اذهب ، اذهب »

« وماذا عسيت أن تزرع ؟ »

— « سأزرع ملحا ؟ ! »

— « تزرع ملحا ؟ ! وتحصد ماذا ؟ »

« أزرع ملحا ، وأحصد ، سمكا ، ها ها . . لا لا . . سأحصد باذنجانا . . ولكن لماذا تقف هكذا قريبا منى ؟ لماذا لا تذهب ؟ »

— « ألا تعرفنى يامولاى ؟ »

— « أرجوك ! أنا لست مولاك ولا مولى أحد ، إذهب ودعنى أشتغل »

— « أنا پالاميدز يا مولاى ! والأسفاه ! إن هيلاس كلها تنتظرك ليومها المشهود » .

— « تنتظرنى ؟ إنها لا بد جائعة يا پالا ، يا پاما ، يا پالادين

— « لست پالادين يا مولاى ، أنا پالاميدز ! »

« پالاميدز : هذا عجيب ! تعال إذن فاعمل معى .. سَأسأ (١) . . »

— « الحرب يا مولاى ، الأساطيل فى أوليس ! »

— « أى حرب وأى أساطيل يا رجل ؟ »

— « سنحارب طروادة ! »

— « ولم لم تذهبوا بعد ؟ »

— « نريد أن تكون معنا ، فالكل يهتف بك ويدعوك ؟ »

— « أنا ؟ يدعونى أنا ؟ . . أنت يا رجل لا تريد أن أزرع هذا الحقل ملحا ؟ وماذا أصنع فى الحرب ؟ هل أخبروك أننى فارس ؟ اذهب اذهب . . سأسأ . . سأسأ »

— « ألا تعرف من أنت يا مولاى ؟ »

— « وهل تعرف أنت من أنت ؟ »

— « أنا پالاميدز ، وانت ؟ »

— « أنا ؟ أتريد أن ترسل إسمى إلى الميدان ؟ . . أتتركنى بغير إسم يا رجل ؟ »

* * *

لم يستطع پالاميدز أن يفوز من أوليسيز بطائل ، فقد مثل ملك إيثاكا دور المجنون تمثيلا متقنا ، يحاول أن يفلت من هذه الحرب التى لا شاة له فيها ولا جمل ، والتى قد يقتل فيها أو يؤسر من أجل زوجة خائنة لا شرف لها ولا عرض . بيد أن پالاميدز لم ييأس حين رأى ما شدهه من جنون الملك ، فإن وسواسا وقر فى قلبه أن هذا البله قد يكون

---

(١) سأسأ بالحمار دعاه للشرب أو الانصراف أو للعمل والسير

تَسبَالُها، وأن ما بالملك من مس إن هو إلا حيلة يحاول أن يفلت بها من أرزاء الحرب وأهوالها ، ثم هو حيلة كذلك للتحلل من اليمين التى أقسمها عشاق هيلين .

لذلك لجأ بالاميدز إلى الحيلة هو الآخر ، فانقطع أياما ظل يرقب الملك فيها عن كثب ، بحيث لا يراه أوليسيز . ولكن الجواسيس كانت تحمل أخبار السياسى الداهية أولا فأولا إلى رئيس البلاط ، وهذا يحملها بدوره إلى مولاه .. الذى يفطن إلى مكر بالاميدز فيبالغ فى ادعاء الجنون ، وينزل إلى البحر يحرث موجه .. بعد إذ فرغ من حرث شاطئه !

ويسقط فى يد بالاميدز فيطلق آخر سهم فى كنانته .

ذاك أنه تحايل فسرق تليماخوس الصغير ، ولى عهد أوليسيز ، والأعز عليه من نفسه ، ومن الدنيا وما فيها ؟!

سرقه فذهب به إلى حيث والده ، يحرث الشاطىء ، ويحرث البحر ، فطفق يضع الغلام أمام المحراث ، ليرى ما يكون من جنون الملك ، هل يقتل ابنه ، ويكون بذلك مجنونا حقا ، أو يتفاداه ، ويكون جنونه محض ادعاء ، وبلهه تلفيقا فى تلفيق .

ولكن الملك كان أحرص على ولى عهده ، وقرة عينه . من أن تتم فيه حيلة بالاميدز الداهية ! فكان كلما تعرض ابنه لخطر الموت ، لوى عنان الثور ، وذاد الفرس ، متفاديا الطفل إلى الناحية التى لا يكون عليه فيها خطر .

فتضاحك بالاميدز ، وفضح جنون الملك ، وأخجل حيلته .. ثم

لم يزل به حاضًّا محرضا، حتى أقنعه بوجوب خوض هـذه الحرب مع إخوانه الهيلانيين .

* * *

ازدحمت جحافل الهيلانيين فى أوليس ، وانعقد المجلس الحربى لانتخاب القائد الأعلى ، فاختير ابن الشمس البكر ، أجاممنون ، شقيق منلوس وصفيّه ، بالإجماع .

أختير أجاممنون للقيادة العامة وإن لم يكن خير أعضاء المجلس الحربى . وكيف يكون كذلك ومن أعضاء هذا المجلس أوليسين العظيم ملك إيثاكا وأچاكس بطل الأبطال وفارس كل نزال، ونسطور أحكم من أشار بخطة فى معمعان ، وديوميدز المحارب الصنديد .. إلى آخر هذه العصبة المختارة من جبرة الأولمب ، والسادة النجب من فرسان هيلاس .

أختير أجاممنون إذن لأنه شقيق منلوس وممثله فى هذه الحرب ، ثم لأنه أكبر أعضاء المجلس الحربى سنا ، وهو مع ذلك أحد شجعان هيلاس المعدودين .

* * *

انتظمت صفوف الجند ، وأخذوا فى تمرين عنيف أياما معدودات ، ركبوا بعدها فى سفائن أسطولهم العظيم ، وظلوا ينتظرون إذن القائد الأعلى أمير البر والبحر ، بالإقلاع ، فتجرى بهم الجوارى المنشئات فى موج كالجبال .. إلى طروادة !.. يحملون إليها المنايا الصُّفر ، والفوائل السود فى شفار المشرفيات البيض .

ولكن أمير البحر والبر لم يأذن لهم بالإقلاع .

ذلك أن بعض أعضاء المجلس الحربى أشار بوجوب استيحاء الآلهة عما إذا كانت حملتهم العظيمة هذه قد كتب لها الظفر والانتصار ، أو الهزيمة والانكسار ؟ ليكونوا من أمرهم على بينة ، وليكونوا أيضا قد استخاروا أربابهم فتُخيِّر لهم . واستشاروها فتخلص لهم المشورة ، ويمضون بعد ذلك على بركتها وفى حراستها .

وارتقبوا نبوءة الآلهة بقلوب فارغة ونفوس مبتهلة . ومضت أيام .

ثم رأوا إلى تيرزياس كاهن المعبد يدلف نحوهم فى هدأة فجر صامت ، فشخصت أبصارهم إليه ، وظنوا به الظنون .

وجلس الكاهن المسن ، يتلب فى القادة عينيه الكبيرتين ، وصمت لحظة ثم قال : « أين ابن بليوس أيها الملأ . . ؟ » .

ونظر القادة بعضهم إلى بعض ولم يُجيبوا . .

فقال الكاهن : « يا ابن بليوس رب الأعماق ، من زوجته ذيتيس ! أليس فيكم أخيل ؟ ! »

فأجاب أجامنون : « ومن أخيل أيها الأب المقدس ؟ »

فقال الكاهن : « هو ابن ذيتيس التى قالت فيها ربات الأقدار إنها تلد غلاما يكسف مجده مجد أبيه . ابحثوا عنه ، فلن تفتح طروادة إلا أن يكون معكم . ولن ينفعكم أن تذهبوا بدونه . هكذا قالت الآلهة . . »

أخيل

شُدِه القوم ، ونظر بعضهم إلى بعض ، ونهض الكاهن الوقور ذو اللحية المرتعشة يضرب فى غَبْشَة الصبح، متكئا على عكازه الذى أحنته وأحنت صاحبه السنون ، ولم يكد يتسنم ذروة الجبل حتى أشرقت ذُكاه ، فاختلط ذهب أشعتها بفضة لحيته ، فزادته رهبة ، وزاده البعد وقاراً ، وملأ بهامته السامقة وطيلسانه القشيب ، قلوب العسكر، وعيون القادة ، ألغازاً وأسراراً ..

* * *

عاشت ذيتيس فى كنف بليوس قانعة راضية . لا يعنيها من هذا العالم الرحب إلا الجنين الحبيب الذى يتقلب فى أحشائها ، فتتقلب معه أكبر الآمال .

ومضت شهور .. ووضعته غلاما بكّاءً كثير الصخب ، يضرب الهواء برجليه الصغيرتين ، فكأنما يضرب المشرقين والمغربين ، وينظر فى السماء العميقة بعينيه الزرقاوين، وكأنما يبحث فى أغوارها عن جده .. ومجده ! وترى إليه أمه وتبتسم .

وشب الغلام وأيفع ؛ وتحدّثت إلى أمه العَرّافات والكاشفات الغيب أن سيكون محاربا عظيما ، تتحدث بذكره الركبان ، وتتعطر باسمه المحافل فى كل زمان ومكان ، وأن لا بد من رحلة به إلى الدار الآخرة — هيدز مملكة پلوتو — حيث تستطيع الأم غمس ابنها

فى أمواه ستيكس ، نهر الخلود الزاخر . الذى أودعته الآلهة أسرارها ، ونظمت فيه شعراء الأولمب أشعارها ، واشتهرت بركاته فى العالمين .

حدثتها أنها إذا غسلت ابنها فى أمواه ستيكس ، فإنها تكسب جسمه مناعة ضد الموت ، وحفاظا من الفناء ، لأن جلده يصبح كالدرع المسرودة من حديد ، لا تنفذ فيه السهام ، ولا يؤثر فيه طعن القنا ، ولا ضرب المشرفيات البيض .

ووقفت به على شواطىء ستيكس !

وهالها أن تنظر فترى إلى المنايا تقفز على غوارب الموج ، وتثب فوق نواصى الثلج ، تدمدم كأنها الذئاب ، وتهوم كأنها البواشق ، وترقص ظلالا سوداً كأنها الجن .

لقد ريعت الأم المسكينة ، وكادت تثنى بطفلها المعبود ، إشفاقا عليه من هول ما شاهدت . . بيد أن الطفل . . بيد أن أخيل الصغير ، كان يصرخ ويلتحب كلما بعدت به أمه عن النهر ، فى حين كان يهدأ ويبتسم كلما اقتربت به منه . فتعجبت ذيتيس ، وجلست ترقب من النهر فرصة هادئة تغمر ابنها فى مائه لحظة وتمضى لشأنها .

وكأن الآلهة قد استجابت لتوسلاتها ، فقد نامت الأمواج ، واستقر سطح الماء ، وقالت (١) شياطين النهر المصطخب ؛ فتقدمت الأم المضطربة حاملة ولدها من إحدى رجليه ، وذكرت أربابها ، مبتهلة إليهم ، وغمست أخيل فى الماء الهادىء فى أقل من لمح البصر ، وعادت أدراجها فرحة متهللة .

---

(١) من القيلولة أى النوم فى الحر .

إلا أن جزءاً واحداً من جسم أخيل لم يغمره الماء !

ذلك هو عقب قدمه اليسرى ، فيا للهول !

ثم أسلمت ذيتيس ولدها الحبيب للمعلم العظيم شيرون ، مؤدب هرقل ومدربه ، يلقنه الفنون الحربية ، وينشئه على أعمال الفروسية ، ويبث فيه ذلك الروح الكبير ، الذى بثه فى سائر تلاميذه من قبل ، فكانوا فرسان كل حلبة ، وصناديد كل ميدان ، ولقد نبغ أخيل فى استعمال السيف ، واللعب بالرمح ، وتوتير القِسى ، وثقف حيل المصارعة والملاكمة . وقصارى القول : أصبح فتى زمانه ، والهلع الملقى فى قلوب أنداده وأقرانه . إن كان له أنداد وأقران .

وعاد إلى أمه فاحتفت به ، وذهبت من فورها هذا إلى العرافات القدامى ، وكهنة المعبد ، فاستوحتهم ماعسى أن يكون فى كتاب الغيب من حظ لابنها فى الميدان .

ولكنها حزنت ، ودهاها من الهم ما دهاها ، حين قال لها الكاهن الأكبر ، مؤمناً على ما تنبأت به العرافات ، من أن أخيل سيدعى للقتال فى صفوف الإغريق ، وأنه سيلقى حتفه تحت أسوار طروادة ، بسهم يرميه به ألد أعدائه ، يصيب منه مقتلا فى موضع دقيق من جسمه ، هو ، وا أسفاه ، عَقِب قدمه اليسرى ، التى لم تغمرها مياه ستيكس .

حزنت ذيتيس ، وتجهمت للحياة المشرقة ، وتجهمت الحياة المشرقة لها ، وآلت إلا أن تحول بين ابنها وبين حملة طروادة التى كانت الصيحة لها تجوب آفاق هيلاس فى تلك الآونة .

وجلست تفكر . .

وبدا لها أن ترسل بأخيل ، حيث يحل ضيفاً على ليقوميدس ، ملك سيروس الكريم المضياف ، وأن تنتحل الأعذار الواهية ، فتعرض على الملك أن يسمح لولدها بالتنكر ، بأن يُصفِّف طرّته ويرسل غدائره ، ويزجج عينيه وحاجبيه ، ويصبغ خديه وشفتيه ، ويضفي عليه من وشي العرائس وأفواف الإناث ، وحِبرَ القيان الغيد ، ما يبدو به كأنه واحدة من بنات الملك أو إحدى سراريه ! تحسب المسكينة أنها بذلك تعفيه مما قدر له ، وهو أينما كان يدركه القتل ، ولو كان في برج مشيد !

* * *

واشتد طلب الإغريق لأخيل ، ولبث الأسطول الضخم يرقب مجيئه في كل لحظة عدة أيام ، وخشي أجاممنون إن هو أقلع بالفلك ، ورسا عند شطئان طروادة أن ترسل الآلهة ريحا صرصراً تسخرها عليه ، فتأتي على أسطوله ، أو يظل تحت أسوار أعدائه مرابطا أبداً ، لا يتقدم ، ولا يتأخر وتكون إقامته ثمة بالهزيمة أشبه ، وإلى الانخذال أقرب . فأخذ يبعث الرسول يتلو الرسول للبحث عن أخيل ، الذي أنبأت الآلهة أن فتح طروادة مستحيل بدونه ، ولكن عبثاً حاول أحد من الرسل العثور بأخيل أو بظل أخيل ، بل كانوا يعودون جميعا وهم يتعثرون بأذيال الخيبة ، ويملمون أطراف الفشل .

وهنا ، نهض البطل الملك «أوليسيز» فتى إيثاكا ، وندب نفسه للبحث عن أخيل ، وأقسم لا يعودَن إلا به .

ومع أن بعض القادة من أعضاء المجلس الحربي ، أوجس خيفة من أن يفر أوليسيز ، وأن يكون ندبه لنفسه بحجة البحث عن أخيل ، إن

هو إلا حيلة يريد بها أن يفلت من تبعات الحرب وأهوالها ، إلا أن أجاممون نفسه، وهو القائد الأعلى للجيوش والأساطيل، قبل أن يذهب أوليسيز كيما يقص أثر أخيل ، بعد أن أخذ عليه « يمينا على حد الحسام المهنّد ! » .

* * *

استطاع أوليسيز أن ينفذ إلى مملكة بليوز فى أعماق المحيط ، واستطاع أيضا أن يختلط بالخدم وحاشية القصر ، وأمكنه أن يستدرج بعض الأمراء المقربين من رجال الأسرة المالكة ، فيعلم منهم أين يختبىء أخيل ، وكيف يمارس حياة العذارى فى بلاط ليقوميدس، ملك سيروس، كأنه إحداهن، وعلم أيضا أن أخيل نشأ نشأة عسكرية على يدى شيرون العظيم ، ومن كان تلميذ شيرون فأخلق به الا يستنيم لهذه الحياة الناعمة التى لا تليق إلا بأبكار الخدور ، وربات الحجال ، لا بالأبطال وصناديد الرجال ، فانطلق إلى سيروس من فوره .

انطلق أوليسيز الى سيروس النائية ، التى تكاد تكون منقطعة عن العالم ، وقد حمل على ظهره العريض ، وكاهله القوى حقيبة كبيرة جمع فيها من كتان مصر وأصباغها ، وعطورها ، وحبر الشام ، وحريره وسموره(١) ، وتصاوير فارس ، وقاقمها(٢) وسنجابها(٣) ، ومشرفيات الهند وتحف السند ، وطرف الصقلب . . ومن كل ما غلا وارتفع ثمنه من أدق صناعات العالم جميعاً .

فلما كان فى حاضرة المملكة ، يمم شطر قصر الملك . . وكان الوقت ضحى ، ثم طفق يصيح باللهجة السيروسية ، معدداً اسماء السلع التى :

---

(١) ، (٢) ، (٣) ألوان من الفرو الثمين .

استحضر لها حديثاً من مصر الجميلة المتفننة ، والشام الصناع العبقرى ، وفارس الفنية الكسروية ، والهند العظيمة ، والسند الـ ... ونحن لا نبيع إلا الملوك وأبناء الملوك ، لأن الشعب فقير لا يقدر بضائعنا الغالية ... ونحن معروفون فى مصر ، لا يشترى فرعون إلا منا ، وفى الشام ، وفى فارس ، وفى الهند ، حيث الأقيال العظام والـ ... »

وأرسلت بنات الملك فأحضرن هذا التاجر المفاخر بما معه واجتمعن حوله يتفرجن ويتلهين : هذه تختار منديلا من حرير الهند ، أو منطقة من خز الشام ، وتلك تشترى من أصباغ مصر وعطورها وخرزها ، وثالثة تشغفتن بتصاوير فارس ، فتشترى كل ما مع الرجل منها ...

ولكن فتاة ملثمة ... وقفت وحدها ترمق سائر الفتيات بنظرات ساخرة ، ولا تكاد تبين إلا عن عينين زرقاوين متألقتين ، تقدمت فى خطوات متزنة ، ومشية منتظمة ، وأخذت الحقيبة من الرجل فقلبتها ، وما كادت ترى إلى المشرفيات الرقاق ، حتى تهللت ، وبدا البشر فى عينيها ، وتناولت حساما مرهفا وشرعت تلعب به فى الهواء هنا وهنا كأنما تطيح به رؤوس أعدائها الذين تتصورهم فى لوحة الخيال البعيد ، المنطبع على أسوار طروادة !! .

وشكده أوليس مما رأى !

إنه هو نفسه لا يستطيع أن يلاعب السيف كما تلاعبه هذه الفتاة !

وإن فتاة تغازل السيف هكذا ، لا يستطيع عشرة آلاف فارس أن يقفوا فى وجهها ؛ إذا جمعتهم وإياها حلبة للوغى !

إنها تأخذ على الهواء مسلكه ، فالهواء نفسه ذبيح هذه الضربات القاسيات !

وانقشع الشك عن نفس أوليسين ، وأيقن أنه أمام البطل المنشود ، فصاح بصوته الجهورى ، وكأن الرعد ينبرى من بين شدقيه :

« أخيل ! . . . . »

وكأن كل مافى الأرض والسماء راح يردد صيحة أوليسين :

« أخيل ... أخيل .. أخيل ... »

ووقف أخيل لحظة جامدا ، شارد اللب ، زائغ العينين ، كأنه مستيقظ من حلم كريه مفزع ؛ ثم ماهو إلا أن نثر لثامه ومزق الغلالة الحريرية التى كانت تحبس جسمه العظيم فى سجن امرأة ، وصاح بأوليسين وقد بدا فى بُرد الأسد .

— « أنا هو ... أنا أخيل ... فمرحى يارجل ! »

— « أنت هو ... ؟! »

— « أجل ... أخيل بن بليوز ... أبى إله عظيم وأمى بنت إله عظيم ، فلبيك وسعديك ! »

— « وأنت مختبىء هنا فى خدور النساء خشية الحرب التى احتشد لها قومك دفاعاً عن الوطن ؟ »

— « أية حرب يارجل ؟ »

— « بين هيلاس وبين طروادة ! »

— « ومن أثارها ؟ »

— « لقد سرق باريس بن بريام ، هيلين ملكة أسبارطة »

— « سرقها ؟ ولم لم تقتله الفاجرة ؟ »

— « فرت معه ، ولم تبال بأن تلقى شرف هيلاس فى الوحل »

— « ولم لم تذهب أنت إلى الملوّمة ، ويبدو لى أنك محارب كبير ؟ »

— « بل أقبلت من الصفوف لأبحث عنك !! »

« ومن أنت حتى يندبك الجيش للبحث عن أخيل ؟ »

— « ومن أنا ؟ وماذا يسرك أن أكون ؟ »

— « من أنت يارجل ؟ »

— أيسرك أن ملكا هو الذى يبحث عنك يا أخيل بن بليوز ؟ »

— ماذا تعنى ؟ أأنت ملك إذن ؟ ملك ماذا ؟ »

— « ملك إيثاكا يا أخيل !! »

— « أنت ملك إيثاكا ؟ أنت أوليسيز ؟ هاها ... وما تلك الحقيبة إذن ؟ »

— « هى وسيلتى إليك ، لقد مزقت بها خمارك ، وهتكت بما فيها أستارك »

— « أنت تهيننى ! »

— « لا عليك ، مادام محدثك أوليسيز ! »

— « أفى الحق أنك هو ..... ؟ »

— « أقسم لك بالكناس (١) الذى آواك ...

— « وفيم كنت تحرث شاطىء البحر إذن ؟ لقد ذكروا أنك زرعته ملحاً ، فهل حصدت سمكا يا أوليسيز ؟

— « أخيل ! الأسطول ينتظرنا ، ألف ألف يتحرقون شوقاً لرؤياك وأنت أكرم من أن تفر من حرب ... فهلم !

---

(١) الكناس بكسر الكاف بيت الظبى .

« هلم إلى أين ؟

— « إلى أوليس أيها العزيز .. إلى حياة البطولة والمجد والشرف !

— « البطولة والمجد والشرف !! ماذا تقول ؟

— « لم يخلق تلاميذ شيرون للتقلب فى قصور الراحة ، والتلذذ بما فى العيش من طراوة ونعومة .. هلم يا أخيل نخض المعمعة ، ونلق طروادة العانية . ونُلَقنها درسا دامياً فى الذود عن كرامة الوطن! لا تقتل وقتنا فقد حرصنا جميعاً على أن تكون معنا ، وتحدثت إلينا آلهتنا أن طروادة لا تفتَح إلا عليك، ولا تعنو إلا لك،وقد اتفقت المقادير أن ترميها بك.. لا تترك لخصومك فرصة أن يقولوا فر أخيل وتقاعس ، فأين أبطال هيلاس ! هلم هلم ، فقومك بنو الكريهة وقروم الحرب وحتوف الأعادى. لو رأيت إليهم مستلئمين فى سلاحهم ، مقنَّعين فى حـــديدهم ، مسلمين فى سفينهم ، لزهاك عسكرهم الجرار ، وبهرك خميسهم العرمرم ! وتمنيت أن تكون أحدهم بالدنيا وما فيها .

دع الغيد يفاخرن بالقلائد والعقود ، وتعال إلينا نعد مافى أجسامنا من ضربات السيوف ، ووخزات الرماح ، ومواقع السهام ، فهذه أعز مفاخر الرجال يا أخيل !

أخيل ! رُد على ! قل سأحضر معك ! كلنا ننتظرك يا أخيل ! لن تفتح طروادة إلا عليك ! فأى فخر ينتظرك تحت أسوارها ، وأى مجد يكلل هامتك يا أعز أبطالها !

تكلم ، ولا تصمت هكذا .. إن ملك إيثاكا يتوسل إليك ، أنا أوليسيز كله ! سأكون خدنك فى الحَوْمة ، وصديقك فى المعمعة !

وأجاثون ! إنه قائدنا إلى الفخار ، وصاحبنا فى مصارع الشرف !
وديوميدز ! بطل الأبطال وفارس كل كريهة وقتال ! سيلسى شجاعته حين ينظر إليك تلاعب الأسنة ، وتقبل مراشف الرقاق البيض !
وأجاكس (١) يا أخيل ! لقد بهره ماسمعه عنك ، وهو يتمنى أن يراك ، ويحارب تحت بند من بنودك خفاق ! أجاكس نفسه ، يود أن يكون جنديا من جنودك وهو أقوى وأبسل جنودنا جميعا ... !
ماذا ؟ تبكى ؟ ... لالا يا أخيل .. لترقأ دموعك فهى أغلى من أن تنسكب هكذا ! أكرم بك هيلانيا رقيق القلب ، بارا ببلادك ، مناضلا عن رايتها فى ساحة المجد !
لتشرب من دموع أخيل يا ثرى الوطن !
لتروك هذه العبرات الغاليات ، فهى ترياقك إذا حزبك أمر ، أو ادلهمت بك الخطوب ! »

* * *

وهكذا كان أوليسيز ماهراً فى إثارة النخوة فى قلب البطل !
وهل أحلى من كلمات البطولة ، وأوقع من حديث المجد ، فى نفس شاب مثل أخيل ؟ لقد تقدم مختاراً طائعاً فقبل جبين أوليسيز ، ولثم سيفه ثم ودع بنات الملك ، وحيا القصر ، وتزود من الحدائق نظرات .
وانطلق فى إثر أوليسيز !
إلى ..
أوليس !

---

(١) هو أياس

obeikandl.com

القـــربان (١)

لم يبق إذن على الأسطول إلا أن يقلع إلى طردواة فيدمرها تدميرا !

ولكن البحر هادىء ، والرياح نائمة ، ولا بد لهذه السفن المثقلة بالعدة والعديد من قوة هائلة تدفعها فى هذا الخضم الزاخر .

الأيام تمضى دون أن تستيقظ الريح .

والملال يدب فى قلوب الجنـد ، من طول ما تلبثوا فى تلك الجهة من الشاطىء العابس المتجهم لا يريمون .

والميرة تكاد تنفد .

والخيل تهلك حديدها كأنها برمت بهذا الركود .

— « كالخاس »

— « مولاى ! »

— « إذهب يارجل فاستوح لنا أربابك ماذا تبتغى لِتُطْلِق الرياح ؟ »

« لبيك يا مولاى »

وانطلق عراف الحملة إلى المعبـــد القريب فمكث غير قليل ، وعاد بقلب موهون ، وجسم مضعضع ، ووجه مغبر ، وجبين كاسف معقد .

---

(١) اعتمدنا فى تلخيص هذا الفصل — عـلاوة على هوميروس — على درامة بوريبيدز الخالدة (إفجنيا فى آوليس) وذلك لأن ما وصلنا من هوميروس عنها مقتضب فـكانت درامة بوريبيدز هذه كالشرح المسهب لها .

— « ماوراءك يا كالخاس ؟ »

— « مولاى ! »

— تكلم ! تكلم يا كالخاس »

— « الآلهة ، الآلهة عطشى يامولاى ! »

— « عطشى ؟ »

— « أجل ، عطشى إلى الدماء »

— « دماء من ؟ »

— « دماء . . ابنتك ! »

— « ابنتى ؟ ابنتى من ؟ »

— « إفجنيا . . »

— « ويلاه ، ماذا تقول ؟ »

— « لا بد من تقديمها قربانا ! لابد من أن يُطَلَّ دمها على مذبح ديانا يا مولاى »

« ولمَه ؟ »

— « لكى تطلق الرياح من عقالها ، ولكى تكون فدى للجيش كله ، وطيلاس جميعا »

— « يا للهول ! لا كانت هذه الحرب »

وما كاد يقولها حتى تكبكب القواد حوله وطفقوا يترضونه : « من أجل الآلهـــة ، وفى سبيل الوطن » ، والرجل يبكى وينشج ، ويُذهب نفسه شعاعا !

وأمرهم أن يتركوه وحده ليرى رأيه .

فلما انصرفوا دعا إليه كالخاس وأخذ معه فى حوار طويل ، ثم رجاه أن يذهب إلى المعبد فيضرع إلى الآلهة ، عسى أن تقبل قربانا آخر ، غير هذه الفتاة الحبيبة المنكودة ، مهما غلت قيمة هذا القربان !

وعاد كالخاس ، وأخبر أن الآلهة لا تبتغى بإفجينيا بديلا !

وانهزم أجاممنون الأب ، وانتصر أجاممنون المؤمن التقى الورع ، الذى يقدس الآلهة ، ويعرف لهـــا قدرها ، فأمر بقرطاس وقلم ، وكتب إلى زوجه كليتمنسترا :

« بشراك يا حبيبتى !

أتعرفين أخيل ؟

أخيل الذى أصبح ملء الأسماع والأفواه والقلوب ! بطل هيلاس الذى وعدتنا الآلهة طروادة على يديه ، الشاب الوسيم القسيم القوى الأبى الشجاع ، يتقدم أخيل لخطبة إفجينا ، ابنتنا المحبوبة ، ويود لو تزف اليه قبل أن يقلع الأسطول لتدمير طروادة ، إنه لاشك سيرى فى مرآة إفجينا وطنه ، وحينئذ يكون حربا على الأعداء ونقمة عليهم من السماء .

أرسليها أيتها العزيزة ، وبودى أن تسرعى بإرسالها من دون ما جلبة فالوقت ضيق ونحن على وشك الإبحار » .

(أجاممنون)

وانطلق رقيق عجوز بالخطاب إلى آرجوس ، حيث تثوى كليتمنسترا فى قصرها المنيف « أتريدى » مع ابنتها إفجينا ، وأبنائها الآخرين .

وخفق قلب الفتاة حينما أخبرتها أمها أن أخيل يريد يدها . فقد كانت هيلاس كلها تتحدث باسم الفتى ، وتصلى للآلهة التى وفقته للانضمام إلى الجيوش الغازية .

خفق قلب إفجنيا .. وكأنما غرقت فى لجة من الأحلام التى تجيش عادة فى قلوب العذارى ، حين يمر بهن هذا الطور الناعم الجميـــل من أطوار الحياة . . .

ولكن ما الذى أوحى إلى أجاممنون بهذا التدبير ؟ ولم اختار هـذه الحيلة المكشوفة لاستدعاء ابنته التاعسة ؟ لا ندرى !

لقد مرت أيام دون أن تحضر إفجنيا . ولم يكن الطريق طويلا أو شاقا بين أوليس وآرجوس حتى تتأخر كل هذه المدة ، فهل حدث شىء ؟ .

وكأنما أثار طول الانتظار العاصفة من جديد فى قلب أجاممنون الأب ! فبدا له ألا يصدع لهذا الظلم الأولى ، ولو صار بعدها زنديقا ملحداً مطروداً من جنة الآلهة ، مغضوبا عليه من قلب الوطن .

وقد كان !

فإنه استدعى الرقيق العجوز ، الذى كان يحمل دائما بريد القائد العام إلى آرجوس ، ودفع اليه برقعة أمر فيها ألا تحضر إفجنيا ، وأمره أن يسرع بها إلى زوجه ، قبل أن تكون قد أخذت أهبتها للسفر .

. . .

وا أسفاه !

لقد لقى منلوس ، شقيق أجاممنون وزوج هيلين وملك أسبارطة ، والذى من أجله شبت هـذه الحرب ، الرقيق العجوز حامل الرسالة ، فاستوقفه وقرأها .

ودارت الدنيا بالملك المحزون ، واحلولكت الحياة فى عينيه وقصد

من فوره إلى أخيه فانتهره ، ونشبت بينهما معركة حامية ، من السباب والتعيير .. يدفع أجامنون عن ابنته وفلذة كبده، ويفتديها بنفسه وبالدنيا وما فيها ، ويعيره مناوس بالمروق من الدين، وعصيان الآلهة ، وشق عصا الطاعة على السماء .

وإنهما لكذلك ، إذا رسول يعلنهما أن كليتمنسترا ، زوجة أجامنون وابنتها إفجنيا ، تستأذن فى لقاء الملك ، ولقاء القائد القام .

يا لسخرية المقادير ؟ لقد ذهل أجامنون ، وانطلق يبكى ، حتى تفجر الحنان فى قلب مناوس المتحجر ، ورق لأخيه البائس الملتاع فقال له : « أخى : أنقذها يا أخى ، ، إنها ابنتى كما هى ابنتك ، فأنقذها كما يحلو لك »

ويبهت أجامنون لهول الموقف ، ولا يدرى ماذا فى وسعه أن يصنع، ثم يراه واقفا وحده يبكى ، كما يبكى الأطفال ، بعد إذ غادره أخوه .

ويلمح زوجه مقبلة ، فيصلح من شأنه ، ويتكلف البشاشة والتبسم ، وإنها لبشاشة باكية ، وإنه لتبسم من حزين .

— : أهلا أهلا إفجنيا ، مرحبا مرحبا كليتمنسترا ، سفر حميد ورحلة طيبة !

— « أين أخيل ، وماذا أعددتم للاحتفال بالعروسين ؟ »

— « أ . أ . أجل . ولكن لا بد أن تعودى انت الى آرجوس !

— « اعود الى آرجوس ، اعود وأترك ابنتى !

— « أجل . تعودين وتتركين إفجنيا !

— « والعرس وإعلان الخطبة على الأقل ؟ إلا أحضر شيئا من ذلك؟

هذا لا يكون ، ان أعود حتى أشهد كل شيء .

وتصر كليتمنسترا على بقائها حتى تحتفل بابنتها ، وحتى ترى الى هذا العسكر المجر والأساطيل المنتشرة فى البحر كالدبى[1]، تحيى ابنتها وتحيى اخيل ، وترقص طربا للعروسين .

ثم يحدث ما ليس فى حسبان احد .

يحضر أخيل ليقابل القائد العام ، وليبدى له سخطه وسخط جنوده (الميرميدون) من طول هذا الانتظار الذى يبدو أن ليس له آخر ، ويلح لديه فى وجوب الإقلاع الى طروادة مهما كلفهم الأمر .

وما تكاد كليتمنسترا تسمع كلام أخيل[2]، وتسمعه يذكر فرقة الميرميدون المشهورة فى جميع الآفاق ببسالتها وكفاحها الخارق بالحروب ، حتى تعرفه ، وتعرف أنه أخيل .. أخيل بعينه .. خطيب ابنتها .. وزوج إفجنيا الحبيب .

فتتقدم اليه هاشة محيية ، حتى اذا أنس اليها ، بدهته بالسؤال عن العرس :

— « عرس ؟ عرس ماذا ؟ »

— « عرس ماذا ؟ ألست اخيل ! ألست قد تقدمت الى اجاممنون أمير آرجوس ، تطلب أن تكون إفجنيا زوجة لك ؟ ألم تطلب يد إفجنيا ؟ تكلم . . . »

---

(١) الجراد

(٢) قد يلاحظ من له اطلاع على الأدب اليونانى المسرحى تصرفا فى السياق . ونحن نعتذر عن هذا . ونعد أن نقدم الدرامة كاملة فى كتابنا عن يوريبيد قريبا إن شاء الله .

ولكن أخيل يُستمر مكانه باهتا. لايدرى ماذا يقول . لأنه لا يعرف ما قالت السيدة شيئا . وتحملق الملكة فى أخيل طويلا ، ويتصبب العرق من جبين إفجنيا ، الفتاة البريئة ، لما ترى من حيرة أمها ، وارتباك هذا الجندى الباسق الجميل ، الذى كانت تحلم به زوجاً كريما لها ؟

وكأن هذا الموقف لم يرض أحداً .. حتى الرقيق العجوز ، حامل بريد القائد العام ، فقد انفجر هذا الخادم الأمين من شدة الحنق ، فباح بكل شىء . . . باح بكل ما سمع من تحاور منلوس الملك ، وأجاممنون القائد الأعلى ، بخصوص هذا الزواج المفترى : « مولاتى الملكة ! خذى حذرك لفتاتك المسكينة ، إنها ستذبح ، إن الكهنة الأشرار سيذبحونها اليوم ليسقوا أربابهم الظامئة من دمها الزكى البريء ، إن أخيل الكريم لم يتقدم ليطلب يد إفجنيا ، بل هو لا يعرف من أمر ذلك قليلا أو كثيراً . ها هو ذا أمامك فاسأليه . . .

وكأن صواعق السماء جميعاً نزلت على قلوب القوم .

لقد تحطمت كليتمنسترا .

وذاب الثلج فى عروق إفجنيا .

وزلزل أجاممنون .

أما أخيل : فقد شُده ، وحجبت ناظريه سحابة كثيفة من الذهول ، ثم ما هو إلا أن أفيق فاضطربت به الأرض ، وأحنقه أن يتخذ مطية لهذا العبث العابث ، والسخرية المهينة .

وصاح الشاب كأنه أسد مهيج ، وانقدح شرر الغضب من عينيه .

حتى خيف أن يبطش بأجاممنون وجنوده . . . كيما يثأر لاسمه ، ويصون كرامته . . .

وانتهزتها الملكة فرصة غالية لتنقذ ابنتها من القتل ، فانبطحت عند قدمى أخيل تقبلهما ، وتغسلهما بدموعها ، متوسلة اليه أن يدفع عن إفجنيا ، ويحول بينها وبين الموت .

— « فإن لم يكن بحسبك أن أمرغ خدىّ تحت قدميك لتكون حامى ابنتى ، فإنها هى أيضا تفعل مثلى يا أخيل ، انهما تمرغ خدّ جبينها عند موطىء هذه القدم الطاهرة لتكون حاميها وحارسها » .

— « فنى يا سيدتى ، وكلى أباها فى شأنها ، فإن لم يحل بينها وبين الموت ، فإنى سأقاتل من دونها حتى أنقذها من الهلاك ، ولو حاربت هيلاس جميعاً » .

. . .

وترجو الأم زوجها ، أن يحول بين ابنته وبين هذه القتلة الشنيعة ، ويتصدع قلب أجاممنون ، وتنهمر دموعه شفقة على الفتاة التعسة . فيعد ، ولكن . . . لات حين موعد .

لقد نمى الى العسكر أن أخيل أنذر أن سيقف دون الدم الذى أمرت به الآلهة أن يراق فغيظوا وأحنقوا ، وذهبوا اليه يتحسسون جلية الأمر ، فصارحهم به ، فانقضوا عليه يرشقونه بالسنتهم الحداد ، ويرجمونه بحجارة الشاطىء . . . فولى مدبراً .

وريعت الأم حين رأت الى الميرميدون — جنود أخيل الأمناء — يرجمون سيدهم فيمن يرجمه من الجنود الآخرين ، فهرولت على أن تحمل

السلاح وتقف الى جانبه ، لتذود هؤلاء الوحوش .

ولكن إفجنيا الصغيرة ، إفجنيا الفتاة ، إفجنيا العظيمة ، وقفت فى وجه أمها ، وصرخت قائلة :

« مكانك يا أماه ، لن يموت أخيل من أجل فتاة .

من أنا حتى يفتدينى هذا البطل العظيم ؟ وما حياتى التافهة فى حياته المذخورة الغالية ؟ ... إن رجلا يحارب من أجل هيلاس ، أجدر بالحياة من عشرة آلاف امرأة لا يستطعن الى حرب من سبيل ؟

أيها الجنود :

خلّوا سبيل سيدكم ، فلن تفتح طروادة إلا عليه ، كما أخبرت بذلك آلهتكم ، وما دام النصر معلقا بحياتى ، فكم يبهجنى أن أفتدى الوطن ، وأُرضىَ أربابى ، إن هيلاس كلها تنظر إلى اليوم ، فهل فخر أكثر من أن أكون عند حسن ظنها بى ، أنا لها ، أنا أفديك ياوطنى ، أماه ، لا تحزنى أنظرى الى ، ها أنذى أبتسم للموت ... للقتل ... للذبح ... هلموا يا سادة هلموا ... أين المذبح ... صلوا من أجلى ... تحيا هيلاس ... » .

وفى هذه اللحظة فقط ، تكبر إفجنيا فى عينى أخيل . فيتمنى لو أجلت فى حياتها لتكون زوجة كريمة له ، . . ويعرض استعداده للمنافحة عنها بسيفه ، ولكنها تنهاه ، وتوصيه أن يعيش لوطنه ، ليذب عن بيضته ، ويعلى كلمته ...

وتنسكب دموع أخيل ...

فيا للفتاة ...

ويا للأم ...

ويا لأخيل البطل .

. . .

وتضع إفجنيا رأسها على رخامة المذبح ، ويرهف الكاهن مُدْيته ...

ولكن ؟ ... لقد شده القوم ... ونظر بعضهم الى بعض ...

إنهم ينظرون فلا يرون إفجنيا .

بل يرون مكانها ظبيا ... رشأ غريراً .

إذن هى المعجزة .

لقد تفطر قلب ديانا الكريمة من أجل الفتاة ، فهبطت من ذرى الأولمب لتنقذها ... فرفعتها الى السماء ... ثم أرسلتها لتكون راهبة معبدها العظيم فى مملكة توريس .

وارتفعت أغانى الغوانى ...

يسبحن للآلهة العطشى !

الفدائى الأول

رَوِيت الالهة إذن وشفت ما فى أنفسها من ظمأ الى « دماء الضحايا » وان لم تغفر لديانا البارة ، ديانا ربة القمر ، انقاذها للفتاة التعسة افجنيا ، وهى قاب قوسين من خناجر الكهنة والرَّبِّيين القساة .

لقد أبت الآلهة إلا أن تشرب من ماء الحياة القرمزى ، المتدفق فى عروق عبادها المخلصين من أبناء هيلاس ، فلما ذهب كالخناس ، عراف الحملة ، يستوحى أربابه فى معبد دلفى هل لها مطلب آخر فى ضحية أو قربان بعد تقدمة إفجنيا ، ارتفع الصوت الخافت المنبعث من صميم مقصورة الإله الأكبر يقول : « لا . . ولكم أن تقلعوا اليوم ... فإذا كنتم عند شطئان طروادة ، فإن لنا دم القادس الأول الذى تطأ قدماه رمال الشاطىء ... سيقتل ، وسيكون لنا عوضا من إفجنيا » .

. . .

ودعا اليه أبناءه [1] إيولوس رب الرياح الست فأمرهم أن يكونوا جميعا فى خدمة الأسطول الهيلانى ، حتى يصل الى طروادة ... « وأنا أعرفك يا بوريس حين تعصف وتزف ، وتصيح ويلا على الجوارى أى ويل ، وأنت يا كورس ، إياك وهذه البوارج التى تحصد بها سفائن القوم ،

---

(١) Æoulus رب الرياح فى الميثولوجيا اليونانية ، وقد تزوج من أورورا فأنجبت له أبناءه الستة : ١ — بوريس رب الريح الشمالية ٢ — كوروس رب الريح الشمالية الغربية ٣ — أكويلو رب الريح الغربية ٤ — نيتوس رب الجنوبية الغربية ٥ — أيوروس رب الريح الشرقية ٦ — ثم زفيروس رب النسيم الجنوبى (عن ه . ا . جربر ص ١٨٤)

وأنت يا أكويلو ، وأنت أيضا يا نيتوس ، إن ريحك مُجفل، وهبَّتك هوجاء ، ولفحاتك حرور ، وأنفاسك سموم ، فإن لم تترفق بالقوم ، وتجرِ بين أيديهم رُخاء ، فلأسجننك فى الكهف الأسود حتى حين ، أما أنت يا ولدى إيوروس ، فاحذر أن تصيب الناس سوافيك ، أو أن يسوء فألهم فيك ، بل كن لهم خادما أمينا ، تدفع ركبهم فى رفق ، وتملأ شراعهم فى أناة .. ويسرنى أن تسمعوا لنصيحة زفيروس ، فهو أليمكم عريكة ، وأكثركم صفاء ... ألقوا اليه بزمامكم ، ولا تختلفوا فى أمر يلقيه اليكم ، أصلح لكم زيوس أحوالكم ... » .

وهبت الريح فخفقت أفئدة العسكر ، وابتهجت أنفس القادة ، واجتمع الميرميدون حول أخيل يترضونه ويعتذرون عن رجمهم إياه يوم القربان المشئوم ، ثم انتشرت الشراع ورُفعت المراسى ، وهمت الفلك فاحتواها البحر اللُّجِّى ، وما عتمت أن صارت من الماء والسماء فى خضرتين ، ومن دروع الجند وزبد الموج فى لِبدتين ، ومن قلوب الشعب الهاتف فوق الشاطىء الشاحب فى بحر من الآمال .

واضطرب البحر بعرائس الماء وأبكاره ، أسرعن من كل فج يحيين أبطال هيلاس ، يخفين الوشائح السود التى ادخرنها لأيام الفصل ، إن أيام الفصل كانت ميقاتا أىَّ ميقات .

وتوارت الشمس بالحجاب ، وبزغ القمر يفضض حواشى الماء ، وحلقت النجوم ترى إلى هذا الأسطول اللجب ، يمخر عبابا من خلفه عباب ، ويطوى لجة من ورائها لجة ، والملاحون دائبون ما يفتون ، مرسلين فى اللانهاية ألحانهم ، مرددة الرياح أغانيهم وأنغامهم ، والقادة متكبكبون

حول القائد الأعلى ، حول أجاممنون ، يدرسون تلك الخطة ، وينقدون هذه الفكرة ، ويدبرون من أمرهم ما يصل بهم إلى نصر عزيز .

وتنفس صبح اليوم الثالث .

وبدت طروادة العاتية فى الأفق الشرقى ، متشحة بالشفق النحاسى ، الذى صبغ سماءها بالبنفسج الرائع ، تتفجر منه أنهار من الدم .

طروادة !

ذات الأبراج المشيدة والقباب المنيفة .

إليوم (١) .

بَنِيَّةُ (٢) نبتيون إله البحار يوم نفاه زيوس من جنة الأولمب ، ونفى معه أپوللو ، فساعده فى بنائها بموسيقاه .

ياما أروعه منظراً أن ترى إلى أپوللو العظيم يعزف على قيثارته المُرِنة . فتثب الحجارة وتتراقص ، وتقفز إلى مكانها من أسوارك يا إليوم .

طروادة يا ذات الحول !

أين تنام هيلين الساعة ساهمةً حالمة ، وأيان تتقلب ترب ڤينوس التى فرّت مع پاريس .

ويحك يا منلوس .

إنه ينظر بعينين مشدوهتين إلى أسوار طروادة ، يتمنى لو تندك على الخائنين الآثمين .

---

(١) Ilium هي طروادة أيضا . ومن هذا الاسم اشتق هوميروس كلمة (إلياذة) لملحمته الخالدة Iliad وعلى ذكر الالياذة ننبه القارىء إلى أننا — حتى هذا الفصل — لم نصل إليها ؛ وسنشير إلى ذلك فى حينه .

(٢) إشارة إلى أن نبتيون هو الذى بناها .

« ... أهو الآن هناك ، هذا اللص الغادر ، وقاطع الطريق السفاح ! هو ؟ . . وهى ؟ . ويلاه .

منلوس . لابد مما ليس منه بد ...

لقد ترامت أخبار الحملة الهيلانية إلى طروادة فهب أهلها البواسل يسعون ويستعدون بجيرانهم فنصروهم ولبوا نداءهم ، وهرعوا إليهم من كل فج عميق . وهاهى ذى مشارف الجبال وقننها وسفوحها وتتوء الشاطىء وصخوره ومغاوره ، وهاهى ذى ليديا المتيقظة وإيوليا المتحفزة وإيونيا الرابضة (١) . هاهى ذى تلك البلاد جميعاً تضج بالجند ، وتعج بالسلاح ، وتقعقع بآلة الحرب ، وتدق طبول الوغى ، وتذكى نيران الحراسة فى قمم الجبال ، فلا تغفل عين ولا تهمد همة ، ولا يتسرب إلى النفوس كلال .

واقترب الأسطول من الشاطىء .

ولكن أحداً لم يجسر أن يجازف بنفسه ، لأن القتيل الأول ، هو أول من يهبط إلى الأرض ، كما أخبرت النبوءة فى معبد دانى .

ومرت أيام : والهيلانيون فى سفائنهم ينظرون إلى أبراج طروادة وفجاجها ، ويتحرقون شوقا إلى لقاء جنودها ، ومنلوس يحرق الأرض هو الآخر ، ولكن أحداً لا يرضى أن يكون الفدائى الأول ... « لأنى إذا نزلت إلى هذا البر المخوف فسيكون الموت محتوما على ، دون أن أستطيع إلى قتل أحد من هذا الجند من سبيل . وأنا لم أحضر إلى هنا لأكون قربانا للآلهة ، ولكن لأزاحم وأقاحم ، وأنافح وأصول ، فإن قتلت بعدها فبعشرات وعشرات ، لا كما يقتل كلب البرية غير مفدى ... »

---

(١) هذه أقاليم قديمة فى غرب الأناضول مما يجاور طروادة برا وبحراً .

بروتسيلوس البطل

بيد أن هيلانيساً مقاحما ، هيلانيا واحدا ، من خيرة القادة ومذاويدهم ، عز عليه ألا يكون فى هذا الجيش العرمرم ، على ماجمع من صناديد اليونان ومغاويرهم ، فدائىٌ واحد يتلقى الطعنة الأولى النجلاء ، بثغر باسم وقلب لا يجزع ، ونفس مؤمنة مطمئنة لا تهلع فى موقف الموت ، ولا تتفرق إذا حم القضاء .

كبر على بروتسيلوس أن يُرمى قومه بجبن ليست لهم يد فيه ، وكبر عليه أن يقف ألف ألف لو شاءوا لدكوا الجبال وزلزلوا السماوات ، من دون هذا البلد لا يتقدمون ولا يتأخرون ، كأنما حربهم هزل ، ونفيرهم مُكاء ، وعزمهم تلفيق . أو كأنما ملأوا الدنيا وعيدا لتمتلىء الدنيا عليهم سخرية وضحكا .

كبر على بروتسيلوس ألا يكون هو شهيد هذا الموقف ، فارتخص نفسه وهانت عليه الحياة ، وتفهت فى عينيه لذائذ هذا العيش الذليل ، ثم استخار أربابه ، واستعاذ بسيد الأولمب ، وما هو إلا أن لمح الشمس يذرُّ قرنها فى خدر الشرق ، فوق جبين طروادة ، حتى قذف بنفسه على الشاطىء ، وأرسل فى الخافقين صيحة الحرب كأنها رعد يميد به جانب الجبل ، وتهتز من قصفه أسوار المدينة ، ثم جال جولة هنا وجولة هناك ، وإذا بالسهام ترشقه من كل مكان ، وإذا هو ملقى على أديم الثرى مضرجا بدمه ، مُعفِّر الجبين بأول نقع هذه الحرب .

• • •

وذاع خبر مقتله حتى انتهى إلى تساليا ، حيث زوجته المفجّعة ، فحزنت عليه حزنا أمض قلبها ، وشف جسمها ، وأقض مضجعها ، وصيّر الحياة فى عينيها حَلَكًا شديدا وظلاما قاتما ... « پرتسيلوس : أهكذا يا حبيبى ذكرت كل شىء فى ميدان المجد والشرف ، ونسيت فيه كل شىء ، أهكذا يا حبيبى ذكرت التضحية والإقدام ، حيث تخاذل مواطنوك عن مواطن التضحية والإقدام ، فغامرت بنفسك فى هذا المعترك المضطرب ، ونسيت ان وراءك قلبا ينعقد رجاؤه بك ، ونفسا ترف من خلف البحار فوقك ، وروحا لا سكن لها إلا صدرك الحنون ، وعينين لا تعرفان جمال الحياة إلا فى وجهك المشرق ، وأذنين ما التذتا إلا الموسيقى المنسكبة من فمك ؟ پرتسيلوس : ما قيمة الحياة بعدك يا حبيبى ؟ من لزوجتك التاعسة يوم يفخر النساء بأزواجهن . من المحزونة الكاسفة لاؤوداميا ؟ ما أشق الحياة علىّ بعدك يا رجلى ومن كنت كل شىء لى .

لا سَخَطَ عليكم يا أربابى .

بل أنا أصلى لكم ، أصلى لكم بدموعى وقلبى ، أصلى لكم بأحشائى التى تتمزق ، ورأسى الذى يحترق ، أصلى لكم بلسانى الذى يجف من شَرَقٍ فى حلقى ، وكان حديث پرتسيلوس يرطّبه ويندّيه ، أصلى لكم يا أرباب الأولمب عسى ان تلين قلوبكم لى ، فأرى حبيبى وأموت .

رَجيةٌ يسيرة على مقدرتكم يا أرباب الأولمب ، إما أن أقضى فأستريح من هذا الكمد المضنى . والبثّ المؤلم ، وإما أن تأذنوا فيعود پرتسيلوس فأراه وأموت .

أتمنى عليكم أن يعود فأكلمه ... املأ أذنى وقلبى من موسيقاه !

أناديه باسمه ويناديني باسمي ! يعانقني وأعانقه ! يرى إلى عبراتي وأنظر إلى عبراته ! يبتسم لي في رضاه وفرحه ، وأبتسم له في انكساري ولوعتي !

إئذنوا يا أرباب الأولمب ، فأنا ما أفتأ أصلي لكم ، وأتوسل اليكم بدمه الزكي ، وروحه الأبي ، وقلبه الكبير !

ارحموا ذلي ، ورقوا لهواني ، وارثوا لحالي ! ... »

* * *

وصيّرت بنواحها إشراق الصباح ظُلمةً من الحزن لا أول لها ولا آخر ، وأرسلت في الليل البهيم أنّاتها المؤلمة ، وزفراتها الحارة ؛ ووصلت بكاءها الطويل بصلاتها الخاشعة ، حتى ارتجفت قواعد الأولمب ، واهتزت عروشه الذهبية ، وانعقدت بينه وبين لاؤوداميا قنطرة من الحزن ، عبرت عليها بركات الآلهة إلى فؤادها المكلوم ، فمسحت عبراتها ، وهدّأت من روعها ، وبشرتها بعودة پرتسيلوس !

وفي هدأة ليلة مقمرة ، سكن هواؤها ، وصدح بلبلها ، وأنشد البدر لحنه الصافي على آراده الفضية ليضمرها بهاءً وروعة ، خرجت لاؤوداميا المحزونة من قصرها المنيف ، لتلقى روح پرتسيلوس يهديه هرمز الكريم بين يديه ، حتى يكون تلقاء زوجه . فترتمي بين ذراعيه !

ويغرقان في طوفان من القبل !

ويغرقان في لجة من العبرات !

ويقص عليها پرتسيلوس أنباء مقتله . . فتبكي ... وتبكي ... وتعاتبه

لاؤوداميا ... وتهذله ... ولكن الساعات الثلاث التى سمحت بها الآلهة للقائهما تمر كالمسح ... فينبههما هرمز إلى انقضائها ... وما تكاد تسمع نذير هرمز ، وتعرف أن زوجها عائد أدراجه إلى هيدز ، فيظل فيها إلى الأبد ، حتى تصعق مكانها ، وتخر مغشياً عليها ... وتموت !

فوا رحمتاً للزوجين السعيدين اللذين لن يفترقا بعد اليوم .

وما أجمل هذين الطيفين الحبيبين يعودان معاً إلى دار الخلود !

من السماء

قضى بروتسيلوس نحبه ، وعادت روحه الكريمة إلى هيدز مصطحبةً روح زوجته البارة ، وغرست عرائس الفنون فسائل الدردار فوق قبر الراحلين فنمت وترعرعت ، ونعم بفيئها الوارف ماء الهيلسبنت(١) ورتعت فى ظلها أترابه .

ولكن ... !

لقد كانت روح بروتسيلوس الجذوة التى أجّجت نيران الحرب فجعلتها ضراماً ! فإنه ما كاد يُرمى بالسهام فيصمى ، فيسيل دمه أنهاراً ، حتى تدفقت جيوش الهيلانيين على الشاطىء الآسيوى غير مبالين بالموت الأحمر الذى كانت تمطرهم به سهام الطرواديين ، والمنية السوداء التى كانت تقطر من سيوفهم ، فتحصد صفوف الفازين حصداً . لا . لم يبال الهيلانيون بهذا الهول الأكبر ، بل انقضوا على الشاطىء شكّاكًا فى سلاحهم ، مُقتحمين فى دروعهم ، مرهفين سيوفهم ، تفيض عليهم عدة الحرب كأنهم جِنّة ترقص فى زوبعة ، أو ظلال من الذعر تجول فى معمعة .

وتبعهم قادتهم العظام فانطلقوا يُبَوِّئونهم مواقف للقتال ، ويلقون عليهم من كلمات الحماسة وخطب الاستبسال ، ما أضرموا به جوانحهم

---

(١) هو بوغاز الدردنيل ، وبالقرب من مأخذه الغربى ، على شاطىء آسيا توجد طروادة .

شوقاً إلى خوض الكريهة ، وحنينا إلى اقتحام الوغى ، وصبوة إلى تقبيل الرقاق البيض .

ودُقت الطبول فكانت إيذاناً بهجوم الهيلانيين .

فانظر الآن إلى البحر يلتطم بالبحر ، والموج يساور الموج ، والموت يصاول الموت ، والحياة الحلوة تأخذ بتلابيب الحياة الحلوة ، وصيحات الهيلانيين تردها صيحات الطرواديين ، وليل الآخرة يغطش نهار الدنيا ، وظلام القبور يكشر لهذه الدور ، والفزع يمشي في صفوف هؤلاء وهؤلاء ، واليتم يجرح هذه الكبد ، ويقرح ذلك القلب ، والحزن يفيض على هذا السهل ، ويجوب ذاك الوادي ، ويرف على قُلَل تلك الجبال ، وأنين الجرحى يطن في فضاء الساحة الحمراء ، فيملأ الآذان بالهلع ، والنفوس بالجزع ، والدماء تتفجر هنا ، وتتحدر هناك ، والرؤوس منتثرة فوق الأديم المضرّج ، زائغة أبصارها ، مفغورة أفواهها ، معفرة بالتراب أنوفها التي عزت على العالمين ...

ثم انظر إلى أخيل يرعـــد بين الصفوف ويقصف ، ومن ورائه الميرميدون يوزعون المنايا ويهدهدون الحتوف ويقرّبون الآجال !

وأوليسيز المغوار ، وتلك الجاجة المعقدة فوق رأسه من غبار الحرب ، وهذه الصَّعدة السمراء بيمينه تنفث الموت في صدور الأعداء !

وأجاكس وجنوده ! الكُرّار الفُرّار ، المذاويد الأحرار !

وبنليوس ! قائد العساكر البَوْوطية ، القروم البواسل ، والليوث الكواسر !

وديوميد ! نبعةُ أرومته ، وسيد عشيرته ، ووجه قومه ، وفارس كتيبته !

وأچينور ! فتى أركاديا ، وملاك أمرها ، وشمس ضحاها !

وميجيز ! النّجد الباسل ، والبطل الجلاحل !

وإيدومينيز ! ملك كريت وقائد جنودها ؛ أباة الذل وكُماة الوغى ، ومرادى الحروب !

وتليپوليموس بن هرقل بطل المجازفات ، المقدام أخو الغمرات(١) ! ثم انظر إلى الصيد الصناديد من أبناء طروادة ، وجيرانهم الكُماةِ ، الأُباة الحماةِ !

هاك هكتور العظيم بن پريام الملك ، عضد طروادة وسندها وليث عرينها ؛ الثبت الصابر المصابر ؛ رابط الجأش شديد البطش ، قوى الشكيمة الفارس المقدام !

هاك هكتور الأسد ، يرغى فى أسود الشرى ويزبد ، ويوقل فى بطاح طروادة وينجد !

وهاك إينياس الهائل ، يقود (الدّردان(٢)) الأبطال ، إلى كرائم الفعال فى ساحة القتال !

وهاك پنداروس ! تليد أپوللو وربيبه ، يقود فرسانه الفحول ، ورجاله البهاليل !

وها هما ولدا ميروپس الكبير ملك أپيسوس ، يصولان فى الحومة ويجولان !

وهاك آسيوس بن ملك أبيدوس ، يتقدم رعيل فرسانه ، ويداعب أعداءه بمَرّانه !

---

(١) ذكر هوميروس رؤساء العشائر اليونانية التى اشتركت فى هذه الحرب في الكتاب الثاني من الالياذة ونحن نكتفى بذكر من أوردنا .

(٢) نسبة إلى داردانوس أحد ملوك طروادة .

وها هم أشبال تراقيه ، يقودهم يوفيموس المقدام ، ويقتحم بهم أيما اقتحام !

وها هم نسور أميدون البواشق ، أقبلوا من هناك . . . من جنات سيحون وجيحون ليخوضوا الجحيم ، فى ذلك اليوم العظيم ، وليذودوا عن طروادة ، حليفتهم ، ويدفعوا . . . !

وها هم أمراء ميديا ، أقبلوا فى عدد وعديد ، وكل جبار مريد !

أنظر إذن إلى الجيشين فى مد وجزر ، تبسم لأحدهما الآمال ، وتعيش للآخر المنايا ، ثم تدور الدائرة ، فينتصر المنهزم ، ويتأخر المتقدم ، وهكذا دواليك .

وتغيب الشمس وتشرق . . .

ويبزغ القمر . . . ويغرب

وتكر الأيام ، وتمر السنون !

وكلما لاحت للطرواديين غفلة من أعدائهم خرجوا إليهم وهم ألوف فنالوا منهم ، حتى إذا كرّوا عليهم عادوا إلى معاقلهم فلاذوا بحصونها ، واعتصموا بأبراجها ، وتلبثوا هناك حتى تتاح لهم فرصة أخرى .

* * *

أعوام تسعة(١) !

مليئة بالتعب ، مشحونة بالنصب ، مفعمة بالخطوب والأهوال .

وكان الهيلانيون يرسلون البعوث والسرايا ، فتجوب الريف ، وتؤوب بالغنائم والفيء ، والأسلاب والسبي ، فيقتسمها القادة ، ويفيضون منها على الجند .

---

(١) من هنا تبدأ حوادث الإلياذة

وهاجموا مرة إحدى القرى ، فكان من جملة السبى فتاتان ذواتا رقة وفتون ، أما إحداهما فكانت من نصيب أجا ممنون ، واسمها خريسيز ، وهى ابنة كاهن القرية الورع ، حبيب أپوللو وخليله وصفيه ، القديس خريسز . وكانت فتاة لعوباً حلوة الدل رشيقة الروح ، وكان أبوها يحبها حباً جماً لا تعدل بعضه كل مباهج الحياة !

أما الأخرى فقد خلصت لأخيل وأخلصت له الود ، وأصفاها هو المحبة ، فكان أحدهما للآخر فى هذه المحنة القاسية الصدر الحنون ، والقلب النجىّ ، والملاذ الأمين . اسمها بريسيز ، وأبوها شريف من أشراف هذه الناحية التى نكبت بتلك الحرب الضروس ، فَصَلِيَتْ لظاها ، وطحنتها رحاها .

وعلم كاهن القرية بما كان من أمر ابنته ، فازدحمت على قلبه الهموم ، وأحس فى أعماقه بثقل البلية ، وشعر كأنه جُرِّد من كل شىء حتى من نفسه .

وبدا له أن يذهب إلى قائد الجند الهيلانى فيفتدى خريسيز ، ولو نزل لأجا ممنون عن كل ما يملك . وحذره صحبه من المخاطرة بنفسه فى هذا الطريق الشائك ، ولكنه لم يعرهم التفاتة واحدة ، بل دهن نفسه بالطيب الكهنوتى المقدس ، ولبس مُسُوحه ، وعقد زنّاره ، وتناول مسبحة أپوللو العظيم ، ثم توكأ على عصاه العتيدة ، وذهب يتهالك على نفسه ، ويتعثر فى خطاه ، حتى كان تلقاء المعسكر الضخم .

وسأل عن خيمة القائد العام ، فقيل له إنها هى الفسطاط الأكبر

الذى تبدو قبته هناك . . . هناك عند شاطىء الهلسپنت ، بين الجيش وبين الأسطول .

وانطلق الكاهن الجليل والدمع ينحدر من قلبه قطرات من الدم ... عن طريق عينيه ، فيعلق بلحيته البيضاء ، ويصبغها بأرجوانه ، كأنه آية السماء الباكية ، نذيراً لهذه القلوب القاسية ، والغزاة الأقوياء !

وبلغ الفسطاط بعد لأى ...

واستأذن على القائد العام فلم يؤذن له ... فاستأذن ثانيةً فشهد بالضرب وبالعقوبة ! ... ولكنه أب مفؤود ، وحزين منكود ، فتنظّر قليلا واستأذن فى أدب ولين واستكانة ، فأذن له ...

ووقف أمام القائد الأكبر واهى الجسم موهونَ القلب ، محزوناً متصدعاً ، وحاول الكلام فكانت العبرات تخنقه ، والأسى يعقد لسانه ، والنار المندلعة فى رأسه تنسيه كل شىء .

وثار به أجانون !

لأنه على ما يبدو فوّت عليه لذةً طارئة ، وسكرة مواتية ، بمجيئه فى تلك اللحظة الهانئة القريرة ، وإلحافه الشديد بضرورة لقاء القائد ...

واحتشد القادة ورؤساء الجند حول فسطاط القائد ، وسمعوا إلى الكاهن الكبير يقول :

« مولاى !

سعيت إليك عائذاً بك ، داعيا أبوللو العظيم لك ، أن يفىء عليكم من النصر والفتح المبين ، وأن يهبكم من الرعاية والمِنن ما تشتهى أنفسكم ،

وتقر به أعينكم ، وما ترفعون به عن ظلم الضعفاء ، والجور على الملهوفين ؛ فقد يغنى القليل الذى ترضى عنه الآلهة ، عن الكثير الذى يثير سخطها ، ويستنزل غضبها ...

إبنتى يا مولاى !

خريسيز العزيزة ! ردها علىّ يباركْ لك أپوللو ، ويَسّرْ لك سبيلك ، ببركة دعوات قديسه الحزين الواقف امامك ، المبتهل إليك ، المستعد لأن يفتديها بكل ما يملك ، وبكل ما يقدر عليه مما يرضى الملك ! »

لكن الملك أشاح بوجهه ، وكبر عليه أن يجرؤ هذا الكاهن على التفوه بهذه الطلبة العزيزة أمامه ! خريسيز ! أينزل أجاممنون عن خريسيز وقد احتلت من قلبه مكانة زوجه كليتمنسترا ؟ واستحوذت على لبه حتى نسى الحرب ، وعزف عن الطعن والضرب ، واستقر معها فى فسطاطه آخذيْن فى لهوٍ وحب وغناء وشرب !

أينزل أجاممنون عن خريسيز الجميلة الفاتنة ، ولو استحالت عينا الكاهن بئرين تنزفان الدمع ، وتفيضان بالدم ؟

كلا ! ان ينزل أجاممنون عن خريسيز !

« أصْغ إلىّ يا رجل ! لست أبالى أن تكون قديس أپوللو ، وحامل صولجانه ، وحامى مسبحته ، وعاقد زنّاره !

ستعود خريسيز معى ... إلى آرجوس ... وسيذوى جمالها هناك ، وتذبل محاسنها فى ثرى الوطن ، وسأكل إليها منزلى تخدم فيه ، وتصير أم بنين ، وسيكون بها قصرى جنة خلد ونعيماً لا يفنى ... اذهب ، فاسفح دموعك فى صومعة أپوللو ، وصعّد زفراتك فى هيكله ، وبين يدى

تمثاله ... اذهب وانج بنفسك من عذاب أليم ...

خريسين تعود معك ! ؟

إنك تثير النقمة فى نفسى ، فانج بنفسك ... انج ... »

وتصدّع صدر الرجل ، وكاد قلبه يقف ، فتقف أنفاسه !

وانثنى والدنيا المظلمة تحجب ناظريه ، وكلمات القائد الظالم تتردّد فى مسمعيه ، فما كاد يبلغ قريته حتى خلا إلى أبوللو ، وجلس يبكى ... ويصلى !

« أبوللو !

يا إلهى ! أسمعت ؟ لقد استهزأ بك أجا ممنون ، وجفّنى فى بنتى ، وفلذة كبدى ، وقطعة قلبى ، وحياة روحى !

أبوللو !

هل سمعت يارب النور ! ؟ أرأيت إلى ذلك العاتى المتجبر كيف ثار بقديسك الضعيف المسن الذى أحنت ظهره السنون فى عبادتك ، والصلاة لك ، والتسبيح من أجلك ، والهتاف باسمك . ! ؟

ألا فلتنتقم لعبدك يا أبوللو العظيم ، وليحل على الطاغية غضبك ، ولتُنزل بهم عذاب واصب ليس له من قدرتك من دافع ...

أبوللو ... !

استجب يارب الهيكل الخالد ، وحامى المعبد الأمين ! ... »

وسقط الكاهن أمام المذبح ينتحب ، والشموع الموقدة تذرى دموعها معه ! .

فثار فى عليائه أبوللو ... !

* * *

إنتفض الإلـه العظيم إنتفاضةً رجف من هولها الأولب ، ورف فى السماء كأنه سحابة مظلمة فى ليـل بهيم ؛ وفوق كاهله الكبير قوسه الفضية المرنان ، وعلى ظهره كنانته الواسعة الشاسعه ، يُسمع لسهامها صليل أى صليل ... وأشرف من سمائه المضطربة على سفائن الأسطول المطمئن ، وما هو إلا أن تميزها حتى عبس وبسر ، ووتّر قوسه فانهمرت منها سهام كالمطر ، صبّها على السفن حاملات الخيل والبغال أولاً ، ثم لوى فأصلى سفائن الجنود وابلا منها بعد ذلك ... فلا تسمع إلا أنيناً وبكاءً ، ولا ترى إلا صرعى يضجون ويعـولون ، ولا تحس إلا زفير جهنم وشهيقها يأخذ القوم من هنا وهناك فيقعون إلى أذقانهم سجداً وبُكيـا ..

أمطر يا طاعون ...

ولا حنانيك يا أپوللو ...

* * *

واستمر هذا البلاء تسعة أيام طوال كأنها دهر بأكمله ...

وفى اليوم العاشر أوحى إلى أخيل أن يدعو مجلس الجيش ليرى رأيه فى هذه النكبة التى دهتهم بها ميازيب السماء . فلما التأم شمل القادة ، اجتمع الرأى على أن يذهب كالخاس فيستوحى أربابه لتكشف هذه الغمة ، أو ليرى بماذا ترضى من التضحيات والقرابين !

وعاد كالخاس ، كعادته ، كلما حمل أخبار الشؤم من لدن أربابه ، كاسف الوجه كالح الجبين ، يحبس فى صدره شجون الأرض ، وهموم السماء ! .

« خريسيز يا سادة ! »

« خريسين تعود إلى أبيها القديس ، وإلا فتلك مصارعكم جميعاً فوق هذا الشاطىء المظلم ، المضرج بدمائكم ودماء أعدائكم ... ! »

« هكذا تتفق كلمة الآلهة من أجل أپوللو . . . فويل لنا جميعاً إن لم نهدّىء ثورة صاحب القوس ، ورب النور ، وسيد الشمس . ! »

« اسجدوا لأپوللو ، واخشعوا ... »

ونهض القوم من صلاتهم مشدوهين لا يحيرون ، ينظر بعضهم إلى بعض ، ولا تنفرج شفة بكلمة ، ولا يتحرك لسان بقول !

ولكن أخيل شعر فى صميمه أن القدر يسخّره هذه المرة أيضاً لتفريج الأزمة ، وكشف البلاء ، فنهض غير هياب ، وأرسل قولة الحق فى غير وجل ، وصرّح بضرورة إرسال خريسين إلى والدها القديس معززة مكرمة ، ثم تقديم القرابين من لحم المجول وشحم الأوعال إلى معبد أپوللو ، وإطعام الحاضر من شوائها والباد .

وزلزلت الأرض زلزالها ، وهوت السماء فوق رأس أجا ممنون !

ونشبت ملحمة هائلة بينه وبين أخيل ، أوشك البطل أن يغمد سيفه من جرائها فى صدر القائد العام ، الذى طلب بكل صفاقة أن ينزل له أخيل عن غادته بريسيز : « إذا كان لا بد من نزولى عن خريسين ، ليسلم الجند من هذا الوباء ! وليسكن غضب أپوللو ، وترضى السماء ! »

وتأججت نيران العداوة بينهما ، ذاك يحرص على فتاته الهيفاء ، وذاك يحض على إنقاذ الجنود بتضحية الذات وإنكارها فى سبيل ما هو أسمى وأرفع ، ولكن أجاممنون عمى عن هذا المثل العالى ، فتشبث وأصر إلا ما نزل له أخيل عن بريسيز ، لينزل هو عن خريسين . !

وهنا تتنزل الآلهة لتحكم بين الخصمين !

تبدو ميزرفا ، ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، رسولاً من لدن حيرا ، سيدة ربات الأولمب ، للبطل أخيل ، بحيث لا يراها غيره ، فتعظه أن يضحى بفتاته ، ما دام هذا الفظ يأبى إلا أن يكون ذلك ..

ويصدع أخيل بأمر السماء ...

ويذهب أوليسيز بابنة القديس إلى أبيها حيث يلقاه فى معبده يبكى ... ويصلى ! فيبشره بها ، ويسأله الصفح والمغفرة فيهش الكاهن ويبش ، وتنهمر من عينيه دموع الفرح .

وتقدم القرابين باسم الجيش الهيلانى إلى معبد أپوللو .

فينكشف البلاء . . وترضى السماء ... ويُدفن الهيلانيون موتاهم ! .

أما أخيل ...

فينقطع عن المعركة ، وينعزل فى معسكره ، لا يشترك فى الحرب ، ولا يشترك فيها جنوده الميرميدون !

وتحس أمه بما يلم به من الحزن ، وتعده خيراً على يد الإله الأكبر ، زيوس ، سيد أرباب الأولمب !

قسم

انتظرت ذيتيس — أم أخيل ، وحبيبة زيوس من قبل — حتى عاد الإله الأكبر من حفل أولمبى دُعِىَ اليه حينما شبت السخيمة بين أجامنون وبين ابنها ، فأسرعت اليه لتكلمه فى الإهانة التى لحقت أخيل العظيم ، وأزرت بكبرياء بطل هيلاس .

عجلت ذيتيس إلى زيوس . . .

وكانت ذكريات الإله الأكبر لا تزال تتدفق فى قلبه ؛ وكان طيف لقائهما على شاطىء البحر يملأ عينيه وخياله ، ويطنّ بالأمانى المفقودة فى أذنيه ؛ وكان هذا الجمال الفتىّ لا يزال له رَجع فى كل جوارحه . . . وجوانحه . .

وقفت أمام زيوس ! . . .

وكأن حلماً لذيذاً طوّف بعينيه ، فرأى إلى قصة حبه تُمثّل بكل ماضيها الحافل أمامه ؛ ورأى إلى هذه الأوقات الحلوة التى التذ فيها فتنة ذيتيس تثب فجأة من الأيام الخوالى فتغمره بسحرها وأسرها ؛ ورأى إلى ذراعيه ترتجفان أمامها فى ذل وضراعة ، وطرفه الساهم الباكى يجول فى طرفها الناعس الكحيل ، ورأى إلى هذا المرمر الطروب المنصبّ فى تمثالها يكاد يكلمه . . فيروى له من أخبار الماضى ، وسكرات الوجد ما يفيض له دمعه ، ويخفق قلبه ، وترتعد من ذِكره فرائصه . .

« ذيتيس ! ؟ . . »

— « . . ؟ . . »

— « مالك ؟ . . تبكين ! . . »

— « . . ! . . »

— « لا . . لا . . إلىّ يا حبيبتى ! »

وكانت كلما ألحت فى الصمت والبكاء ، ألح هو فى التلطف والرجاء ، وكانت ذيتيس تدرك ماأثارته فى قلبه من وجده القديم ، فدلّت وتاهت ، حتى أيقنت أنه منقاد لما تطلب ، ولو كلفته هدم الأولمب ، وثل عروش السماء !.

— « أ . . أخيل . . ! »

— « أخيل ؟ . . ماله ؟ . . »

— « ما كفانى أن يذهب ليلقى حتفه تحت أسوار طروادة ، حتى يهينه أجامنون ! »

— « يهينه أجامنون ؟ يهينه كيف ؟ . . »

— « أغضب قِدّيس أپوللو وكاهنه الأكبر ، ولم يقبل أن يرد عليه ابنته خريسيز ! فغضب الراهب الشيخ ودعا ربه ، فسخّر الطاعون على الهيلانيين ، حتى كاد يبيدهم ، فلما طلب اليه أن يرد ابنة قديس على أبيها الشيخ ، أبى ، وأخذته العزة بالإثم ، فلما ألح عليه أخيل ، ولدى البائس ، إنقاذاً للجيش ، وإبقاءً على أبناء هيلاس ، رضى أن ينزل عن الفتاة ، إذا نزل له أخيل عن بريسيز . .

« وآثر أخيل حياة المحاربين ونجاتهم ، فنزل عن الفتاة للقائد الغاشم . . »

— « . . ثم . . »

— « ثم هو الآن يحترق بينه وبين نفسه ، وقد اعتزل الحرب ، وخلا وحده فى معسكره ، يجتر أحزانه وتجتره الآلام . . »

— « لا عليك يا ذيتيس ! لا عليك يا حبيبتى ! قرى عيناً . . قرى عيناً . . فبسما أخذه الناس بغير ما ينبغى له ، لأذيقنّه وجنوده البلاء المبين ! . . »

وعادت ذيتيس جذلانة بعد أن طبع على جبينها المتلألىء قبلة . . ارتجف لها قلبه وانهمر الدمع من عينه صبيبا . . !

* * *

زلزلت ذيتيس قلب الإله الأكبر بدلالها وقوة فتونها ، وأرّق طيفها الرائع جفنيه ؛ فلم يذق طعم الكرى تلك الليلة بطولها . . فهب من مضجعه السندسى فوق سدّة الأولمب ، واستدعى اليه إله الأحلام ، فأمره بالذهاب من فوره إلى معسكر الهيلانيين .

« . . فإذا كنت ثمة فانطلق إلى فسطاط أجاممنون ، فداعب عينيه ، وأيقظ على قلبه ، وقل له ، وهو يغط فى نومه العميق ، إن الآلهة تأمرك أن تصبح فتنفخ فى بوق الحرب ، حاضاً عساكرك على اقتحام طروادة . . فإن زيوس يبشرك بالمدينة الخالدة ، ولا يكاد النهار ينتصف حتى تكون جنودك فى شوارع إليوم ظافرة منتصرة بإذنه . . »

وصدع إله الأحلام بما أمره سيد الأولمب ، وانطلق إلى معسكر أجاممنون فى أقل من لمحة ، فداعب عينيه ، وألقى فى روعه الحلم

الكاذب ، وعاد أدراجه إلى مولاه .

فلما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، هب أجامنون من نومه مذعوراً ، وأرسل رسله إلى رؤساء الجند فاجتمعوا لديه قبيل الشروق ، وأعلن هو انعقاد المجلس الحربي ، فصمت الجميع ، ونظر بعضهم إلى بعض ، وكلٌّ يظن أن لا بد من أمر جلل ، استدعى انعقاد المجلس في هذه الساعة من بُكرة اليوم !

ونهض أجامنون فتحدث إلى القادة ، وأخبرهم برؤياه ، ولما فرغ ؛ نهض نسطور الحكيم المحنك ، فسبَّح باسم زيوس وأثنى عليه ، وقال:

لو أن أحداً غير القائد الأعلى رأى تلك الرؤيا لأثار استهزاء الجميع ولرماه الجميع بجسنَّة أو مس ، ولكنه قائدنا وملكنا ، وسليل الآلهة العظام ، أجامنون ، هو الذي رآها ، وهي لا شك موحاةٌ اليه من لدن ربنا وسيدنا ومولانا مليك الأولمب ، وهو لا بد ناصرنا على أعدائنا الظالمين . فهلموا أيها الإخوان إلى رجالكم فأيقظوهم ، وانفخوا فيهم الحمية والحماسة ، فإذا أشرقت ذُكاء فسوّوا صفوفهم ، واشحذوا عزائمهم ، ولنتوكل على أربابنا ، وليهتف الجميع باسم زيوس ، ولنصلِّ له ؛ ولنسبح تسبيحاً كبيراً . . »

فلما كان الصبح ، ارتجف السهل والجبل ، ودوّى المشرقان والمغربان بجلبة الجند ، وصار كل المعسكر كأنه خلية صخابة من النحل . . تَطنّ وتطِن . . وصارت الساحة الحمراء كأنها سماء معتكرة ، لرعدها هزيم ، ولريحها هزيز ، ولبرقها خطف يذهب سناه بالأبصار . .

وشُرعت الرماح وأرهفت السيوف ، وحلقت المنايا كأنها الأغربة السود تمرنّق فوق الفرائس ، وتحدوّم فوق الجيف . . !

ولم يكن أجامنون قد انخدع بالحلم الكاذب ، فشدهه أن يرى إلى استعداد الجيش ونفرته نفرةً واحدة . . ولم يخدعه كذلك هذا العدد العديد من الجنود ، طالما أن ليس فيهم أخيل وشياطينه المقاتلة . . الميرميدون !

فأوجس فى نفسه خيفةً ، وهاله أن يكون فى الأمر سر ، ووقر فى قلبه أن غضبة أخيل لا بد أن تغضب السماء ، واستقر فى نفسه أن هذا الجيش العرمرم سائر إلى الهزيمة المؤكدة ، ووارد موارد الردى ؟

وهكذا جبُن القائد العام . . وندم على أن عقد المجلس الحربى . . !

فما أن متع النهار ، ونظر إلى الجند فرآهم يغمرون الأودية ، ويربضون فى مشارف الجبال ، ورأى إلى طروادة المنيعة تهزأ بكواكب الهيلانيين وجيوشهم ، حتى نهض فوق يفاع من الأرض ، وهتف بجنوده يقول :

« يا أبناء هيلاس : يا بنى قومى » :

لست أدرى إلام تمتد بنا هذه الحرب ، وحتام نبقى هنا فى هذا المكان السحيق من الأرض ؟ !

تسعة أعوام يا قوم ، ونحن هنا بمعزلٍ عن العالم ؛ ننام فى الخيام ، ونأوى إلى السفائن ، تلفحنا الرياح ، ويثور بنا البحر ، وتتخطفنا المنايا !

وعبثاً ينتظرنا أبناؤنا ونساؤنا فى هيلاس العزيزة ! ومن يدرى ؟ فقد يكون بعض أبنائنا أو آبائنا قد انتقلوا إلى هيدز ، ونحن هنا نتصارع مع الموت ، من أجل امرأة آبقة لا عرض لها ولا شرف .

أبناء وطنى !

ألا أقولها لكم كلمةً سواءً صريحة ؟ هلموا فأغمدوا هذه الرقاق البيض ، ولنعقد مع الطرودايين هدنةً يعقبها صلح شريف ، ثم لنركب أسطولنا الذى نخر السوس فى أخشابه أو كاد ، ثم لنعد أدراجنا إلى هيلاس سالمين !

حرب !

أية حرب هذه التى اشتعلت من هولها الرءوس شيباً !

أية حرب هذه التى تودى بأعز المهج ، وتذهب بأغلى الضحايا من نفوس الشباب ! ؟ بل أية حرب هذه التى توقع العداوة والبغضاء بين أخوين من أعز أبناء هيلاس ، فيتراشقان بالفحش من القول ، ويتبادلان الهُجر من الكلام ، ويوشكان أن يلتحما فى نزال تودى بحياة أحدهما من أجل امرأة ؟

أنا — أجاممنون — أغضب أخيـــل أخى من أجل لذة طارئة ، ومتاع غير مقيم !

يا للهول !

لتنتهِ هذه الحرب ، لتنته هذه الحرب ... ولنعد إلى هيلاس . . »

* * *

وأرسلها أجاممنون خطبةً طويلة تفيض بالحق وتعترف بالواقع . .

فصادفت من قلوب الجند المعذبين هوى ، ولقيت منهم استحسانا وتحبيذاً ، وطربت لها نفوسهم التى أضناها الحنينُ إلى الأوطان ، وشفها

التوق إلى لقاء الأهل ، ونبذ هذه الغربة الطويلة التى أنهكت قواهم وأوهنت شبابهم .

وفكر كل فى أبنائه وأبويه وأحبّائه ، فهفت نفسه إلى الارتحال عن هذه الساحة المشجية ، عسى أن يقضى الحقبة القصيرة الباقية من حياته الخريفية فى راحة وهناء ، بين أهله وذويه . .

لكن الآلهة لا تريد هذا !

وكيف تنتهى حرب أثارها باريس بين ربات الأولمب فى البدء ؟ !

أليس هو قد قضى بالتفاحة لڤينوس ؟

إذن ڤينوس تنصره وهى لذلك تقيه هوان الهزيمة وذل ، الانكسار . ولكنه أين يهرب من حيرا سيدة الأولمب ، التى وعدته نعيما وملكا مقيما ، إذا هو كان أعطاها التفاحة ؟

لقد أسخطها بما لم يسخطها أحد به من قبل ، وهى لذلك تصل ليلها بنهارها فى تدبير السوء له ، والكيد لوطنه وعشيرته وكل من يلوذ بهما !

ثم أيان يهرب من سخط مينرڤا كذلك ؟

أليست مينرڤا قد وعدته الحكمة التى لم يشوّتها أحد من قبل ، إذا كان قد قضى لها بالتفاحة ؟ . .

إن مينرڤا هى الأخرى تتربّص به السوء ، وتود لو أظفرت به أعداءه فينكلون به ، ويسقونه عذاب الهون ، لقضائه فى التفاحة لڤينوس .

سمعت حيرا خطبة أجامنون من علياء الأولمب ، فأفزعها أن ينقاد الجنود له ، وهالها أن يستعد الجميع للرحيل !

فاستدعت اليها مينرڤا ، وخاطبتها بصدد ما قال قائد الهيلانيين ، ثم

اتفقتا على أن تذهب مينرفا إلى معسكر القوم فتلقى البطل المغوار أوليسيز ، فما تنفك تحضه وتحرضه حتى يقوم هو بإلهاب عاطفة الجند ، وتفتيح عيونهم على العار الأبدى الذى ينتظرهم فى بلادهم ، إذا عادوا اليها من غير أن يُظفرهم أربابُهم بأعدائهم ، قانعين من الغنيمة بالإياب ! . . بعد تسعة أعوام فى دار الغربة . .

وانطلقت مينرفا إلى ساحة الحرب ، وكانت ترف كالسحابة البيضاء فى دُجنَّة الليل فيما بين جبل إيدا وشواطىء الهلسپنت ، حتى إذا شارفت المعسكر أطلت على القوم فوجدت رؤساءهم يتحاورون فيما قال أجامنون ، ورأت إلى أوليسيز متجهماً منقبض النفس مُشتَقل الروح ، يكاد ينشق من الغيظ ، مما سمع من كلام القائد العام الدال على الخور واليأس ، واستبشرت مينرفا بما رأت من هياج أوليسيز ، فهبطت عليه رحمة من السماء ، وكلمته قائلة ، بحيث لا يراها أحد غيره :

« أوليسيز فتى إيثاكا وبطل هيلاس !

أسرعت اليك — اليك أنت — اليك يا أشجع جندى هنا ، لأحذرك من أن تنخدع بكلام أجامنون ، إنها خدعة يا أوليسيز ، إن القائد العام يحاول أن يسبر عزائمكم ، ويختبر همكم ، فلا تنطلِ عليكم كلماته .

إنكم لم تنفروا إلى طروادة خفافا وثقالا لتغتربوا عن أوطانكم تسعة أعوام طوال ثم لتعودوا كما أتيتم ، بل أضلّ سبيلا .

أوليسيز : ما ذنب القتلى الأجرياء الذين خضبت دماؤهم ثرى هذه الساحة ، تتركونهم فى حُفَرتين من مقابرهم : حمرة الدم . . وحمرة الخجل مما فرطتم فى حقوقهم وتهاونتم فى كرامتهم ؟

وما خطب السنين التسع يا أوليسيز ؟

أكنتم تلعبون يوم ضحيتم بإفجنيا ؟ . .

أكنتم تلهون يوم أهدر پروتسيلوس دمه ؟

وشرفكم الذى يذبح كل يوم فى قصور طروادة !

واستهزاء الأمم بكم ، وضحك القبائل عليكم ؟ !

لا يا أوليسيز ! هلم فحرض القادة ، وانفخ من روحك فى قلوب الجند . .

وسمع أوليسيز إلى ربة الحكمة ، فخفق قلبه ، وثارت نخوته ، والتهبت مشاعره ، وعاهدها على إضرام الهمة ، وتأجيج لظى الحرب .

وانطلق بين الصفوف ، فلقى نسطور وأجاكس وپالاميدز ، وغيرهم وغيرهم من زعماء الجيش ورؤوس قبائله ، فحذرهم (من الانخداع بكلمات أجاممنون ، لأنها حيلة يريد بها سبر عزائمهم ، واختبار هممهم) ، كما تحدثت اليه مينرڤا !

وحضهم على التضحية والصبر ، وحرضهم على الجلاد والاستبسال ، وذكرهم بعهودهم ونظر الدنيا جميعا اليهم ، ثم حذرهم من العار السرمدى الذى يتربص بهم إذا عادوا من دون أن يفتحوا طروادة !

وتغيرت الحال !

وتجددت روح الحرب ، وفتح كل جندى عينيه على مجد الوطن !

ونجح أوليسيز !

ونجحت مينرڤا .

* * *

ودهش أجامنون لهذا التحول المفاجىء فى نفسية الجيش ، تلك النفسية التى كانت منذ لحظة ، فقط ، مزيجا من القنوط واليأس ، وخليطا من السرور والحماس لمجرد الإيذان بالعودة إلى الوطن ؛ فصارت تضطرم تشوقا إلى الحرب ، وتتحرق شوقا إلى امتشاق السمهريات الظوامى .

وما وسعه إلا أن يثنى على شجاعة الجنود ، و . . عدم استسلامهم ، و . . ترفعهم عن الاستكانة والاستخذاء .

فكان تحوله أعجب . . وموقفه بين غشية أو ضحاها أغرب .

ونظر الطرواديون من كُوَى أبراجهم ، فراعهم التفاف الهيلانيين بمدينتهم ، وإحاطتهم بها من كل جانب ، وسرى الرعب فى قلوبهم ، ودعوا ثبورا كثيرا .

وكان يحنقهم أن باريس الذى جر عليهم كل ذلك الكرب ، وكان السبب العقيم لهذه الحرب ، يقر فى مخدعه الوثير يداعب هيلين المنحوسة ويلاعبها ، ويساقيها كؤوس الهوى وتُساقيه ، غير آبه لما يغص به قومه كؤوس الردى والحمام .

وخرج باريس لشأن من شؤون لهوه . وعبث باطل من أغراض غرامه الدنىء ، فسمع الناس يلغطون ويلمزون ، ويلوكون اسمه بألسنة الهوان والتحقير ، فثار ثائره ، وفارت حماسته ، وأقسم ليثأرن الجبناء من ضروب شجاعته ما تنخلع له قلوبهم ، وتطير من هوله ألبابهم . .

وذهب من فوره إلى أخيه هيكتور ، فطلب اليه أن يرفع الراية البيضاء ، ويخترق الصفوف حتى يكون فى وسط الميدان ، وينادى قائد

القوم ليتفق معه على أن يستريح الجيشان طيلة هذا اليوم ، ثم لتكون مبارزة بين باريس ، على أن يمثل الطرواديين ، ومنلوس على أن يمثل الهيلانيين ، فإذا فاز أحدهما بصاحبه ، وأظهرته الآلهة عليه ، عاد إلى قومه فرحا مسرورا .

وطرب منلوس لما اقترحه غريمه الذى كان كالساعي إلى حتفه بظلفه ؛ وصمتت الأفواه ، وحملقت الأنظار ، وتلمس كل جندى فى الجيشين قلبه من شدة الخفق وثورة الوجيب ؛ وبرز منلوس وبرز اليه باريس ؛ ومرت الأحداث سراعا أمام عينىْ ملك أسبارطة ، فذكر خُطّاب هيلين وصدود هيلين ؛ وذكر يوم الخَيرَةِ الكبرى ، يوم رضيته من دون خُطّابها الكثيرين بعلا كريما لها ؛ وذكر يوم احتفائه بباريس واحتفال أسبارطة كلها به ، كضيف عظيم لملكها ؛ وذكر أن هذا الفارس الذى تزلزل من تحته الأرض ، إن هو إلا الغادر الختال الذى اعتدى كأحقر الجبناء على عرضه ، ولطخ بوحل الفضيحة شرفه . . ثم ذكر كيف فرت زوجه معه تحت جنح الليل . . ذليلة لذتها ، أسيرة هواها . . فثارت فى قلبه زوبعة من الجنون ، وتفجر فى رأسه بركان من الغضب ، واتقدت فى عينيه جحيم بأكملها من النقمة ، واندفق الدم يغلى فى ساعديه ، وانقض على خصمه فأوشك أن يحطمه . . لولا أن هاله هذا الطيف الغريب الذى كان يحمى باريس منه ، واقفا الى جانبه . . وخلفه . . وأمامه . . ومن فوقه . . ومن كل جهة جاءه منلوس منها ، يذود عنه ، ويتلقى الضربات الأسبرطية فوق درعه المسرودة ، السابغة ذات الحلقات .

ماذا ؟

آه ، إنها هى ، هى بعينها ، هى ڤينوس ، لقد أسرعت إلى پاريس تحميه فى ذلك الروع الأكبر ، فلما أوشك أن يستسلم عز عليها ألا تنقذ حياته ، وهو هو الذى حكم لها بالتفاحة . .

لقد رفعته إلى عَلٍ !

وطفق منلوس يبحث عنه ههنا وههنا . . ولكنه لم يعثر له على أثر ! لقد ذهبت به ربة الهوى ، إلى مخدع الهوى .

إلى هيلين !

ولكن ويل له من هيلين . لقد كانت تتطلع على الساحة فترى إلى مبارزة البطلين ، فهالها أن يبطش ملك أسپارطة بپاريس ، لولا هذه السحابة البيضاء التى كانت تحميه دائماً من خصمه وتقيه . .

وعذلته هيلين على هذا الفرار المشين ، فكان عذلها له أشد على نفسه من ضربات منلوس . .

معركة بين الآلهة

وقفت نَدْمانَةُ الآلهة ، « هيب » اللعوب الهيفاء ، تسقى أربابها خمراً وكان الأولمب يزخر بسادته .

فهذا زيوس العظيم مستوياً على عرشه الضخم المرصع بالجوهر والياقوت .

وهذا أپوللو سيد الشمس ، وصاحب القوس ، يوقع على قيثارته أشجى ألحانه .

وهذا ڤلكان ، الحداد القذر ، قد بدا فى حلة جديدة ذات ألوان صارخة .

وذاك مارس الجبار ، إله الحرب ، يلاعب الأسنة ، ويداعب الصَّمْصَمَةَ المُرِنَّة .

وذلك هِرْمز ، قائد الأرواح إلى هيذر ، ورسول الآلهة إلى سكان الأرض ، يرسل فى الملأ نظراته الساخرة ، ونكاته المنكرة .

وهذه حيرا ، مليكة الأولمب ، تود لو تضرم النار فى قصور مولاها ، إن لم يقض بانتصار الإغريق !

وهذى ميترڤا .. الحكيمة الراشدة .. تصمت صمتاً أبلغ من وَحْى الأولمب كله ، ترى هل تستطيع تسخير هذه العصبة من الأرباب لسحق پاريس وقومه وأحلافه .

ثم طائفة كبيرة من الآلهة وأنصاف الآلهة .

obeikandl.com

وهيب اللهوب تسقى الجميع خمراً !

وللخمر الأولمبية ، كما لخمر هذه الأرض ، نشوة وسورة ، ولها على رؤوس أربابها صولة وسلطان ، وهى مثلها تُروِّى حتى تبلغ المُشاش ، وتتغلغل حتى تمتزج بالدم !

وهيب تروح وتجىء ، حلوةً بسامة . . كأنها مدامة !

ورَوِىَ الجميع إلا حيرا !

وانتشى الجميع إلا ميترقا !

لقد كانتا لا تفكران إلا فى هـــذه الساحة الحمراء ، وما يقع فيها من بلاء !

أليس قد ذهب الهيلانيون ينتقمون لكبريائهم من باريس ومن قوم باريس ؟

ألم تنصح عروس الماء ، إيونونيه ، لباريس ألا يصيخ لڤينوس ، وأن يعطى التفاحة لميترڤا ؟

ألم تحذره من التعرض لنقمة الربتين العظيمتين ؟

غير أنه أبى !

وآثر الجمال والحب ، ثم الشقاء والحرب ، مع ڤينوس ، على القوة والصولة ، والملك الكبير ، والحكمة والنورانية ، مع حيرا أو ميترڤا .

وبذلك جلب على نفسه وقومه وبال هذه الحرب ونكالها .

وليس اليومَ أروحَ إلى قلب حيرا ، وأرضى إلى نفس ميترڤا ، من أن تنصرا جحافل الهيلانيين ، وتثبّتا فى ساحة الحرب أقدامهم .

ولكن أخيل منفرد فى معسكره وهو مفئود محزون .

وقد وعدته أمه بأخذ الثأر له ، وكلمت فى ذلك زيوس سيد الأولمب ، ولم تزل به تسلط عليه ذكريات غرامهما القديم حتى زلزلت أركانه ، وسلبته جنانه ، وانتزعت منه وعداً قدسياً بأن ينتقم من أجاممنون ، وجنوده لأخيلها العزيز .

تانِكم حيرا ومينرفا .

وذاكم زيوس كبير أرباب الأولمب .

أما أبوللو ، فهو لا ينسى ما فضحه أجاممنون به فى بنت كاهنه ، وهو ما يفتأ يتربص بالقوم ، ويدبر لهم سوء المنقلب .

وأما ڤينوس ، . . . ؟

فتلك أبرّ بپاريس وبقوم پاريس ، وهى أبداً ستحمى پاريس وجند پاريس ! لأنها ستذكر له أبداً أنه نَصَرَها على حيرا . . كما نصرها على مينرڤا .

وكذلك أوقدت هذه الحرب العداوة والبغضاء بين الآلهة ، وأضرمت النيران فى قصور الأولمب .

فللآلهة فى جبل (إيدا) معسكران ، كما لبنى الموتى حول طروادة معسكران .

* * *

أوشك منلوس أن يفتك بپاريس ، لولا أن أنقذته ڤينوس ولفيته هيلين عاذلةً مغضبة ، لكنه نَسِى نفسه وهو معها ، واستباحها أن تدع حديث الحرب إلى حديث الحب . . « على أن أعود فأثأر لنفسى من

منلوس العنيد ، الذى لولا حماية مينرفا وحيرا له لبطشت به وجعلته خبراً فى الذاهبين . . »

وكان العهد بين بريام الملك ، وأجاممنون قائد الهيلانيين ، أن يُلقِىَ المغلوبُ السَّلاحَ ، فلما فرَّ باريس ، تقدم أجاممنون وطلب أن يسلم الطرواديون هيلين الأرجيفية ، وأن يقدموا دروع باريس ، وسيفه ، وقرسه ، وجميع عدته الحربية ، أثراً خالداً يحتفظ به الإغريق ويتوارثونه رمزاً لمجدهم الحربى ، وتذكاراً لفوزهم وغلبهم .

بيد أن الطرواديين رفضوا هذا : « لأن أحداً من المتبارزين لم يظفر بالآخر ، ولأن قطرة من الدم لم تصبغ أديم الأرض فتكون شاهد النصر » .

وكانت بين الفريقين مهادنة .

فخشيت حيرا ومينرفا أن يطول أمدها ، واتفقتا على أن تذهب مينرفا هذه المرة أيضاً فتضع حداً لهذا السلام الذى يشمل الساحة ، وأن تثير الحرب من جديد .

وذهبت مينرفا فاندست بين صفوف الطرواديين ، وسحرت نفسها فبدت فى عدة (لاودوكوس) البطل الطروادى وهيئته ، ثم وَتَرت قوسها وأرسلت سهماً مراشاً نفذ فى جسم منلوس ، إذ هو يبحث عبثاً عن باريس . .

وتجددت الحرب بين الفريقين بسبب هذه السهم ، فكانت حرباً زبونا طاشت من هولها الأحلام ، وبلغت القلوب الحناجر ، وزاغت الأبصار فما ترى إلا حميا . .

وعز على ڤينوس أن ينهزم جند ضرواة ، وهم أولياؤها وصنائعها ؛ فذكرت أن لها فى أرباب الأولمب إلهًا هيمانا يترضاها ويلتمس كلمة منها تشفى قلبه الخفوق ، وتداوى هواه الثائر ، وأعصابه التى مزقها الحب ، وأذابها حرّ الهوى ، فانطلقت اليه تغريه بكل ابتسامة تلين الحديد ، وكل نظرة ساجية تفجر الماء من الصخر ، أن يقوم من فوره فينفخ من روحه فى قلوب الطروادين ، ويؤيد بنصره صفوفهم . .

ذلك هو مارس ، مُسعّر الحروب ومورى لظاها .

وطرب الطرواديون لوجود رب القتال فى صفوفهم يناصب أعداءهم الحرب فيجعلها ضراما ، ويصلصل دروعه فيوقع فى قلوبهم الرعب ، ويثير فى نفوسهم الهلع ، ويروّعهم ترويعا . .

وكانت إلى جانبه ڤينوس تنفث فيه سحرها ، فكان لا يلقى فارسا إلا طعنه فيكبّه على وجهه ، ثم يشكّه فيجفوه[1] من الأرض ، كأنما يتخذ منه هزوا وسخريًّا .

وهرع أپوللو قَامطر الهيلانيين وابلا من سهامه التى ما مسّت أحدا إلا أردته ، وما أقصدت صدرا إلا شقته . .

وساء منقلب الهيلانيين .

وعز على حيرا ومينرڤا أن ينهزم أصحابهما ، وأن يصلوها من مارس وأپوللو نارا حامية ، وهزيمة منكرة ، ثم لا يكون بحسبهم ضربات مارس القوية ، وسهام أپوللو المفوّقة ، بل تطحنهم هذه الصواعق الجهنمية التى سلطها كبير الآلهة عليهم ؛ زيوس ، سيد الأولمب ، الذى أصبح كل همه

---

(١) جفاه من الأرض أى رفعه

أن ينتقم لأخيل بن الجميلة ذيتيس من هؤلاء الإغريق ناكرى الجميل .

وعبست حيرا عبوسا ثقيلا ، ودعت اليها ميزرڤا ، وجلستا تفكران وبدا لهما أن يذهبا إلى الأولمب فيستدعيا رب البحار العظيم ، نبتيون ، فيضع حدا لهذه القسوة التى يبديها مارس وزميله أپوللو ..

ولكن كيف السبيل إلى غل يد زيوس ، ورد صواعقه التى تنهمر على الإغريق من عل ، فلا تبقى عليهم ولا تذر ؟

آه ، لا سبيل إلى ذلك إلا بمنطقة ڤينوس السحرية ! ستوس ! تلك المنطقة العجيبة التى تُغوى كل من نظر اليها ، وتشعل فى قلبه اظمى من الهوى وضراما من الحب . لا بأس إذن من مغالقة ڤينوس حتى تنزل عن منطقتها أياما لمليكة الأولمب وكبيرة رباته ، ثم لتـــذهب مليكة الأولمب بمنطقة ڤينوس لتعبث كثيرا ـــ أو قليلا ـــ بقلب زيوس ، الذى ما يفتأ يرسل صواعقه على الإغريق من جبل (إيدا) ، وليس شـــك فى أنه سيصبو حين يرى منطقة ڤينوس تزين خصر حـــيرا وتبرز مفاتن صدرها ؛ فاذا عصفت به فورة قلبه ، وحاول نظرة واحدة من آثر زوجاته اليه ، فلا بأس من أن تمنحه إياها . . ولكن . . لتنتهز سكرته العميقة وتسلط عليه إله النوم الجبار ـــ الذى هو دائما فى خدمتها أينما سارت ـــ فيغرقه فى سُبات عميق ، ويظل به يداعب أجفانه ، ويُسهسل أحلامه ، حتى يكون نبتيون قد انكشف لمارس وصاحبه ، وأجنادهما ، فيقذف الرعب فى قلوبهم ، ويزلزل أركانهم ، ويوهى عزائمهم ؛ ويختلط حابلهم بنابلهم فيولوا مدبرين لا يلوى أحد على احد . .

وقد أفلحت خطة حيرا . .

فهذا مارس ما يكاد يلمح نبتيون حتى يذكر هذه الأيام السود التى صب عليه فيها رب البحار سوط عذابه(١) ، فيخفق قلبه وترتعد فرائصه ، ويكبر زنده ، وتذهب ريحه وتتحطم شوكته . . ثم يقذفه نبتيون بسهم ، وقل أن تطيش سهام نبتيون ، فيصرخ إله الكريهة صرخة كريهة ، وينفتل من الحلبة الحمراء موليا عقبه ، ساخطا على ڤينوس ، وما يجر اليه غرام ڤينوس .

وولى فى إثره أتباعه الطغاة ، آلهة الشرور ، إريس رب الشغب ، وفوبوس رب الرعب ، وميتوس رب الخوف ، وديميوس رب الفزع ، وباللو رب الهلع . . عصبة الإجرام وشرذمة الآثام ، والطغمة الباغية من أوشاب الأرباب .

وأفيق الإغريق مما حل بهم من روع . .

ونظروا فرأوا مارس وملأه مولين الأدبار ، والدم يتدفق من جراحهم جميعا ، فأفرخ روعهم ، وأمن سربهم ، ثم لموا شعثهم وهجموا على أعدائهم هجمة رجل واحد ، فأدالوا لأنفسهم ، وثأروا لكبريائهم ، وانصرفوا يتفقدون جرحاهم ، ويحرّقون جثث قتلاهم الشهداء .

يا للهول !

لقد قتل امبريوس البطل ، قتله تيوسير ، غير راحم شبابه ، ولا مبق على عوده الفينان !

---

(١) إشارة إلى الأسطورة القديمة التى وقع فيها مارس أسيراً الماردين الجبارين بتدبير نبتيون

وأمفيما خوس !! لقد صرعه هكتور بن پريام ، غير راث لأمه العجوز الهرمة ، ولا آبه للباكين حوله والمهولين !!

وديوميد !! زين شباب هيلاس ، وآثر فتيانها إلى قلوب الآلهة ! لقد جرحه پاريس بسهم أوشك أن يكون قاتلا ! لولا أن أدركه جنوده فأسعفوه وضمدوا جرحه وإلى المعسكر حملوه !

وأجاممنون ! لقد برّز فى المعمعة ، ودل على الفروسية التى بهرت الطرواديين ، بيد أنه أصيب بسهم نفذ فيه ، فارتد على عقبه يصرخ ويتلوى !

وأوليسيز !! أوليسيز العظيم !! لقد أرسل اليه سوكوس ، أمهر رماة طروادة ، بسهم مسموّم ، فجعله ينتفض كما ينتفض المحموم ، ويخر إلى الأرض فيتلوّى كمن لدغته أفعى ، ولولا أن أدركه أجاكس ومنلوس فاسعفاه لكان من الغابرين !

وأجاكس كذلك ! لقد أتاه سهم كاد يذهب به لولا بقية من حياة !!

ومخاون ! لقد روعه پاريس هو الآخر فشكا وبكى !!

* * *

أرأيت ؟

لقد نال الطرواديون وأحلافهم من جموع الهيلانيين ، ولولا أن أغاث هؤلاء نبتيون القاهر ، لكانت ملحمة فاصلة فى هذه الحرب الشعواء !

وكأن السماء قد أيقظت ضمائر اليونانيين ، وبرهنت لهم على أنهم ما لم يخض معهم المعركة أخيل ، فلا نصر لهم ولا غلبة ، ولا محيص من هذه

الهزائم المتتالية ، والجروح التى لم تكن قصاصا اولا أن أدركهم نبتيون !

عرف اليونانيون هذا ، وآمنوا بعد هذا الفزع الأكبر أن لو كان أخيل بينهم يوم هذه الكريهة لما حفلوا بمارس وأتباعه ، ولأظفرتهم آلهتهم بأعدائهم ، ومارس وملئه ، وأبوللو وجنوده جميعا ..

وانطلق نسطور فعرض على أجامنون مصالحة أخيل وإرضاءه ، وبعد لأى رضى القائد العام أن ينطلق نسطور وأوليسيز وأجاكس وفونيكس إلى معسكر أخيل ، مندوبين عن القائد ، ليعرضوا عليه صلحا شريفا ، وموثقا كريما ، يرضاه الطرفان ؛ ولكن أخيل يثور لكرامته ، ويأبى إلا ... بريسيز ... ثم لا يشترك فى حرب ضد الطرواديين ...

ويلح أوليسيز على صديقه القديم ... ولكن صديقه القديم لا يزداد إلا شماسا ، ولا يزداد إلا أنفة ...

ويكون فونيكس قد نالت منه حجج أخيل ، ويكون قد خلبه بيانه ، وبهره حسن منطقه ، وطلاقة لسانه ، وعظيم شجاعته ، فيؤثر البقاء معه ، مخاصما الهيلانيين جميعا حتى يرضى أخيـــل فيتركه أوليسيز وصاحباه ، ويعودون إلى أجامنون ... بخفى حنين !

* * *

وهكذا تتم كل هذه الأحداث الجسام ...

وزيوس يغط فى نومه الهادىء الناعم يوما بأكمله .. حتى يبطل السحر ، وتذهب الرقية ، فيهب الإله الأكبر من سباته حيران أسفا ... لأنه ينظر

من ذروة جبل إيدا ، فيرى إلى نبتيون الجبار يصول فى ساحة طروادة ، ويجول ، ويصرع الأبطال ، ويجندل الأقران ، ويرى إلى مارس العتيد ، وجنوده الأقوياء ، يفرون من وجه سيد البحار ، لا يلوون على شىء . .

ويرى أيضا إلى أخيل لا يزال منفرداً فى فسطاطه ، قريبا من سفائنه والحزن يمضه ، ويوهى جلده ، فيحزن الإله الأكبر وينفذ إيريس إلى نبتيون ليزجره ، ويأمره أن يغادر المعمعان فى الحال ، وإلا أرسل عليه سيد الأولمب صواعقه ، وهناك لا يكون له حول ولا تكون له قوة . .

ويغادر نبتيون الموقعة ، ولكن بعد أن دمر الطراوديين تدميراً ! . .

أندروماك

استطاع نبتيون أن يزلزل قلوب الطرواديين .

وحسبه أن يفر من ميدانهم مارس الجبار ، وأن يفر فى أثره أتباعه آلهة الرَّوْع ، وفينوس ، أصل البلية التى حاقت باليوم ، ليلتقل النصر طفرة من جانبهم إلى جانب الهيلانيين .

وبرزت شمس اليوم التالى على الساحة الملطخة بآثام الإنسانية ، المُضرَّجة بأوزار الآلهة ، المصطبغة بدماء الموتى ... لتشهد من جديد صراع الضغائن وتَصاوُل الأحقاد ، وأخْذَ السخائم بعضها برقاب بعض ، وهذه الكتل البشرية يُفنى بعضها بعضها .

واشتد الهيلانيون فى طلب الطراوديين ، واستبسل هؤلاء ، فكانت أمواج الغزاة تتكسر على صخور شجاعتهم ... ولكنها لا تتلاشى .

وعظم الخطب ، ومارت الأرض ، وانعقد رَهَجُ الحرب مما تثير الخيل من هَبَوات ، واشتجرت الهيجاء ، حتى لكأنها قِطَع من الليل ، وصلصلت الدروع حتى لكأنها عُواء ذئاب الجن ، واستشرى الشر حتى لا ترى إلا إلى منايا وآجال ، فى قتال ونزال . وأحس جنود طروادة بانْسِكاب الوغى ، وشعروا بالرجفة تأخذهم من كل جانب ، وكان هكتور العظيم يخطف كالبرق بين صفوفهم يحضهم ويحرضهم ؛ بيد أن الشجاعة لا تغنى فى موقف الموت شيئاً ، فقد شرعت فيالقهم تتقهقر ببطء نحو

الأسوار ، حتى إذا بلغوها لبثوا ثمة يُصْلون أعداءهم وابلاً من السهام ، والرماة يساعدونهم من فوق الأبراج ...

لكن الهيلانيين ما تفتر لهم همة ، ولا يصل إلى حماستهم كلال ؛ فقد صمدوا في مواقفهم ، وثبتوا وصابروا ، وأبدوا من ضروب البسالة واليأس ما حير ألباب أعدائهم ، وجعلهم إلباً عليهم واحدا ! !

وفي عنفوان المعمعة لقي هيلانوس بن پريام الملك ، أخاه المغوار هكتور يقصف بين الصفوف ويرعد ، ويرغى بين المحاربين الصناديد ويزيد ؛ وكان هيلانوس خير كاشفي الغيب ، وعرّافي الطروادين ؛ وكان حبيباً إلى الآلهة ، جميل الطلعة ، بسام الثغر ، حتى في الحرب ؛ وكان إلى ذلك حازماً موفور الحزم ، صارماً شديد الصرامة ، يقهر الغير على احترامه ولو كانوا يكبرونه سناً ؛ فلما رأى هكتور يحبس تلك العبوسة القمطرير لما يحيق بجنوده من أذى ، ذهب إليه فحدّثه وقال .

« أي أخي ! أي هكتور العظيم ! »

وما كاد هكتور يسمع النداء الحبيب حتى هرع إلى أخيه يلتمس في صدره الحنون برداً لحر تلك الجحيم التي لفحت شجعان طروادة بزفيرها ، وصاح به :

« هيلانوس ! أنت هنا ؟ أدع لنا آلهتك يأيها العزيز ! لقد عزّ النصر بعد إذ حسبناه في أيدينا أمس ... أدع لنا آلهتك فقد عيينا بهؤلاء الهيلانيين الأباسة ! . . »

— « هكتور ! إصغ إليّ ! لن تظفروا بهؤلاء ما دامت ميزقا معهم تؤيدهم ، وتشد أزرهم ، وترد عنهم سهامكم ، فتجعلها في نحوركم ! ! »

« هكتور ! هلم إلى القصر يا أخي ، فالق والدتك المرزّأة ثمة ؛ فتوسل إليها أن تذهب من فورها ، مرتديةً أبهى ملابسها إلى هيكل ميرفا ، فلتبك عند قدمى تمثالها ، ولتقدم الضحايا ، ولتقرّب القرابين ، ولتحرق البخور المقدس ، الممزوج بالأفاويه والصندل وطيوب الهند ؛ ولتنذر أن تذبح إثنتيْ عشرة بقرة من خير أبقار اليوم ، فتتصدق بلحومها ، وتهب الكهنة شحومها ، إذا وعدت ربة الحكمة أن ترفع مقتها وغضبها عن طروادة ! »

وألحف هيلانوس على هكتور ، فألقى نظرة على المعركة ، وكاد قلبه يتفطر على هذه الأشبال التى تسقط هنا وهناك ، وفى كل صوب وحدب ، لاقيةً حتوفها فى سبيل اليوم ، وذرف عبرات تذوب حنانا ورحمة . ثم لوى عنان حصانه إلى البوابة الكبرى . فدخلها وقلبه يتصدع من الهم ، ووقف مرة أخرى يلقى على الساحة المضطربة نظرة قائد بجنوده رؤوف رحيم ...

وانطلق إلى القصر الملكى المنيف ذى الشرفات ...

وهناك ... عند بوابة القصر ، وتحت السنديانة الكبرى الوارفة ، اجتمع حول هكتور نسوة كثيرات ، هن أزواج المحاربين البواسل وأخواتهم وبناتهم . وأمهاتهم كذلك ، ازدحمن حوله يسائلن عن رجالهن ، هل أودى بهم حتف القضاء ، وأروَوْا ثرى الوطن العزيز من دمائهم ، أو لا يزالون يناضلون الأعداء ، ويردون عن طروادة حمى البلاء ؟

ولكن هكتور يوشك ألا يسمع لهن ، لأنه ينطلق من فوره إلى داخل القصر ، ... وها هو ذا يشرع فى أبهائه العظيمة ، ماراً بتلك الغرف

الخمسين التي تضم أزواج أبيه وأطفالهن ، ثم بالبهو الأكبر ذي العماد الشامخة ، ثم بالجواسق المذهبة ذوات الدُّمى والتماثيل ، حتى يكون عند ردهة الملكة ، فتلمحه أخته الجميلة ذات المفاتن ، لاؤوديس فتجرى إليه ، وتلف ذراعيها حول ساقيه ، فيتخلص منها برفق . . . وتكون والدته قد أحست وجوده فتهرع إليه ، وتهتف به :

« هكتور ! بُنَىَّ ما ذا جاء بك ؟ لمن تركت الساحة يا ولدى ! أهكذا تدع أبناء طروادة الموت الأحمر وتجىء إلى الحرم تنشد الراحة يا هكتور ؟ لا . لا . لا أحسبك تتخلى عن جنودك لحظة . ولكن هلم إلىّ ! إليك هذه الكأس من أشهى ماعصر باخوس ! روّ ظمأك منها وعد إلى الميدان ... »

بيد أن هكتور يتجهم تجهماً مُغْضَبَة ، ويهتف بها :

« أماه ! حاشاى يا أماه ! حاشاى يا أعز الأمهات ! ان تهرق الخمر باسمى ، وتلك دماء إخوانى تهرق باسم الوطن وتُراق ! حاشاى يا أماه أ أتذوق قطرة واحدة من تلك الكأس ، وهناك . . . فى سعير المعمعة ، يجرع أبناء طروادة الأعزاء كؤوس المنايا وذوب الحمام ! أريقيها على مذبح مينرفا إذن ! هلمى ؛ والبَسْ معك أزواج القادة والمحاربين جميعاً ، فالبسن أبهى ثيابكن الحريرية المفتّلة وحبركن المفوّفة ، وانطلقن إلى هيكل مينرفا ، فصلين لها ، واحرقن البخور الغالى من الأفاويه والصندل وأغلى طيوب الهند ، ثم اركعن عند قدمى تمثالها المعبود . وابكين بكاء طويلاً ، وسبحن باسم إلهة الحكمة ، واغسلن الأرض عندهما بدموعكن ، ثم توسلن إليها أن ترفع عن الطرواديين مقتها وغضبها ، وانذرن أن تقرّبْن ،

لو فَعَلتَ ، اثنتى عشرة بقرة من خير أبقار إليوم ، تتصدقن على الفقراء وأبناء السبيل والمساكين بلحومها ، وعلى كهنة الهيكل بشحومها ...

« أماه ! إن لم تفعلن كما أخبرتك فلا نصر لنا ، بل لنا الهوان والهزيمة المؤكدة . . وعليك وعلى نساء طروادة السلام من أربابها الكرماء ! ... »

وصمت هكتور ! واربد وجه هكيوبا !

وانطلق البطل إلى قصر أخيه ... إلى قصر باريس ، فوجده يلهو ويلعب ، ولا يأبه بهذه الأرواح الغالية التى تصطرع فى الميدان ، فثار ثائره ، وصب عليه شُوَاظ غضبه .. « أنت ! أنت باريس بن بريام ! عجباً وزيوس الأكبر ! أنت هنا تلهو وتلعب وتدع ضحاياك تنافح عن آثامك تحت أسوار إليوم . وتذوق الردى بحريرتك ؟ ! ... »

وأطلق العنان للخيل . فذهبت عربته الحربية المطهمة تطوى الطريق إلى الميدان ...

أما أمه فقد جمعت نساء طروادة وجماعة المتوسلات[1] . وذهبن جميعاً إلى هيكل مينرفا . . وصَلَّيْن وبكين . وغسلن بدموعهن قدمى التمثال المعبود . ونذرن لإلهة الحكمة ما أمر به هكتور أن يُنْذَر ...

ولكن !

لقد أصمّت مينرفا أذنيها ! ولم تُصغِ لهذه التوسلات المكلومة . ولم ترقّ لتلك العبارات المسفوحة . ولم تطمع أبداً فى ضحايا وقرابين تكفر عن خطيئات باريس ، ذلك الراعى المفتون الذى آثر الجمال الفانى على الحكمة

---

(١) Suppliants وقد نظم فيهن كل من اسخيلوس ويوريبيدز إحدى مسرحياتهما الخالدة .

الخالدة ، فقضى بالتفاحة الميثوس ، ربة الحسن والحب ، تلك الحية الرقطاء التى لدغت طروادة بأسرها ، فهى إلى اليوم تصرخ من سمها الزعاف يسرى فى أرواح أبنائها ، فينكل بهم ، ويكاد يقضى عليهم . . . ولا ذنب لهم ولا جريرة ، إلا لبانات الهوى الآثم ، والغرام الشائن ، والحب المحرم المهين !

* * *

وأحس هكتور وهو منطلق إلى الميدان كأن منيته تنوشه من مكان بعيد ، وأحس فى صميمه بشوق حار إلى لقاء أندروماك زوجته العزيزة عليه ، الأثيرة إلى قلبه ، شوقاً يشبه وداع الحياة فى حرارته وأسره ، وشوقاً يشبه الاستمتاعة الأخيرة من مباهج هذه الدنيا . . . فى حزنه الصامت ومعناه العميق !

وأحس كذلك بلوعة إلى التزود بنظرات من سكمندريوس طفله الحبيب ؛ هذه الهبة السماوية التى توشك أن تصبح نقمة من نقمات اليتم ، إذا كان صحيحاً هذا الهاجس الذى وقر فى قلب هكتور ، والذى صور له أنه مقتول لا محالة . . .

وألح الشوق على قلب البطل ، فثنى عنان الخيل إلى الطريق المؤدية إلى قصره الممرد ، ليشفى حاجات الفؤاد المعذب .

وذهب من توه إلى مخدع أندروماك ! ولكنه لم يجدها هناك ، فبحث عنها فى الغرف والردهات والأبهاء ، ولكنه عبثاً حاول الوقوف لها على أثر !

وسأل عنها حشم القصر ، وكان صدره يعلو ويهبط حين كن يتحدثن

إليه عن أندروماك العزيزة وما تلقاه دائما من القلق ، وما تتفزع به روحها من الهواجس ما دام زوجها يخوض غمار هذه الحرب !

فهل هى من الأرض الثقيلة المخضبة بالدماء هذه العواطف المشتركة ، أم هى من السماء الصافية التى لا يرتفع اليها نَغَل ، ولا يورَى فيها زند عداء ، ولا تشب فيها سخيمة ؟

وأخبرته أنها يممت شطر برج طروادة الرفيع ، تشهد منه ما يحدث فى المعركة من أهوال ، وذلك عندما ترامت الأخبار أن الإغريق قد ضيقوا الحصار على جنود طروادة ، وأنهم خضدوا شوكتهم ، وفلجوا عليهم ونخبوا قلوبهم ، وضعضعوا أركانهم . . فريعت أندروماك ، وذهبت من فورها إلى البرج لتطمئن على رجلها وذخر حياتها ، وسندها فى هذه الحياة السوداء .

ونهد هكتور إلى البرج ، فلقيته أندروماك بعينين مغرورقتين ووجه شاحب وجبين مُغَضَّن ، وصدر ينوء بما فيه من الهموم .

كانت تقف إبنة إيتيون ، الجميلة البارعة ، وعلى ذراعها المرمرى الفاتن طفلها الرضيع الشاحب ، الذى حل بهذه الدنيا الهازلة ليكون عَبْرةً سخينة من عبرات الحزن القاهر ، ثم ليكون مأساةً وحده حين تضع هذه الحرب الضروس أوزارها ، وحين يشب فلا يرى حوله إلا الباكين والمحزونين ، وإلا هذه المدينة الكاسفة التى تعصف بها آلهة الحرب من غير ما شفقة ولا مرحمة !

وتعلقت أندروماك بذراعى زوجها ، وشرعت تنظر فى عينيه المبللتين ، وتقول له :

« هكتور ! رَجُلى وذخرى من هذه الحياة ! إلى أين أيها الحبيب ؟ أما لهذه الحرب الطاحنة من نهاية ؟ أهكذا قضت الآلهـــة على طروادة الخالدة بالحزن الأبدى والأسى المقيم ؟ هكتور ! ألا تفكر فى سلم ترفرف على ربوع الوطن ، وتبقى على هذا الشباب الذى تعصف به ريح الحرب ؟ رَجُلى !

إن آلافا من الهواجس السوداء تضغط على قلبى تحـــدثه بالعُقبَى الوخيمة ، والأيام الباكية القريبة !

هكتور ؟

هذه أشباح القتلى الأعزاء من بنى وطنى تحدثنى عن مأساة أبى ، وإخوتى السبعة ، والمئين من أهلى ، قتلهم أخيل الجبار بيده السفاحة ، جعل من جثثهم كومة عالية تقص على القرون تاريخنا الحزين !

لقد هرعوا جميعا إلى هذه الساحة من قِيلِسِيقِيَّة ، ملبين نداء الملك ، الملك التاعس ، أبى ، الذى سعى إلى طروادة لينام أبد الدهر فى ظل أسوارها تومة لا قريرة ولا هانئة .

هكتور !

لقد نام أعز الآباء فى تراب ساحتكم دفاعا عن مدينتكم ، ولكن المأساة لم تتم بقتله وقتل أبنائه والمئين الأعزاء من بنى جلدته ، ولكن المأساة أبت إلا أن تكون أمى . . آه يا أمى العزيزة . أن تكون هذه الأم صفحة محلولكة من صفحاتها التى تفجر الدم فى القلب ، وتضرم النار فى الحشا ! .

لقد ساقها أخيل يا هكتور فى جملة السبى ، ولولا القَود الكبير ،

والفدية الغالية التى بذلناها من أجلها ، لكانت إلى اليوم ، لو مد فى أجلها إحدى خادمات الأعداء الذليلات ، اللواتى لا تقوم لهن فى هذا الأسار عزة ، ولا يقدر لهنّ أحد شأنا ، لكنها سقطت هناك ، فى هامش هذه الساحة الظالمة ، ضحية سهم مراش من قوس الربّة ديانا ، فكأنما رفضت أن ترفع كأس هذه الحياة إلى فمها النقى الطاهر . بعد إذ لوثته أحداث الدهر بذل الأسار !

هكتور !

كل هذه النوازل هدت نفسى ، وحطمت قلبى ، وأخمدت مشاعرى ، وجعلتنى بائسة تعسة موهونة لا حول لى . لولا أنك إلى جانبى تأسو جراحى وتؤنس وحشتى ، وتشيع نوراً متلألئا فى ظلمات حياتى .. ! فأنت لى اليوم أب نعم الأب ، وأنت لى فى وحدتى بقلبك الحنون أم نعم الأم ، وأنت لى أخ ، بل أنت لى كل شىء فى هذه الدنيا .

هكتور !

إبق إلى جانبى فأنا لا أستغنى عنك بأب أو أم أو أخ ، أو بمملكة يزين مفرقى تاجها المشرق ، ويشد يمينى صولجانها الرنان !

إبق إلى جانبى يا هكتور !

إبق إلى جانبى وارع هذ الطفل ، ولا تسلمه وتسلمنى لليتم والشقاء .

هكتور !

إن المستقبل يعبس من اليوم لولدك سكمندريوس ، فرده عنه ، وادفع عاديات الزمان من الآن عن فلذة كبدك ، وحبة قلبك ، واستشعر نحوه حنان الأب الرحيم ، ولوعة الأم المفئودة !

.....

وخنقتها عبرة حجبت عن ناظريها نور الحياة ، وحبس منطقها كمد ممض ، وحزن أليم ؛ ووقف هكتور مبهوتا لا يحير ، ينظر اليها مرة والى ولده أخرى ، ثم يلق على طروادة نظرات . .

واستيقظ بطل إليوم من غفوته الصاحية ، وانطلق لسانه من عقاله يقول :

« أندروماك ! أيتها الحبيبة ! إسمعى إلىّ »

لا تخالى يا أعز الناس إلى أن قلبى قد تحجر فلم يخفق لكل ما ذكرته من قبل ! لا ! لقد خفق كثيرا بمثل هذه الهواجس ! بل هو قد ذكرك ، وقد تصور أن هكتور مقتول ، وكأنك كما ذكرت عن أمك فى جملة السبى ، وأنك تؤوبين مع أحد القادة الهيلانيين إلى هيلاس ! وأن القائد الغليظ قد ضمك إلى حريمه ، أو بالغ فى الإيذاء فجعلك إحدى سراريه أو خدمه ، كلما مر بك أحد أشار اليك باليدان : « مسكينة ! هذه زوجة هكتور فتى طروادة ، وابن ملكها المقدام ، البطل الذى سفك الدماء وسعّر الهيجاء تعمل هنا اليوم خادمة ذليلة ، كسيرة القلب ، مهيضة الجناح ، تأتمر بأمر السفلة والأخساء ! .

لا يا أندروماك ! فقد ذكرت ذلك جميعا ، ومن أجل هذا فأنا لهذه الحرب ، وأنا لهؤلاء الأعداء ! سأحطمهم ! سأدك الأرض من تحتهم ! سأسقط السماء عليهم كسفا . . من أجلك ! من أجلك يا أندروماك ! لا . . لا . . بل من أجلك يا طروادة ! يا وطنى . يا بلادى . . »

وسكت فتى طروادة قليلا ، ثم ذكر المعركة وما يدور فيها ، فتقدم إلى زوجه فطبع على جبينها قبلة كلها هموم : ومد يده يريد أن يأخذ

سكندريوس فيداعبه أو يودعه ، ولكن الطفل صرخ مروّعا من هذه الخوذة النحاسية المذهبة التي تحمي مفرق أبيه . وابتسم والداه ، برغم حزنهما ، ورفع هكتور الخوذة وألقاها على الأرض المعشوشبة ، وتناول الطفل فأرقصه قليلا حتى انفرجت شفتاه عن ضحكة عالية ، ولثمه كما تلثم العاصفة فتناً وارفاً فتلفحه ، ودفع به إلى حضن أمه .

وانطلق يطوى الطريق إلى المعمعة !..

---

obeikandl.com

بيتروكلوس

إن يكن قد أصاب الطرواديين قَرْحٌ ، فقد أصاب الهيلانيين قَرْحٌ مثله .

ذلك أنه ما كاد نبتيون يغادر حومة الوغى ، صادعا بأمر الإله الأكبر ، حتى أفاق الطرواديون وأحلافهم ، كما أفاق الهيلانيون من قبل حين غادر الحومة مارس وزبانيته .

أفاق الطرواديون إذن ، وصحا زيوس من رُقْدَته حيرا ، فأقسم إلا أن تدور الدائرة على جنودها من شانئ أخيل ، وإلا أن يحيق بهم مكر هذا السحر الذي ملأ جفنيه ، وأغلق سمعيه ، وأطلق أيديهم في أبناء طروادة يضربون منهم كل عنق كريم وكل بنان !

وماهي إلا أن لمَّ الطرواديون شعثهم ، ورتقوا فتقهم ، حتى استطاعوا أن يعيدوا الزحف ، ويأخذوا أعداءهم المزهوين بنشوة النصر ، على غرة منهم ، ويطَّلع سيد الأولمب من ذروة جبل إيدا فيمكن لهم من أبناء هيلاس ، ثم يسلط عليهم صواعقه ، ويفتح عليهم السماء فتمطرهم بعذاب واقع ، ليس له من دونه دافع ، إلا أن يثأر لابن ذيتيس ، حبيبة القلب . . ومنية النفس !

وفزع أوليسيز إلى رمحه . .

وأجامنون إلى سيفه . .

وديوميد إلى صَعْدته . .

وأخاكس إلى جسَرازه . .

وفزع الجنود إلى أسلحتهم يشحذونها ، وإلى دروعهم يلبسونها ، وإلى الجياد الصافنات يمتطون صهواتها .. وإلى الواقعة فيخوضون غبارها ، ويثيرون غُبارها .

ولكن ! .. بلا جدوى . . !

فلقد طوردوا حتى بلغوا سيف البحر ؛ وضُيِّق عليهم حتى نظروا إلى الهزيمة تأخذهم من هنا وهنا ؛ ورأوا إلى هكتور كالأسد الهصور يزلزل الساحة بزئيره ، ويثير فى قلوب جنوده الحمية بإقدامه ، وأينما توجه كشَّر الموت فى ركابه ، وقطرت المنية من سنان سيفه ، وانقدح الشرر من حوافر خيله ، وتناثر الزبد من أشداقها ، فيكون سُمًّا فى قلوب الهيلانيين .

وطرب الطرواديون لهذا النصر المفاجىء ، وشاعت الخيلاء فى أعطافهم حين أبصروا فرأوا أوليسين يغادر الميدان متأثراً بجراحه ، وأجامنون يفر بنفسه كأحقر الأجناد ، وديوميد محمولا إلى سفينته كمن يجود بروحه ، وأخاكس العظيم يولى دبره غير متحرِّف لقتال . . فأوقدوا مشاعلهم ، وأجَّجوا نيرانهم ، واعتزموا إضرامها فى أساطيل الأعداء ، ليكفوا طروادة شرورهم ، وليأمنوا آخر الدهر مكرهم ، وليتم نصرهم ..

وهنا ... ... ؟ !

انتفض بتروكلوس الكبير ، صديق أخيل ، وأعز الناس عليه ، وجذوة الحماسة المتأججة فى ضلوع الميرميدون !

لقد نظر بتروكلوس فرأى جموع الهيلانيين تنهزم إلى البحر فتلقى بهتادها فيه ، ثم يسبح منهم من يسبح إلى الأسطول الحزين الذى بدا

عليه كأنه يرثى لرجاله ، ويبكى على أبطاله ، ثم يفرق منهم خلق كثير ، فيبتلعهم اليم .. إلى غير عود .. ونظر فرأى الطرواديين وأحلافهم وعلى رأسهم هكتور الهائل كأنه زوبعة ، يأخذون أبناء هيلاس غير راحمين .. ثم نظر أخيراً فرأى إلى حملة المشاعل والنيران يزحفون إلى السفن فيكونون غير بعيد من السفائن اليونانية ، لو أعملوا منجنيقهم فى قذفها لأصبح الأمر غير الأمر ، ولأتوا على آخر قوة لبنى قومه ، ولباء بنو قومه بالفشل العظيم ! ولعاد الميرميدون كاسفى البال يحملون إلى هيلاس أنباء مصارع إخوانهم ، الذين تخلى عنهم أخيل وجنوده وهم أشد ما يكونون حاجة اليهم ؛ ولكن أخيل لا يرضى أن ينسى الضغينة التى بينه وبين أجاممنون حتى فى هذه الساعة العصيبة ، فينهض لنصرة إخوانه اليونانيين ، وليدفع عنهم هذا البلاء الذى حاق بهم ، وليرد عنهم عادية هذه الكلاب التى تنوشهم وتمزق صفوفهم ..

ورأى پتروكلوس أنه لا سبيل لعودة الميرميدون إلى وطنهم بفرض نجاتهم من نيران الطرواديين ، يجرون أذيال الخيبة ، ويلبسون أكفان الفشل ، فثارت فى قلبه نخوة الجندى الباسل ، واشتعلت فى أضالعه نيران الغيرة من مفاخرات هكتور ومنابذاته التى يملأ بها السهل والجبل ، ثم تفطر قلبه أسى وحسرة على هذه الجموع الهيلانية التى تتدافع إلى البحر ، فكأنها تفر من موت إلى موت ، وتنجو من حِمام إلى حِمام .. فذهب من فوره إلى أخيل ، واقتحم بابه غير مستأذن ، ثم قال :

« أخيل ! » .

« فى هيلاس وغَوْثَها فى كل رَوْع ! »

« يا سليل الآلهة ، المترفع عن الدنايا ! »

« أرأيت ؟ ! . . »

« ماذا تتحدث القرون إذا قيل إن الهيلانيين باءوا بالهزيمة ، فلم ينهض أخيل لنصرتهم ؟ وماذا تحمل إلى هيلاس إذا أُبنا غداً غير أنباء السوء ووقائع تلك النهاية المحزنة ؟ وكيف نلقى الأمهات المعولات على أبنائهن ؟ وماذا نقول للوطن إذا طالبنا بصحيفة الحساب عن هذا اليوم الأسود الذى بدت بوادره ، وأخيل العظيم لايحرك ساكنا ؟ وكيف نتقى نقمة الشعب الذى ندبنا لهذا الأمر إذا خُنّا أمانته ، وبددنا ثقته ، وحطمنا آماله ؟ وأين تذهب الشهرة الطويلة التى أحسب أننا خدعنا بطراوة العيش فيها والأحاديث المعسولة عنها ؟ »

« أخيل ! »

« بل فكر معى إذا تم النصر لهذه الذئاب الوالغة فى دمائنا ، هل يكون بحسبها أن تستأصل شأفة هذا الجيش المنهزم ، وتحرق سفنه ، ثم لا تعتزم غزو هيلاس العزيزة ، لتثأر لهذه السنين السود التى أذقناهم طوالها رَهَقَ الحياة وخباثة العيش » ! .

« ثم أين لوطننا قوة بعد هذه القوى المبعثرة ، وأنّى له جيش بعد هذا الجيش المُراع ، ومن لنا بأسطول يعنو له الموج ، وتذل لعزته البحار ؟ »

« أخيل ! »

« أنظر إلى الميرميدون يكاد يقتلهم الغيظ من على هذه البلادة التى أخمدت سورة الحرب فى نفوسهم ، وأطفأت جذوةَ البطولة فى قلوبهم . .

أنظر اليهم يكادون يقذفون بجموعهم من سفائنك لنصرة إخوانهم، وليلقوا على هكتور درسا فى النزال لا ينساه آخر الحياة ! » .

« مالك لا يحركك هذا اللظى يا أخيل ؟ إن هذا يوم ينسى فيه أمثالك أحقادهم ، ويدفنون سخائمهم ، ولا يبالون ألف متعسّف أفاك مثل أجاممنون ! إن هذا يوم كله للوطن من دون أيام الدهر جميعاً ، فإذاً أفلتت فرصته من أيدينا ، أفلتت عزة الحياة وكرامة العيش من أيدى الهيلانيين جميعا ، ولن يقال فى سبب ذلك إلا أن أخيل العظيم قد تقاعس بجنوده عن نصرة الوطن ، وفى سبيل إشباع شهوة الخصومة قامر بالوطن وأبناء الوطن ومستقبل الوطن ! . »

« إيه يا فتى هيلاس ، وحامى ذمارها إذا اشتد بها الكرب » .
مالك تصمت هكذا كأنك لا تسمع الى ألف قرن تناديك ، وتضع ثقتها فيك ؟ »

« أنا زعيم لك يا فتى هيلاس أن هذه الجحافل الطروادية سترتد على أعقابها فتكون للهيلانيين الكرّة عليهم إذا رأوا خوذتك التى تكسف بلألائها شمس الضحى ، وشاهدوا هذه الشعرات البيض التى تزين ذؤابتها ! » .

« أخيل ! .

رد على أعز الناس عليك ، فالظرف أحرج من المطل ، وأقصر من هذا الصمت . والساعة مفزعة مروعة ، وإخواننا فى الوطن والآلهة يصرخون ويموتون .

« أخيل ! » .

إن كان يعز عليك أن تحنث فى عزمتك التى عزمت ، فأذن لى أن ألبس خوذتك، وأمتشق سيفك ، وأحل فى دروعك السوابغ ، ثم أقود الميرميدون باسمك فأرد عادية القوم ، وأجير إخواننا الهيلانيين ! . .

وكان پتروكلوس يكلم أخيل وكأنما كان وحى السماء يتنزّل على قلب البطل، بلاغةً وحرارةً وقوةَ إيمان وثباتَ يقين . ونفسه تجيش بالحب وأقداس المنى لوطنٍ مصاب فى أبطاله . منقوص فى عزائم بنيه . يتلفت من خلف البحار ، يرى ماذا يصنع أخيل فى هذا الروع ، هو وجنوده الميرميدون .

وهب أخيل من جلسته الخاملة ، وأخذ يدَىْ پتروكلوس فى كلتا يديه . وطبع على جبينة المرتجف قبلةً مهر بها صك التضحية فى سبيل الوطن الشقى . وقال صديقه :

« پتروكلوس ! أخى ! يا أعز جنودى علىّ !

« أما أن أذهب أنا فأرد هذه الذئاب ، فلا . ولكن آذن لك بكل ما أردت من قوة وعتاد ، ما دمت تؤثر صالح الوطن ، وتحرص على حقن دماء الهيلانيين »

پتروكلوس ! لا يدرْ بخلدك يا صديقى الكريم انى أنويت أن أغضب غضبةً لا انتهاء لها ، ولكننى أمرت أن انتظر حكم السماء بينى وبين خصمى الذى لم يتورّع أن يهتك أمر السماء . فيسلبنى ثمرة خلعها ربى علىّ ، وقدمها لى جيش باسره . . هلم يا پتروكلوس فالبس دروعى وأسبغ عليك لأمتى ، وشرّف خوذتى بجبينك ، ولأذهب أنا فأعِدّ لك

الميرميدون ، ولتبرهنوا لناكر الجميل أننا سباب مجده وخير جنده ، وذخيرته كلما حز به كرب . أو ألم به خطب .

« هلم . . . هلم . . . . » .

* * *

وانطلق أخيل فصاح بجنوده ، فهرعوا اليه فى سُفُنه الخمسين ، الراسية بمعزل من سائر الأسطول الهيلانى . . وكم كان رائعا أن يتحرك أسطول أخيل ، فى أحرج ساعة مرت بهذا الجيش المغير ، الذى وقع فريسة كله فى قبضة الطروادين ! لقد كان أجامنون وجنوده ينظرون إلى سفن أخيل ، وكأنها الخلاص من الموت ، الذى يلاحقهم ، والمنايا التى ترقص فوق هاماتهم وهى مع ذاك فيما خُيل لهم تزورّ عنهم . وتشيح عن نجدتهم ، لأنهم لؤموا مع زعيمها ، وأنكروا عليه ما اعترفت به السماء أنه حقه خالصا له .

أقلع أسطول أخيل ، ولكنه لم يقلع ليفر من واجبه ، بل أقلع نحو الشمال ليكون جنده بمأمن ، حين يهبطون إلى الشاطىء من كبسة الصفوف الظافرة ، المشغولة باستئصال شأفة الهيلانيين .

وما هى إلا ساعة حتى رسا شمال طروادة ، وحتى أخذ سيل الميرميدون ينهمر على شاطئها الشاحب فيملؤه ، وكأنهم كِسَف من العذاب أرسله نبتيون ، رب البحار ، من أعماق اليم ليقذف بها فى قلوب الطروادين !

وطفق أخيل يجيّشهم ، فجعل منهم خمسة جحافل كقطع الليل البهيم ، فكان على رأس الجحفل الأول البطل الحلاحل ، والقائد المناضل ، منستيوس بن سپرخيوس ، ابن السماء وصاحب العزة القعساء . . . وعقد

لواء الجحفل الثانى لابن هرمز المقدام ، الفتى يودوروس ، الذى طالما كان جزعا فى فؤاد الردى ، ووجلاً فى قلوب المنايا ! ووضع على رأس الجيش الثالث القائد پيزاندر ، ابن ميالوس ، صفى الآلهة وعصة الأولاب . وأقام على الجيش الرابع صديقه فونيكس ، الذى آثر السماء إلى جانب أخيل حين أقبل مع أوليسين وأجاكس ، يفاوضون فى الصلح من قبل أجامنون ، أما الجيش الخامس فقد عقدت رايته لابن ليرسير ، ألكيدون العظيم ، أخى الغمرات وصاحب الثارات .

أما پتروكلوس ! فقد أقدم يتخايل فوق عربة أخيل ، يجرها جواداه الأشهبان ! إكسانثوس وپليوس ! أعز خيل زفيروس . وأحب دوابه اليه . ولقد كان مظهره الوقور يبعث الروع فى النفوس : فهذى خوذة أخيل تتألق فوق هامته ، والريح العاصف تداعب شعرانها فتجعل منها بركانا يقذف الحُمم . وهذى دروع أخيل سابغة فوق الصدر والفخذين والذراعين ، كأنها لِبَدٌ نبتت فوق حيْد جبل شامخ يناطح السماء برَوْقيه .

وتقدم أخيل فصاحه . ومنحه شرف القيادة العامة ، وخطب الجنود فقال :

« إيه أيها الميرميدون ! هذا يومكم » .

لقد كنتم تنظرون إلى الساحة ، وبكم من الظمأ إلى اقتحامها ما لو أن بعضه بكم الآن لزلزلتم الجبال وخرقتم الأرض ، ولقد كنتم تعذلونى فتقسون علىّ فى أنى احتجزتكم هنا ووقفت فى سبيلكم دون نصرة إخوانكم ، فهاهو الميدان أمامكم فاشفوا صدوركم وأنقذوا أجامنون مما حاق به ، ولا يجرمنكم شأنه ألا تغيثوه ، أغيثوه فنصره عز لكم ، شدّ

الإله أزركم . وباركت الأرباب أسيافكم ، وأحييت مجد الوطن بما أنتم قادمون عليه ، سيروا على بركة زيوس ، وفى حمى حيرا ، وعين مينرفا تكلؤكم » .

وانطلق الميرميدون فانطوت الأرض من تحتهم . ورجف الوادى رجفة أجفل منها السهل والجبـــل ، إذ كانوا ينسابون فلا يربعون على شىء ، ويتدفقون فما تحجزهم لابة (١) . ولا يعوقهم جُرُف . وتسجد من دونهم حُزون الأرض وآكامها .

وانتظم خميسهم (٢) . فبرز القلب تتبعه الميمنة ، تلقاءها الميسرة ، وهرول الجناحان فأخذا السبيل على جحافل الطرواديين .

ونفخ فى البوق فانقض الميرميدون على مؤخرة الأعداء الظافرين ، فبدّلوا نشوة ظفرهم بأنكر من سكرة الموت . وانطفأ فى أبصارهم بريق النصر فكان أغطش من ظلام الهزيمـــة . ونظروا فرأوا تلك الخوذة المذهبة التى طال عهدهم بها ، وحسبوا أنهم أصبحوا بنجوة منها : خوذة أخيل التى كانت تكفى وحدها لإلقاء الرعب فى قلوب الطرواديين . وقذف الوجل فى نفس كل مُنازل أو مُناجز .

وتصايح بعضهم ببعض : « يا للهول ياصاح ! لقد أقبل أخيل ! النجاء النجاء ! أين كان الطاغية ؟ . . . » ثم تنادوا يحذر بعضهم بعضا : « أيها الطرواديون . خذوا حذركم ، الفرار الفرار من الداهية الجبار ! لقد

---

(١) أرض لابة أى كثيرة الحجارة والنؤى .

(٢) أطلق العرب الخميس على الجيش الكبير لأنه يتكون من خمس فرق : الميمنة والميسرة ، والجناحان ، والقلب — فهل كانوا يأخذون هذا النظام عن الإغريق ؟

قطع الميرميدون رجعتنا ! دعوا الهيلانيين وانشدوا خلاصكم ، إلى البوابة العظمى . أيها المقاتلون ! لا تزحموا الجسر ! القهقرى القهقرى . .

« إلى آخر هذه النداءات المزعجة الواجفة . .

ولكن أين يهرب الطروادیون من پتروكلوس ؟

لقد كان إكسانثوس وپليوس — الجوادان الكريمان — زوبعتين مُنْقَضَّتين ، تثيران الرَّهَج وتحقدان العجاجة ، فى جميع أنحاء الميدان : فى القلب ، فى الميسرة ، فى الميمنة ، فى الجناح الأيسر ، فى الجناح الأيمن . بل . . فى السماء !

وكانت الشمس ، شمس طروادة الملتهبة ، تعكس أضواءها على خوذة أخيل ، فتذيب افئدة الطروادیين !

واختلط نظام القوم ، وتدافعت جموعهم مذعورة مولية نحو الجسر الكبير ، الذى نصبوه فوق الخندق حول إليوم . ولم يحتملهم ، فهوى بالألوف المؤلفة فى جوف الخندق ، ولكن المؤخرة ، وكانت غالبية الجيش ، لم تنتبه لما حل بأكثر المقدمة ، وكذلك تدافعت لا تلوى على شىء ، فجعلت من جثث الموتى قنطرة تعبر فوقها إلى طروادة !

وأخذ الميرميدون السبيل على كتائب كثيفة فأبادوها ، ثم جال پتروكلوس جولة هنا وجولة هناك ، يبحث عن أصحاب النداءات المنكرة التى كانت تملأ الساحة شماتة بالهيلانيين ، منذ لحظات ، فلقى منهم برنوس فصرعه ، ثم ثستور فجندله ، ثم إريالوس فأرسل به الى الجحيم ، وعشرات غيرهم من بنى طروادة النُّجُب .

وكانت أعز أمانيه أن يلقى هكتور ، فسعى إليه وضيق الحصار عليه ،

وأرسل إليه طعنة لو أصابت جانب الجبل لصدعته ، ولكن ، يا لهكتور! لقد ريع من هول ما رأى من مقاحمة بتروكلوس ، فألهب جياده الضاريات فعدت به وأنقذته من قتلة محققة وموت مبين .

ولشد ما شُدِه بتروكلوس إذ رأى الى جانبه فتى هيلاس ، ومحاربها الصنديد أجاكس ، يقود فلول الهيلانيين ، ويقتحم بهم الحلبة كرة أخرى ؟! غير مبال بجروحه التى يتدفق من أفواهها الدم صَبَباً .

وكم كان سرور الهيلانيين عظيما حين استيقظوا من سكرة هزيمتهم فرأوا جنود أخيل الأنجاد يذودون عنهم ، ويردون عادية الموت والقتل والغرق عن جموعهم ! ؟

ونشبت ملاحاة بين بتروكلوس قائد الميرميدون ، وسار پيدون (١) البطل الطروادى الكبير ، أدت إلى مبارزة دامية ، وانتهت إلى فجيعة طروادة فى أشجع فتيانها بعد هكتور ! إذ شكه بتروكلوس شكة جرعته غصة الردى ، وأوردته موارد الحمام ! . .

وانكشفت غمة الهيلانيين .

ولكن الميرميدون هم الذين دفعوا ثمن هذا النصر ، ودفعوه غالياً وعزيزاً . يا للهول !

لقد قُتِل بتروكلوس !

فمن لك بعده يا أخيل ؟

---

(١) نأسف أشد الأسف لعدم اتساع هذه الصور لايراد ملاحاة سارپيدون وهى من أروع صور الالياذة (الكتاب السادس عشر) .

مقتل پتروكلوس

قتل سارپيدون ملك ليسيا وقائد فرسانها ، وأشجع مقاتل فى جيش طروادة بعد هكتور ، ووقف پتروكلوس على جثته يصليها سخرية ، وهزوا ناسيا أنه هزأ بابن زيوس سيد الآلهة ، من آثر زوجاته إليه ، أوروبا الجميلة المفتان ، التى وقفت من ذروة جبل إيدا تنظر إلى المعركة الحمراء ، وتشهد مقتل ابنها . . وتبكى !

وتثور ثائرة الأم التعسة ، وتهيب بالإله الأكبر أن يحمى جثة ولدها بعد إذ عجز عن حمايته حيا وبعد إذ عجز عن دفع ماقضت به ربات القدر .

وينظر زيوس فيرى إلى پتروكلوس واطئا بقدمه صدر سارپيدون ، عادة الجاهلية ، ويسمع إليه يقذفه بأشنع عبارات التهكم والاستهزاء ، غير راث لهذه الروح التى تفيض ، أو معتبر جلال الموت الذى تخشع أمامه القلوب ، فيثور الإله ، ويحنق على پتروكلوس ، ويأمر ولده من لاتونا . . أپولو العظيم . . فينطلق من فوره إلى معمعان الحرب ، ويرسل إليه النوم والموت فيحملان جثمان القتيل ، ويدفعان عنه سباع المير ميدون التى تكاثرت حوله تريد لو تسبى سلاحه ، وتستنقذ دروعه .

أما الجثة . فيحملها الإلهان الكريمان إلى ليسيا ، وثمة ، يخلطان بها حنوط الخلود ، ويلفانها فى ثوب سماوى من ثياب الرحمة ، ويجمعان حولها عرائس الفنون تبكيها وتنشد لها أوجع ألحانها ، وأشجى ماتكن موسيقاها

ويبدو لپتروكلوس أن طروادة ، بعد سارپيدون ، لقمة سائغة ، وغنيمة باردة ، فيهتف بالإغريق مرة ، وبالميرميدون مرة أخرى ، أن يقاتلوا نحو أسوارها ، وأن ينتهزوها فرصة تفتح عليهم فيها المدينة الخالدة.

ولا تدرى كيف يستيقظ الطرواديون وأحلافهم من سكرة الروع التى غشيتهم فينكشف لهم أن البطل الذى قتل سارپيدون وعشرات غيره من صناديدهم ، ليس هو أخيل العظيم ، وإن يكن يحمل خوذته ، ويتقنّع فى دروعه ، ويذرع الساحة بعربته . . فتهدأ أعصابهم ، ويثبت جأشهم ؟ ويأخذون فى مناهضة الميرميدون والإغريق جميعا .

ولكن پتروكلوس يهجم غير هياب ، ويجندل من حوله الأبطال المذاويد ، ويقود جنده إلى البوابة الكبرى حيث وقف هكتور ينظر إلى المعركة بعينين مشدوهتين ، ونفس مذهوب بها ، وقلب حيران متصدع . .

ووقفت الآلهة دون البوابة تحمى طروادة الخالدة . .

ذلك أن پتروكلوس كان كلما بلغ ثمة . . وجده وجنده ينسحبون إلى وراء بقوة خافيـــة لا يدرون سرها ولا يعرفون من أين تأتيهم فتتخطفهم ، وتُردى جحافلهم . . وهى قاب قوسين من داخل المدينة . . أو أدنى !

وفى الهجمة الثالثة ، سمع پتروكلوس إلى صوت إلهى يقول :

بتروكلوس ! ليس على يديك تفتح هذه المدينة الخالدة ! بل هى لن تفتح على أخيل العظيم الذى هو أقوى منك ، ومن عشرة من أمثالك ! عد من حيث جئت ، واحذر ، أن تكون آخر تك اليوم ، فى هذ الميدان المضرج بدماء ضحاياك » .

وتلفت بتروكلوس فرأى الهاتف هو إله الشمس ، أبوللو . أبوللو بهيئه ، رب طروادة العظيم ، واقفاً فوق برجها الباذخ يقلب قوسه فى يديه الجبارتين ، مرسلا فى عساكر الميرميدون والجنود الهيلانيين ، نظرات تقدح الشرر ، وتورى نيران الكيد والجبروت !

واقشعر جسم بتروكلوس ، وأيقن أن أبوللو هو الذى رفع جثمان ساربيدون من مكانه من المعمعة ، وأنه أقبل ليلعب دوره ضد الميرميدون وضد الإغريق ، وضد بتروكلوس قبل كل شىء !

ولكن بتروكلوس محارب ، وقلب المحارب العظيم لا يعرف الجبن ، ولا يتلجلج لقصف المنايا فى المعركة ، فكيف به يخفق فرقاً إذا رأى الآلهة نفسها تحارب فى صفوف الأعداء .

أقبل يا بتروكلوس وأقدم ، ولا يهولنك أبوللو ، وألف ألف أبوللو ، ما دام أن العمر واحد ، والساعة آتية ، ولن يفلت أحد مما قدر له !

* * *

وبهت الجمان المقتتلان حول جثمان ساربيدون حين رأوا إليه يرتفع فى الهواء ، ثم يتهادى إلى جهة ليسيا ، موطنه الذى يبكى عليه ، فعلموا أن السماء تعمل !

وأحس الليسيّون هذا الفراغ المفزع الذى خلفه ملكهم المقتول فيهم ، فذهب رئيسهم المغوار « جلوكوز » نائب الملك وخير وجوه ليسيا ، إلى حيث وقف هكتور ينظر إلى المعمعة قريباً من البوابة الكبرى ، فوقف تلقاءه محطم القلب ، دامع العين ، موهون القوى ، وقال : « يقف هنا بطل طروادة العظيم ، ويدع أحلافه البواسل يجودون بأرواحهم من

أجل اليوم ، ويسيلون نفوسهم على ظبى الرقاق البيض التى يرهفها فى وجوههم أعداؤكم ! ولأى شىء ؟ لأنكم استجرتم بنا فأجرناكم وأسرعنا إليكم نفتديكم بالمهج الغالية والدماء الزكية ! هكتور ، لقد قتل ساربيدون فهل علمت ! هل علمت هذه النفوس التى يمضها الأسى ، والعيون التى تقرحها الدموع ، ويعصف بها الدم ؟ فيم وقوفك هكذا ترمق الساحة وقد رأيت من فتك الميرميدون بنا ما رأيت . هل فكرت فى حماية مولانا الملك ، أو على الأقل صيانة جثمانه العزيز ؟ لقد سبوا دروعة وسلاحه ، فأى عار يصمنا فى طويل الأحقاب والآباد ؟ يالثأرنا . . يالثأرنا . . ! » .

ولم ينبس هكتور !

ولكنه شاهد الميرميدون يعيدون الكرة بعد الكرة على الطروادين ، فينالون منهم ويمزقون صفوفهم ، وشاهد البطل الإغريقى المشهور إيجيوس ، يصول بين الجيشين ويجول ، ويجندل الأبطال ويبيد لهما ميم الرجال فأخذ هكتور حجراً كبيراً وانتمز غرة من إيجيوس ، وقذف بالحجر فوق رأسه فشجه ، وبرز المخ ، وتدفق الدم ، وتردى البطل فوق الجدور حتى استقر فى بسيط الساحة !

واستشاط بتروكلوس غضبا ، وودّ لو كان قريبا من هكتور فيضغط على عنقه ضغطة تذهب به إلى الجحيم ! ولكنه لم يستطع إلا أن يثأر للقتيل بمثل ما صنع هكتور ، فقد تناول جلموداً كبيراً ، وقذف به ستينلاس الهائل ، أشجع شجعان طروادة الأحياء ، فأطاح جمجمته ، وهوى الجلمود على مفرش جواده فقتله ، بين عجب الطروادين وشدة تحيرهم .

ولكن جلوكوز — رئيس الليسيين — يرى إلى ذلك فيتسخط ، وينقض على البطل الميلانى الكبير پاتيسلاس ، فيشكه برمحه شكة تذهب به وتتركه يتشحّط فى دمه . وتستعر المعركة . .

* * *

أما أپوللو ، فيفيظه من هكتور هذا الجود الذى استولى عليه ، وذلك الموقف الجبان الذى يحول بينه وبين الميدان ، وفى الحق ، لقد كان هكتور ينظر الى شياطين الميرميدون ولا يصدق أنهم مقاتلة من البشر ، بل وقر فى قلبه أنهم زبانية من جحيم پلوتو سلطتهم المقادير على الطروادين يسومونهم الخسف وسوء العذاب .

وتنكر أپوللو ، فبدا فى زى محارب فى عنفوان الشباب ، ثم أجرى فى عروقه من دماء بنى الموتى ، وغضّن قليلا من جبينه ، وسوى من ساعديه ، ونشر فوق عدته من ثرى المعمعة ، ولوّح وجهه بملامح (أسيوس) العظيم ، أخى هكيوبا . وخال هكتور . وسار قُدُما الى حيث وقف فى طروادة المسحور بروع الساحة الوجاء :

« هكتور ! فيم احجامك عن لقاء الأعداء يا بنى ؟ هلم . هلم ! فسوء أرباب الألمب لو كان لى شبابك وعنفوانك ، لصاولت هؤلاء الميرميدون الألداء . ولأخليت منهم تلك الحومة التى ملأتها هلعا . أقدم يا هكتور ولا تحجم هكذا ، إلق پتروكاوس فقد تصرعه ، وإنك لصارعه ، وإنك لعاقد اكليلا من المجد فوق رأسك لا يذبل أبد الدهر ، وحسبك أن أپوللو صاحبك وحاميك ومسدد خطاك . ومضاعف بتاييده ضرباتك ! هلم ، هلم ،

وعش عزيزاً يا هكتور ، أو مت كريما يا بنى ، بين طعن القنا وخفق البنود ! » .

وانفتل أپوللو فانخرط فى صفوف المقاتلين ، وطفق يصرّع أبطال الهيلانيين ليضرب المثل لهكتور . وليشحذ من همته الخابية ، وليوقظ شبابه النائم .

فلما رأى هكتور جلائل هذه الفعال التى أبداها خاله — وما هو بخاله — انكشفت عنه هذه الغمة التى غمرته . وأمر سيريونيس ، سائق عربته . أن ينطلق به الى الحومة . فانطلق السائق المسكين نحو پتروكلوس . حتى إذا كان على مقربة من شباة رمحه ، ترك صاحبه وجها لوجه معه . وكان السائق من مغاوير أبطال طروادة ، فأخذ يناوش پتروكلوس ، هو الآخر ، فما كان من قائد الميرميدون العظيم الا أن قذفه بحجر هشم رأسه . وصدع فقاره ، وطار بروحه الى هيدز .

واقشعر هكتور من هول الضربة ، وعز عليه أن يودى سيريونيس وهو بين يدى مولاه ، فلا يجد له حاميا . ولكن الطرواديين تكبكبوا حول القتيل ، يذودون الهيلانيين الذين كان كل همهم أن يفوزوا بجثته ، ليحتفظوا بها أثرا حربيا خالدا .

واشتد صيال القوم حول جثمان السائق ، وصخبت زوبعة القتال فوقه واشترك هكتور وپتروكلوس مع أجنادهما ، فكان جماعة يشدون القتيل من قدميه ، بينما جماعة أخرى تشده من الرأس ، وهم يعفرونه فيما بين هذا وذاك بالتراب ، ويلطخونه بالدم !

ووجد أپوللو ، فرصته !

أپوللو الخائن . أپوللو سيد الشمس الذى لا يستحى ! أپوللو الإله الذى يفرق أن يلقى بتروكلوس وجها لوجه . فيأتيه من الظهر . كالجبن الجبناء !

يا للآلهة ! ومسكين يا بتروكلوس !

لقد تقدم أپوللو . مستجمعا كل قوته فى قبضة يمينه الجبارة فاهوى على قفا بتروكلوس بضربة خائنة كضربات اللصوص . حين ينسلون تحت أستار الليل . فاطار صواب البطل . وأوقع الخوذة الأخيلية الهائلة . وغودر الرأس العظيم مكشوفا فى متناول كل طعنة وكل سنان .

ولم يدع هكتور فرصته تمضى . بل سرعان ما ابصر بتروكلوس يتلفت ليرى صافعه . حتى أرسل رمحه الرعديد الخائر الى الرأس العارى فأقصده .

وسقط بتروكلوس المسكين . . مضرجا بدمه .

ووقف هكتور يتشدق . ويفاخر تلك المفاخرة الكاذبة :

« بتروكلوس . أرأيت ؟ لقد انتهيت . ولقد طاحت آمالك وذهبت أمانيك فوق هذه الساحة أباديد ! بتروكلوس . أكنت تحلم بأن تفتح طروادة عليك . فتسوق بيضَ خدورها إماء بين يديك الى بلادك . وتقرّ عن الأصفاد أبطالها البهاليل ؟ أيها التعس . لقد ترديت من عربة أخيل التى لم تكن يوما أهلا لها . وبعد قليل تنوشك سباع الطير وتفادرك فوق ثرى طروادة جيفة منتنة تنوشها السباع .

بتروكلوس : يا أتعس قتيل فى هذه الساحة الحمراء .

كم كنت تحدث نفسك أن لو كان هكتور . هكتور العظيم ،

قاتلك ، وسافح دمك ، هو الذى ينام تلك النومة الساعة بين يديك !

وكم كنت تمنى نفسك أن لو عدت بعدة هكتور وعتاده إلى مولاك ، إلى أخيل الذى أرسلك إلى الحومة ، ولم يجازف بنفسه فيها ، وهو يعلم أن أسدها الهصور لا بد قاتله ، فافتدى نفسه بك ، وضحاك فى سبيل خلاصه ، من هذه الصرعة التى زلزلتك !

پتروكلوس !

أهكذا قد غرر بك أخيل ، فأطلقك إلى حيث تلقى حتفك ، وتسبح فى دمك ، وتغص بآلامك ، وإنه ليسبح الآن فى شهواته ويقارف لذاته ، ولا يدرى مصيرك المحزن ، ولا يعرف ما حل بك من موت زؤام ! ..»

وكان پتروكلوس العظيم يجود بروحه ، ويسمع إلى هذا الهذر ، ويبكى ! فلما انتهى هكتور تأوه القتيل آهة عميقة ، ثم قال :

هكتور !

حق لك أن تفتخر الآن !

أما قبل هذه اللحظة فقد كنت تبحث عن قلبك الرعديد فلا تجده ، لأنه طاش من شدة ما عاينت من ضربات الميرميدون !

على أنك لو كنت رجلاً ، لآثرت أن تدفن وجهك فى الرغام ، دون أن تفخر بنصر ليس لك فى أقله يدان !

لست أنت الذى رميت يا هكتور ، بل هو سيد الأوانب ، وولده

أپوللو ، هما اللذان رميا ، وهما اللذان كتبا هذا القضاء ، وأبرما هذا القدر !
وإلا ، فوأرباب هيلاس ، لو صاولت عشرين كلباً مثلك ، لما أفلت منهم أحد أبداً ؛ ولأرسلت أرواحهم الخبيثة تتردى فى نار جهنم !

أجل هو الذى أعجلنى ياهكتور ، وأپوللو هو الذى فتك بى تلك الفتكة البكر ، أما أنت ، فلم تصنع شيئاً ، أكثر من أن رميت رمية الجبان !

على أنى أقولها لك قولة غير كاذبة .

إنك ستشرب بالكأس التى شرب بها پتروكلوس ، ولن تبسم لك الدنيا أكثر مما فعلت ، فانتظر ، فسيأتيك عذاب يشقيك ، وسينتفض أخيل العظيم حين يأتى إليه نبأ مصرعى ، فيهرع إلى هذه الساحة ، والويل لك من رمحه الظامئ إلى دمك ! » .

وكانت هذه المقالة قد أجهدته ، فسكت قليلاً ، ثم أغمض عينيه إغماضة متعبة ، وفتحهما فجأة ، ونظر إلى جنوده ، وقال :

« ميرميدون !
وداعا ... سلامى ... إلى ... أخيل ! » .

* * *

وفاض الروح الكبير ، وسكنت الساحة الحزينة كلها ... كأنها تبكى ... !

وكأنما هزت كلمات پتروكلوس فؤاد هكتور ، وكأنما خشع بطل طروادة لجلال الموت ، فصمت طويلاً ... وقال ، مخاطباً القتيل :

« پتروكلوس !

من يدرى إذا كان أخيل هو الذى يقتلنى ، أو كنت أنا الذى أقتل أخيل !

هذه آجال يا أخى ... فالسلام عليك ! »

* * *

ولم يتورع هكتور أن ينزع حربته من رأس البطل ، ولم يتورع كذلك أن يأمر فينزع رجاله عدة أخيل . . .

تذكارا حربيا !

وعتادا مؤقتا !

obeikandl.com

أخيل يبكي پتروكلوس

قتل پتروكلوس !

وانقلب هذا النصر المؤزّر إلى ذهول استولى على أفئدة الميرميدون ، صيرته الصدمة الهائلة أشبه شيء بالهزيمة المؤكدة !

وبينما كانت أبصارهم زائغة تنظر إلى ما حل بمولاهم ، وبينما كانوا ينظرون إلى أشباح المنايا ترف فوق الساحة ، وتُدَوِّم على رؤوسهم ، تكاد تخطفهم ، كان هكتور وملؤه ينزعون عدة أخيل ، دون أن يلقوا أقل معارضة ! . . .

ثم أفاق الميرميدون على صيحة من منلوس العظيم الذي اقتحم الحلبة نحو زعيمهم قدما . وناضل وحده عن الجثمان العزيز ، الذي كان هكتور يمني نفسه بحمله إلى طروادة ليجعله معرضا هنالك ، يشهد له بالشجاعة المفتصبة ، والجراءة المزوّرة ، والبطولة التي لم يكن لها بأهل ؛ ثم ينبذه بعدها بالعراء تقنوشه الطير ، وتفتذي بلحمه المر سباع طروادة وكلابها !.

وانقض الميرميدون يذودون عن الجثة مع منلوس ، ولكنه انقضاض المهموم المحزون ، وهجمة المرزّأ المكدود ، فلم تكن ضرباتهم الواهية تخيف الطرواديين بعد إذ أنقذوا من پتروكلوس الداهية ، ولم تكن صيحاتهم الوانية تهز بضعة في قلوب أعدائهم الذين أصبحت لهم الكرة عليهم .

واستطاع منلوس ، بعد لأي شديد وجهد . أن يحمل الجثة ، يساعده مريونيس الكبير ، وأن يقتحما بها المعترك المصطخب إلى الصفوف الخلفية ، يحمي ظهورهما أخاكس وجنوده .

وذعر قادة الهيلانيين حين رأوا شدة هجمات الطرواديين بعد مقتل پتروكلوس، وحين نظروا فوجدوا الميرميدون ينشغلون عن المعركة بالبكاء على مولاهم ، والرثاء لما حل بهم من بعده ، والفزع الأكبر للقاء أخيل... لا يتقدمهم إليه قائدهم ...

ولجأ منلوس إلى الحيلة ، وفكر من فوره فى إثارة النخوة فى قلب أخيل ، عسى أن يقدم فيقود أجناده ، ويتم النصر للهيلانيين ، فأرسل إليه أنتيلوخوس يحمل النبأ العظيم ، ويزلزل من تحته الأرض حين يقص عليه ما لفظ به هكتور .

ولو قد علم أنتيلوخوس ما يثيره هذا النعى فى قلب أخيل ، ما آثر أن ينفذ إليه به ! فلقد صرخ ابن ذيتيس صرخة اضطرب لها البحر ، وماد الشاطىء ، وتجاوبت لها جنبات الجبال ، ثم بكى فاربدّ أديم السماء واعتكر واحتلك الضحى وبسر ، وشاعت فى العالم ظلمة أشد من ظلمة القبور !

« پتروكلوس ! ... ... »

أفى الحق ياأعز الأصدقاء أنك أوديت ! واحربا ! أإذا لقيتك الآن فأنت ما تحرك شفتيك لتكلمنى ، وما تفتح عينيك لترى إلى أخيل ؟ ! ألاينبض قلبك بعد اليوم يابتروكلوس ، حتى ولا بحى ؟ ! ..

أإلى حتفك كنت تستأذننى إذن ؟ ...

ويلى عليك يا بتروكلوس ! ويلى عليك يا أعز الأحباب .. »

ولم ينطق ، فطفق يحثو التراب على رأسه ، ويشد شعره ، فيكاد ينزعه ، ويرسل فى السماء وفى الأرض والبحر صرخاته المدويات.

وانتفض الموج ، وفار الماء ؛ وكأنما اتصل قلب أخيل باليم فاضطرب بما فيه من وجد ، واصطخب بما يؤوده من كمد ، وشاعت فيه أشجانه وأحزانه ، حتى وصلت إلى الأعماق ... حيث تاوى ذيتيس إلى زوجها ، رب البحار السفلية ، فشعرت الأم المحزونة بما ينتاب ولدها فى أسطوله الراسى على هامش طروادة ، وأحست بما يأخذه من ألم ، ويمزق حشاه من عناء ؛ فصرخت ثمة صرخةً اجتمع لها كل عرائس البحر ، وعذارى الماء ، من حوريات نريوس (١) ، وأخذن يلطمن خدودهن الوردية تحت الثبج ، ويذرين من نرجس عيونهن فيضاً من الدمع الدرى ، ثم انتظمن صفوفا صفوفا ، ورحن يتهادين وراء ذيتيس ، مرسلات فى الأعماق أناشيد الحزن ، طاويات ذلك الرحب الذى يفصل بين مملكةً مولاهن ، وبين شطئان إليوم ؛ حتى إذا كُنَّ عند الأسطول الهيلانى طفون فوق الماء ، فانقلبت اللجة بجمعهن جنة ، وارتد البحر بسربهن فردوس نعيم !

وبرزت ذيتيس فسرقت سفينة ابنها أخيل الباكى الآنَّ الحزين ، وتقدمت فضمته إلى صدرها الحنون ، وجعلت تهوِّن عليه أمر صاحبه ، وتصرفه عن هذه الحرب التى يفرق من هولها قلبها الخفَّاق أشد الفرَق ، لما تعلمه منذ قديم من القِتلة التى تخترم ولدها تحت أسوار طروادة ، كما أنبأتها بها ساحرات الماء . .

وأنَّ أخيل أنَّةً شديدة ، وقال لأمه : « أماه ! هكذا قدر لنا أن نلقى ما حتمه القضاء علينا ، وهكذا شاء سيد الأولمب الكبير المتعال ، ولكن

---

(١) النريد هن بنات نريوس أحد أرباب الماء ومنهن طائفة كبيرة تخدم ذيتيس ، أم أخيل .

خبرينى بربك ما قيمة هذه الحياة ما لم يعد بتروكلوس يُنضِّرها ويزين حواشيها ،وما دام أعز أحبابى وأودّ ائى ملق فوق هذه الساحة النكراء ، ذبيحاً بين أشق الخصوم الألداء !

آه يا بتروكلوس ! لقد شفى هكتور غُلّة قلبه حين سفك دمك غادراً ، وحين انتزع عدتك غادراً ، وحين يفاخر بكل أولئك غادراً !

وهذه العدة يا أماه ! أيلبسها هذا الشقى وهى هدية الآلهة إلى بليوس ، أبى ، رب الأعماق ، وهدية من أبى إلىّ ! !

أبداً لن أعود معك إلى حيث العار الأبدى ينتظرنى ، ما لم أثأر لأوفى أحبّائى بتروكلوس ، من هذا النذل . هكتور ، وما لم أرو هذه الصعدة الظامئة من دمه النجس ، وأقذف فى وجهه بمفاخرته الكاذبة وإهاناته للقتيل الكريم ...

لا . لا . لا تتحدثى إلىّ عن أوبة تصمنا بالذل إلى الأبد يا أماه ، وإنى لأقسم بالسماء ومن فوقها ، لن أبرح الأرض حتى ينفذ هذا السنان فى صدر هكتور ! » .

وصمتت ذيتيس قليلاً ، ثم لم تطق أن تخفى ما تخشاه على ولدها من ذلك القضاء المحتوم . فأخبرته بما تحدثت به العرافات عام وُلد ، وما تخافه من أمر هذه النهاية المحزنة ، والفجيعة التى لا تكون مثلها فجيعة .

ولكن أخيل يبتسم ابتسامة محزونة ، ويتحدث إلى أمه عن المجد الخالد الذى سيحمله اسمه آخر الدهر : « واستبشار الهيلانيين بعودتى لمناصرتهم ، ووضوح الحق وجلائه لأجامنون أنى روح الجيش وحماسة الجند ، والقوة المذخورة لبحر الطرواديين ! صه يا أماه ! فلن تزعجنى

مخاوفك ، ولن تلقى فى روعى أقل الجزع . . . لأنه إن كان حقا ما تحدثن إليك به ، فأين يهرب أحدنا من القضاء ! ؟ ! » .

وبهتت الأم مما صمم عليه ولدها ؛ ولما أيقنت ألا سبيل لها إلى قلبه الجرىء ، بدا لها أن تعاهده على ألا تخوض الكريهة حتى تعود إليه من عند ڤلكان ، الإله الحداد ، الذى ستذهب هى إليه تكلفه بعمل درع وخوذة تحملهما إليه ، ليحميه فى يوم الروع ! وعاهدها أخيل .

وأمرت ذيتيس عذارى الماء فائتين إلى مملكة پليوس ، يحملن إليه أنباء ولده . أما هى ، فانطلقت إلى ڤلكان ... هناك ... هناك فوق ذروة جبل إطنة ، حيث وجدته ينفخ فى لظى كيره الضخم . . . يصنع الدروع والعُدد . . . .

ولقيها الإله الحداد بالترحاب ، وشرع من فوره يصنع عدة لم تر العين مثلها ، ولم يفكر أن يصنع مثلها حتى للآلهة ! . . . « وكيف لا ، وأخيل الحبيب سيدّرع بها فتحميه من أوشاب الطروادیين ، وأوغاد هذا الأخ اللئيم مارس ، الذى تعلمين مما كان من أمره مع ڤينوس ما تعلمين . لقد فضحنى السافل فضحته المقادير ... [1] » .

ولكن الساحة كانت تضطرب ، وجموع الطروادیين تأخذ الهيلانيين من كل فج ، وكانت حيرا ، مليكة الأولمب ، تطلع من عليائها فتأخذها الرهبة لما يحيق بعبادها من تصريع وتقتيل ؛ وكانت مينرڤا كذلك تهلع عليهم هلعاً شديداً . . .

---

(١) نشرنا هذه الأسطورة التى يقصدها هومبروس فى كتاب أساطير الحب والجمال عند الأغريق فليرجع إليها القارىء ثمة .

وتشاور الربّتان ، واتفقتا على أن تُنفذا إيرليس إلى أخيل ، تأمرانه أمه يخوض الكريهة فى جانب الهيلانيين . ولكنه قص على الرسول ماعاهد أمه عليه فعاد الرسول إلى الأولمب يحمل نبأ هذه المعاهدة . .

بيد أن حيرا أشارت على مينرڤا أن تنفذ الرسول إلى أخيل يحمل اليه درعها ، وكان لمينرڤا درع اسمها إيجيس لم يَصْنع مثلَها لأحد من قبل ڤلكان ، وأن يَنْهى اليه أنهما تأمرانه بالتوجه إلى الساحة فيطلع عليها ليراه الطروادیون ، فإنه يحسبهم أن يروه فيولوا الأدبار !

وانطلق إيرليس برسالته إلى أخيل ؛ فاهتز البطل من نشوة الطرب ، وشاعت الكبرياء فى أعطافه لأنه سينال شرفا لم ينله أحد من قبل ، وذلك بأنه سيدّرع بقميص مينرڤا ، المسرودة من حديد !

وعنـــد ما نهض ليلبس الدرع رأى مينرڤا نفسها تساعده بيديها الطاهرتين النقيتين كالبلور وتضع فوق جبينه إكليلاً وضاءً من الذهب ، ثم تقوده إلى الساحة !

وهناك وقف أخيل العظيم فوق ربوة عالية تشرف على الساحة كلها ، ثم أرسل فى الآفاق صيحة مُدَوِّية ، كانت تنفخ فيها مينرڤا فتزيدها قوة وعنفواناً ، فزلزل قلوب الطروادیين وجعلها تدق فى صـــدور ذويها كالنواقيس !

وما كاد الأعداء يستيقنون أن الصيحة صيحة أخيل ، وما كادوا ينظرون إلى هذه الآراد المنشّرة فوق رأسه ، والأضواء المتلألئة من إكليله ، حتى سقط فى أيديهم ، وارتعدت فرائصهم ، وولوا على أعقابهم مدبرين ! وكانت خيولهم المذعورة تولى هى الأخرى فتطأ الفرسان هنا

وهناك ، وتسقط فى الخنادق المحيطة بطروادة ، فتلقى فيها حتفها بمن عليها !

وتوارت الشمس بالحجاب . .

فتحاجز الجمعان وذهب كل ليستريح من هذا اليوم العصيب .

وكانت صيحة أخيـــل أكبر عون لملوس وزميله فى الإسراع بجثة پتروكلوس إلى مؤخرة الجيش ، حيث الأمان والاطمئنان ؛ فلما عاد أخيل كانت جثة صديقه أول ما وقع بصره عليه ... فبكى ... وبكى ... واجتمع حوله الميرميدون يبكون .

ثم رثاه بكلمة دامعة ، ترجمت عن نفس مكلومة ؛ وأمر فأوقدت نار كبيرة وضع عليها دست ماء كبير ؛ وأخذوا جميعاً فى غسل الجثة المعفرة بالتراب ، ودهنها بالطيوب ثم تحنيطها بالأفاويه والبهار والقرنفل ، ولفوها فى مدارج طويلة من الحبر الغاليات البيض .

* * *

واجتمع قادة الطرواديين يتشاورون فى هدأة من الليل نخطب بعضهم(١) ناصحاً بوجوب التحرز داخل الأسوار فى غد ، مخافة أن يبطش بهم أخيل وشياطينه ، لاسيما وهم سيخوضون الوغى بقلوب جرحها مصرع پتروكلوس وهم لا بد مثئرون له ، مهما كلفهم الإثئار له من أرواح ودماء !

ولكن هكتور أبى إلا أن يخرج للقوم ، وكأن قتله پتروكلوس

---

(١) يوليداماس

غيلة قد خدعه عن شجاعة أخيل ، وما قدر له مما سيلقاه من بطش أخيل .. وهل غد بعيد ! ؟

* * *

وفى هذه اللحظة أيضاً ، كان زيوس يتحدث إلى حيرا حديث الذى اُظفِر بأعدائه وكأنما أطرب الإله الأكبر أن أخيل يعود إلى المعركة بعد أن أُديل له من الهيلانيين ومن الطرواديين على السواء .

وكانت حيرا تسمع اليه وهى تطفر فرحا ! كيف لا ؟ وهذا أخيل يعود إلى أعدائها فى الغد ، فيصليهم عذاباً . ويجرعهم غصصا ما ذاقوا منذ ترك الحلبة أمثالها ! ؟ ولتحزن ثينوس ! وليحل غضب السماء على پاريس ، ولتذهب التفاحة المشئومة إلى الجحيم .

* * *

وأشرقت شمس الغد .

ولاحت ذيتيس تتهادى فوق الزبد فى الأفق الغربى ، تحمل الدرع التى لم يصنع مثلها فلكان .

حتى ولا للآلهة أنفسهم !

والويل لك يا هكتور !

صلح

أشرقت الشمس أو كادت ، وبدت ذيتيس تتهادى فى الأفق الغربى فوق الثبج ، وهرعت عرائس الماء وعذارى البحر تحييها وتنشد لها ألحان الفجر ، طلّها الندى . . .

وكانت تتأوّد تحت حملها الثقيل ، فما إن بلغت سفينة أخيل حتى ألقت بالدرع المسرودة ، وحتى هب ولدها يحييها بعين شكرى ، وبهجة حرّى ، وقلبٍ مُوجع حزين .

وكان لا يزال جالساً أمام جثة پتروكلوس يبكيها ، ويكلم فيها الإخاء والوفاء ، ويناجى فى لفائفها الود والولاء ، وكان مايزداد إلا لوعة ، وكان ما يزداد إلا أنينا !

وحنت عليه أمه تواسيه ، ثم لفتته إلى الدرع والخوذة ، فحدجهما بنظرة قاتمة . وشكرلها هدية فلكان ، ثم أوصاها بالجثة خير مايوصى به الصديق . . . « ذودى الذباب فلا يمسها يا أماه ، وادفعى عنها أذى أسرابه ، واسقيها من المعتقة الصفراء ، حتى تأذن الآلهة فأعود إلى پتروكلوس بثأره ... » .

وانطلق فى غبشة الصبح يطوف بمعسكر الهيلانيين ، داعيا إلى مجلس حربى .

وكان يهتف بالجند النائم هُتافا عالياً ، فينتفض المقاتلون وقد خفقت قلوبهم ، واهتزت جوانحهم ، وفاضت عبراتهم من الفرح للقاء أخيل !

وكان أجمل ذلك جميعاً أن ينهض أوليسين متهالكا على نفسه، وديوميد منحنياً فى عطفه ، ونسطور مرتجفاً كأنه فى يوم حشر ... و... وأجامنون كأن الحياء والخجل يصبغانه بحمرة الجحيم ! ..

لقد كانت جروح القادة أنطق برهان على ما جرّت تلك الخصومة الوضيعة بين أجامنون وأخيل من هزيمة للجيش ، وضياع للجهود ، وعبث بآمال أمة ترقب أبناءها من وراء البحار !

وانتظم عقد القادة ، ووقف أخيل يتكلم ، فأرهفت الآذان ، وصفت القلوب ، وتحركت الألسن تبحث عن بلل من الريق تبلله :

« إبن أتريوس العظيم ! .

« أخى فى الوطن !

« يا أمير هذه الجيوش الفازية !

أرأيت ؟ ! أى جدوى عادت علىّ أو عليك من هذه القطيعة التى أججت نارها ، واندلع بينى وبينك أوارها ، وأى غنم أفدت من شحناء لم تكن تخلق بعظيم ، بل سليل آلهة عظماء ؟ !

ألا ليتها أودت تلك الفتاة التى أثارت كل تلك العداوة ، وأغرت جميع تلك البغضاء بيننا ! إى وأرباب الأولمب ، ليتها أودت يوم غنمناها من مدينة ليرناسوس ، حتى لا تفرح طروادة بما تم لها من نصر ، وما حاق بجحافلنا من خذلان ، لم يكن شىء منه يقع لولا ما أثارته بريسين بيننا !

ولكن لا ! فالفتاة نقية وطاهرة وبريئة ، لأنها لا تزر وازرة وزر أخرى ؛ ولكننا ، معشر الهيلانيين ، ينبغى أن نذكر أبداً أن لنا ثأرا

عند هؤلاء الطرواديين ، لا محيص لهم من أن نأخذهم به ، وأن نطلبه عندهم ، فلا نرتد عنهم حتى يُدال لنا منهم ، وتكون لنا الكرة عليهم حين يظفرنا اتحادنا بهم . .

لنكبح جماح أنفسنا إذن ! وليطفىء كل منا غيظه فى سبيل هيلاس ، ولتندمل تلك الجراح التى تنكأ قلوبنا فتكاد تقضى على آمال أمة ، وتطيح بأمانى وطن !

أجاممنون ! ابن أتريوس العظيم !

تلك يدى أضعها فى يدك ، عهدا مخفورا وذمةً وفيـــةً ، ألا ندع أهواءنا تهدم ما صبت إليه نفوسنا من قبل ، وأن نكون من الساعة يدا على عدونا ، وإلبا واحدا ... ...

والويل بعدها لمن يجرؤ من جند طروادة أن يتصدى لنا ، أو يجازف بنفسه أمامنا ... ... هذا رمحى ! وتلك قناتى ! ويا طالما قد ظمئت إلى الدماء ... ... ! »

وتدفقت الدماء فى عروق القادة ، وشعروا كأن السماء ترفعهم إليها فتطهرهم وتزكيهم ، وتعود بهم لترى قوما آخرين ! .

ونهض أجاممنون من مكانه ، ولم يستطع أن يتقدم إلى مكان الخطابة ، فقال : « أيها الأصدقاء ! يا أبطال هيلاس ! يا وزراء مارس !

لست أدرى ما أقول ردًّا على أخيـل العظيم ، بيد أننى سأفتح له قلبى ، وأكشف لكم أمامه عن سريرتى ، وســيد الأولمب على ما أقول وكيل !

أبدا والله ما كنت سبب هذه المأساة التى أغرت بيننا العداوة ،

وأجبجت نيران هذه البغضاء ! وأبدا والله ما آثرت أن يكون بيننا ، ونحن في هذا الأمر ما نحن ، شيء من تلك القطيعة التي دفعنا ثمنها غاليا : أرواحا مطهرة ، ودما زكيا ، وشبابا أنضر الشباب ! !

ابدا والله ما آثرت من ذلك شيئا قط ، ولكنها المقادير ، ومشيئة سيد الأولمب ، وهذه الربات الغالبات « أرينيس (١) » اللاتي تحالفن عليّ فغشّين بصيرتي ، وأذهلنني عن نفسي ، فأتيت ما أتيت على غير وعي مني ، ولا هدى ولا برهان مبين ! ...

ولقد ثاب إليّ رشدي ، وارتفع الحجاب عن بصيرتي ، ساعة إذ أبصرت هكتور يأخذ جموعنا فيحصرهم بينه وبين البحر ، كأشد ما يكون حصار بين موتين ! عندها ، ذكرت أخيل ! وذكرت انني آثم في حق أخيل . وان اخيل لو كان في هذه الحلبة لما ملك هكتور رشاده ، وما ملكت رجلاه أن تحملاه ! فزاغت عيناي ، واستبنت ضلالي ، واستغفرت الآلهة من اجل آثامي !

أخيل :

ما أعظمك حين نسيت غضبتك ، وسعيت إلى خصمك ، ومددت إليّ يمينك من أجل الوطن ! مرحبا بك يا أخي ؟ ومرحبا بصلح يغسل الضغن ، ويذهب بالجفوة ، ويرأب ما انصدع من شملنا جميعا !

على أني أرى أن أمهر صلحي وأؤكد محبتي ، باللهبات الغالية ، والهدايا العالية ، وبكل مذخور ثمين ، فهلم يا ابن بليوس هلم ، هيء الصفوف

---

(١) ربات ثلاث من زبانية بلوتو رب الدار الآخرة (هيدز) في هيئة السعلاة ، ولهن مكان الشعر ثعابين تتلوى فوق رؤوسهن يمزقن أجسام المجرمين من الموتى ويذقنهم سوء العذاب .

وجيش الفرق ، حتى أعود إليك بتذكارات ... »

وأبى أخيل أن ينهو أحد فى تلك الساعة ، أو يشتغل إلا بالحرب . والاستعداد ليوم الفصل ، فشكر أجامنون ، ورجاه أن يلبث معه حتى يأخذ كل عدته ، ولكن أوليسيز الجريح يتدخل ، ويرجو أن ينطلق أجامنون ويأتى بالعطايا واللهى ، ... وبالقادة الفتان ، بريسيز . فتنة الفتن ، ونادرة الجمال ، نقية كما هى . أخيلية كما فصلت من خدر مولاها يوم الخصام الأكبر . « وأنا أقسم لأخى على ذلك ويقسم عليه ويؤكده أجامنون » .

ويقسم عليه ويؤكده أجامنون ، ويقبل اقسامه بالدمع السخين ، ثم يأمر خادمه (تلثيبوس) فينطلق إلى حيث يأتى بخنزير سمين يذبحه ويطعم القادة منه ... ويحلف أخيل لايذوقن من طعام حتى يعود بثأر صديقه وأعز الناس عليه : « بتروكلوس ! » .

ويلح عليه أوليسيز فى أن يأكل : « لأن الحرب شاقة ، ويومها دهر بأكله ، ومقارعة الأقران مجهدة للأبدان .. » وما يزيد أخيل إلا إباء !

وعاد أجامنون .

وكان أوليسيز نفسه يتقدم الركب الذى أقبل من سفينة القائد العام يحمل هداياه لأخيل . ونهض أجامنون فأشهد الآلهة على نقاء القلب وصفاء النفس ، ورضاء الضمير ، ثم قدم الهدايا إلى ابن پليوس الذى كان يشهدها ويبكى !

وفى الحق ، لقد كانت لهى أحسن اللهى ، وهدايا على قدر مهديها ! فهذه صناديق سبعة مقفلة ، ملئت بالدر واليواقيت والزبرجد وبكل

ما غلت قيمته من كتان مصر ، وخز الهند ، وحبر الشام . . .

وهذه اثنا عشر من صافنات الجياد كأنما ولدت فى ليلة واحدة ، ولونتها الآلهة بألوان واحدة ، وأضفت عليها عرائس الفنون من سحرها ، فكانت كخيل أورورا !

وهذه عشرون دستاً من النحاس المزركش ، حليت سطوحها بالميناء والفسيفساء ، وتبارت فى حفرها كل يد صناع وفكر عتيد . وفيها من أصناف الجوهر ما يبهر اللب ويشده القلب ، ويذهب سنا برقه بالأبصار !

وهذه بدرة عشر من الذهب الخالص يحملها أو ليسيز ويتقدم بها أبكاراً سبعاً من جملة اللاتى كل منهن كأنها فينوس حقيقية ، تميس كأنها بانة ، وتبسم كأنها أقحوانة ، وتبدى عن الدر النضيد ! !

ثم . . .

هذه بريسيز ! بريسيز الهيفاء ، وأصل هذا البلاء ، الدمية التى أترعت بالمفاتن ، وفاضت عيناها بسحر الهوى !

هذه بريسيز تبرز فتخطف الأبصار ، وتتقدم فتثب القلوب ، تود لو تغمرها لمحة من جمالها النضر ، وشبابها الفينان !

فهل رأيت إلى العاصفة تقتلع الدوح ، وتطيح بالأيك ، وتهب على اليم النائم فيصطخب ، والبحر الوادع فيضطرب . . . و . . . على الغدير ذى الخرير فيرقص من رعشة ، وكأن به مساً من الخدر ! !

تلك هى بريسيز حين تبدت للقوم !

لقد هتف أوليسيز هتفة ضاعت فى اندهال الملأ بما يرى ، على ما تعرف من جبروت أوليسيز ، وشدة أيده . . . ثم هتف فتلفتت

الناس . وراح الرجل يكرر ما قيل من نقاء بريسيز وتمام طهرها ؛ واخيل مطرق ساهم ، لا يكاد يعى مما يقال شيئاً ! ..

واستل أتريديس خنجره ، وأهوى به على عنق الخنزير يذبحه ، وهو فى ذلك كله يصلى لأربابه ، ويسبح بحمد السماء ، ويشكر لسيد الأولمب ما أتم من صلح شريف بين سليلى الآلهة ..

ونهض أجاممنون فقدم بريسيز إلى سيدها ، وعقّب بكلمة طيبة ، ثم أشار أخيل إلى المرميدون فحملوا الهدايا ، وانطلقوا بها إلى أسطولهم ، ومعهم فتاة مولاهم فى صفوف موسيقية ، وفى موكب رهيب !

* * *

وانصرف القادة إلى زادهم ، والجنود إلى ميرتهم ، ولا حديث لهم إلا أخيل وفتاة أخيل ، والصلح الذى باركته السماء ، وكسبوا منه أن يكون فيهم أخيل !

أما بريسيز فقد وصلت إلى سفينة مولاها ؛ فشدهها أن ترى إلى جثة بتروكلوس فى لفائفها وأكفانها ، وإلى هذه الأم الباردة ، ذيتيس ، جالسة عندها تبكى ، وتدفع أسراب الذباب ، وتسقى القتيل خمراً ! !

لقد كانت بريسيز تعجب بالبطل منذ قريب ، ولقد تركته ممتلئاً صحة موفوراً شباباً ؛ نضر الصبى ، ريان الإهاب ! ثم عادت فكان أشق شىء عليها ان تراه مسجى هكذا ! لا نأمة ولا حركة ولا نفس ! قتيلا كأدنى من كان يُقتل كل يوم روع ، طعينا كأقل من كان يطعن كل يوم نزال ! !

دارت الدنيا بالفتاة ، فراحت تملؤها ندبة وبكاء ! . . . واجتمع لديها الفتيات الأخريات يندبن ويبكين ...

فما كان أروعه منظراً ، وما كان أشجاه إخلاصا ! !

* * *

وأقبل فونيكس على أخيل يواسيه .

ولكن أخيل ما يرقأ له دمع ، وما ينقطع له نحيب ...

واطّلع أرباب الأولمب ، فشهدوا ما يأخذ البطل من رُحَضَاء الحزن ، وبُرَحاء الأسى ، فأشار زيوس إلى مينرفا ، فهبت إلى أخيل ترعاه ، وتخفف عنه من بلواه . فلما كانت قاب قوسين من ابن بليوس ، هالها أن ترى إليه يعصف به الحزن ، ويوهنه الجزع ، والجند مع ذاك قد بُوِّئُوا مواقف للقتال ! فما هي إلا أن أمرت فونيكس بأن يصب الخمر المعتقة على صدر صديقه لينقذه من ضيقه ، وليخفف عنه من وطأة الجوع . ويصدع فونيكس ، فيتقدم إلى أخيل كاشفا عن صدره ، ويصب السلافة الأولمبية فيشر بها الجسم الضاوي ، ويسترجع بها ما فقد من قوة ... وما يفتا فونيكس يصب الخمر ، وما يفتأ أخيل ينظر إليه مشدوها ، حتى يكون في كل قوته من أثر المدامة ، فيصيح صيحة الحرب ... التي تهتز لها أبراج طروادة ! . . .

فانظر اليه مُقَنَّعاً في حديد ڤلكان ، وانظر اليه تحت تلك الخوذة التي لم تصنع مثلها يد الإله الحداد ، وانظر اليه يداعب حربة شيرون ، أستاذه السنتور العظيم ؛ ، ثم انظر اليه كالبركان المضطرب يقذف النار من عينيه المغضبتين . ومن حوله الميرميدون يملؤون الرحب ويسدون الشعاب . . .

ويل لك يا هكتور !

فزع الآلهة

قلق زيوس من اعتزام أخيل اقتحام الحرب .

وكيف لا يقلق سيد الأولمب وكل من الفريقين يصلى له ، ويطلب منه العون ، ويتوسل إليه أن يُظفره بعدوه ، فتنجاب هذه الغاشية التى صرّعت الرجال ، وضرجت أديم الثرى بدماء الأبطال ! !

ودعا إليه أربابه فعقد منهم مجلساً للمشورة ، فانتظم ديوان الأولمب ، وحفلت بهم ذروة جبل إيدا ، وطفق الإله الأكبر يقلّب الرأى على جميع وجوهه ، ويبحث المسألة من شتى أطرافها ، والأرباب فيما بين ذلك يحملق بعضهم فى وجوه بعض ، وتضطرم فى أفئدتهم نيران العداوة والبغضاء ؛ لأنهم كانوا جميعاً وقلوبهم شتى ! فهذا فريق منهم يعطف على طروادة ، ويشيد بذكر طروادة ، بل منهم من اشترك فى بناء طروادة وإقام أسوارها وتمكين صياصيها ؛ والطرواديون من أجل هذا قد أخلصوا العبادة لهؤلاء فأقاموا لهم الهياكل المشيدة ، والمعابد المنيفة ، وهم فى طويل الأحقاب والآباد ما يفترون عن عبادتهم والإخبات لهم ، وتقديم القرابين والضحايا بأسمائهم .

وفريق آخر من الآلهة يعتبر الشعب الهيلانى شعبه المخلص ؛ فهو لذلك يحدب عليه ، ويرجو له الخير ، وهو أبداً يستأذن سيد الأولمب فيحارب فى صفوفهم ، ويشد أزرهم ؛ ثم الهيلانيون يخلصون العبادة لهذا الفريق وهم أبداً يتعلقون بهم ، ويقيمون المعابد لهم فى كل حَنِيّة من جبالهم

وبكل منعرَج من شعابهم ، ومنهم كل مشّال صناع اليد ، مرهف الحس ، رفيع الذوق ؛ وهم لذلك ملأوا المعابد والهياكل بتماثيل الآلهة ، حتى ما تقع العين على أجمل منها !

وفريق ثالث لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ينقم على هذه الحرب الشعواء التى سُعِّرت لغير ما سبب يستأهل كل تلك الضحايا ويستحل كل هذه المهج ، وهذا الفريق يحنق على طروادة ويحنق على هيلاس على السواء ويود لو يأذن سيد الأولمب فيزلزل بهما الأرض ، أو يرسل عليهما كِسَفاً من السماء ، فلا يبقى على أحد منهم أبداً !

واتفق الآلهـــة على أن يذهب فريق منهم فيكون فى صفوف الطرواديين يرشدهم ، ويدفع عنهم عادية أخيل ؛ ثم يذهب فريق آخر فيكون فى صفوف الهيلانيين يفل من نشاطهم ، ويكسر من سورتهم ، حتى تكون الحرب بين الجمين سجالا ، وإلى أن يرى الآلهة فى شؤون خلقهم رأياً آخر .

وانطلقت حيرا مليكة الأولمب ، ومينرفا ربة الحكمة ، ثم هرمز رسول الآلهة وقائد الأرواح إلى هيدز ، وڤلكان الحداد إله النيران ، الذى فضحه مارس فى زوجه ، ونپتيون رب البحار العتيد الذى روّع الطرواديين فى هذه الحرب أيما ترويع .

وانطلقت ڤينوس إلى صفوف الطراوديين ؛ وراح فى أثرها أپوللو وأمه لاتونا وديان ومارس وإكسانثوس ؛ وفئة غير هؤلاء من عشاق ڤينوس .

وانبث الآلهة ينفخون فى أبواق الحرب

وصاح أخيل فى شياطين الميرميدون صيحة مُدَوِّيَة . زادتها ميرڤا قوة، فما تركت فؤادا إلا زلزلته، وما غادرت نفسا إلا تركتها ترجف من خوف وفزع .

وكان أپوللو ينظر إلى أخيل فيتميز من الغيظ ، ويود لو يبطش به فى غدرة من غدراته التى أودت بپتروكلوس من قبل ، ولكنه أحس بفرائصه ترتعد ، وفقاره يندك من الرعب ، لما رأى حول أخيل من هذه الأرباب المتعطشة للدماء ، لاسيما هذا الإله الوحش نپتيون الذى كان يرسل من عينيه بركانين من الغضب يضطرمان اضطراما .

وآثر أپوللو أن يستخفى فى زى ليكاون بن پريام وصورته ، وأن يذهب من فوره إلى إينياس العظيم مستشار طروادة وأبسل شجعانها بعد هكتور ، فيثيره على أخيل ويلهب فيه نخوة الجاهلية التى سداها التفاخر بالأنساب ، ولحمتها التباهل بالأحساب، والتبجح بأنا ابن من سمك السماء ، ودحا الأرض ، وأنبت فيها من كل زوج بهيج !

واستطاع أپوللو أن يهوِّن على إينياس من شأن أخيل ، وأن يحقر فى ناظريه خطبه ، واستطاع ببيانه الموسيقى ، وطلاقته السحرية أن يدفعه إلى ناحية أخيل ، الذى وقف مكانه يقذف الرعب فى قلوب الطرواديين وأحلافهم ، باحثا عن غريمه البغيض ، هكتور بن پريام ، يود لو يخلى بينه فيبطش به ويشفى هذا اللظى الذى يتأجج فى جوانحه ، لقتله أعز أصدقائه ، وأحب الناس إليه .

ووقف إينياس تلقاء أخيل، فتبسم زعيم الميرميدون، ووعظ المحارب أن

ينشئ فلا يلقى حتفه ، وذكره بما حدث بينهما قديماً ، حين ساق أخيل قطعان إينياس السائمة فى سفح جبل إيدا ؛ وما كان من فرار إينياس ، هذا الفرار المضحك ، الذى أشمت به الأعداء ، وأثار عليه سخرية الأصدقاء والأودّاء !

ولكن إينياس ، الذى كان لايزال مأخوذاً بسحر أپوللو وموسيقاه ، أبى واستكبر ، وهز أعطافه ، ثم أخذته العزة بالإثم ، وانطلق يقذف فى وجه أخيل بهذا التفاخر الذميم الذى لا يجدى فى حلبة الحرب نفعاً ، ولا يجر على صاحبه مغنما ، يوم لا حكم إلا للرهف البتار ، ولا قول إلا ما يقول الفيلق الجرار .

والتحم المحاربان العظيمان !

وارتطم الصخر بالصخر ، وثار النقع فى الميدان وأظلم حتى تهاوت كواكبه ، ونظر الجمعان نظرة القلق الحيران ، وأخذ الذهول يضرب أطنابه على الساحة الحمراء ، ونظروا فرأوا إينياس يستجمع كل قوته ، ويقذف برمحه العظيم فترده درع ڤلكان ، وإن تكن الطعنة قد شقت منها طبقتين ، ثم فترت ، فلم تصل إلى فؤاد أخيل .

وهنا !

اشتعلت نيران الدنيا فى عينى زعيم الميرميدون ، وذاب فى أعصابه حميم من الغضب ، وأرسل بدوره رمحه الهائل يرن على درع إينياس فلا يصيبه بأذى ، ولكنه لعظم الطعنة ، يصرعه ويطرحه فوق أديم الثرى فريسة رخيصة لغوائل الردى ، وضربات الرقاق البيض .

وينحنى أخيل من عربته الفخمة ، فيتناول حجراً عظيما ، ينوء

بالعصبة من صناديد الرجال ، ثم يرفع الحجر ليَسْدُدَّ به جمجمة إينياس .. ولكن ! ... ...

لا ! ينبغى ألا يقتل إينياس ، لأنه ابن زيوس سيد الأولمب ، وهو لو قتل لم يرض به أبوه ألف ألف أخيـــل ، وألف ألف جيش من ميرميدون أخيل ! ...

هكذا قدّر نپتيون ، وقُتل نپتيون كيف قدر !!

لقد أرسلها إلى حيرا ، مليكة الأولمب ، التى كانت قريبةً تشهد الحدث الأعظم ، قولةً غير صادقة إلا فى زعم نپتيون !

وعارضت حيرا فى تدخل نپتيون ، ولكنه ، لشدة حبه أخيل ، لم يسمه إلا أن يسرع اليه فينشر أمام ناظريه ضبابةً كثيفة حجبت عنهما هدف إينياس ، ثم انكفأ يحمله بعيداً من أخيـــل ، حتى انتهى إلى صفوف الطروادين الخلفية ، فسجاه على العشب الأخضر ، وأخذ فى نصحه ألا يجازف بنفسه أمام أخيل كرةً أخرى !!

وكان الجمعان ينظران إلى إينياس محمولا فى الهواء ... فيأخذ العجب منهما كل مأخذ !!

* * *

وامّحت الضبابة ، وبطل السحر ، ونظر أخيل فلم يعثر لإينياس على أثر ، وشدهه أن ينجو خصمه من قتلة محققة ، فيلقى فى روعه أن إينياس سليل الآلهة ، كما ادعى منذ لحظة ؛ ثم يشدهه أكثر ، تجابن الميرميدون والهيلانيين على السواء ، بعد إذ رأوا إلى إينياس محمولا فى الهواء !

ويحضهم أخيل على خوض المعمعة ، ويستطيع بحماساته أن يلهب فى صدورهم روح الإقدام .

ويكون هكتور فى هذه اللحظة قائماً فى جنوده يحضهم هو الآخر ويطمئنهم أن الآلهة معهم فلا يخافون ولا يحزنون . ويراه أخيل فيخفق قلبه ، ويعلو صدره ويهبط كأنه الخضم الغاضب . ويدفع عربته نحوه ، فتندفع الخيل ، وكأن النيران تندلع من عيونها وأنوفها ...

وكان أپوللو إلى جانب هكتور ، فلم يرض له أن يلقى أخيل الذى ما خاض المعمعة إلا ليثأر لصديقه پتروكلوس .

وكاد هكتور ألا يأبه لكلام أپوللو ، وتقدم فعلا ليلقى أخيل ، ولكن الإله الكبير زجره زجراً شديداً ، ثم أمره بالتقهقر فى الحال ... فانسحب بطل طروادة ، وترك أخيل يحرق الأرض مكانه ، إذ أفلته هذا الصيد الثمين !

وانقض أخيل يشفى غيظه بقتل عشرات وعشرات من أبطال طروادة فصرع إيفتيون العظيم ابن عذراء البحر ، ثم ثنى بالكمى الكبير ديموليون فشج رأسه فانبثق الدم يتفجر منه ، وبرز المخ ، وذهبت روحه إلى هيدز ! ثم ثلث ببطل الأبطال هيوداماس ، شكه شكة فتركه يخور كخوار الثور ، مسوقا إلى مذبح الآلهة ... ثم انقض على پوليدور بن پريام ، ملك طروادة فطعنه فى ظهره طعنة صرعته . ونشرت ظلام الموت فى عينيه . فهوى إلى الأرض يئن أنينا مؤلما ، أبكى الجند وأحزن أخيل نفسه ...

لقد كان پوليدور أحب صغار پريام إليه ، وكان يجرى فيسابق الريح وينازل القروم الصيد ، فيصرعهم عشرات ووحدانا ، فياحزن أبيه الملك عليه بعد اليوم !

وكأن ظلام الموت الذى خيَّم على عينى پوليدور امتد حتى ظلل عينى هكتور ! ولم تكن الحياة رخيصة فى نظر بطل طروادة مثلها اليوم . فقد فجعه أخيل فى پوليدور ، فلابد أن يفجع ذيتيس و پليوس ، والذى أخيل ، فى أخيل نفسه ...

وألهب جياده فاندفعت بعربته ناحية أخيل . . .

واستبشر زعيم الميرميدون حين رأى هيكتور يسرع ناحيته قدما ، وذكر أنه قاتل پتروكلوس فدارت به الأرض ، وذكر أن پتروكلوس ينتظر ثأره ميتا ، ولابد أن يعود أخيل إليه به ، فتقدم نحو هكتور وقال له :

« هلم يابن پريام فتعجل قتلتك ، وودع الحياة الحلوة التى لن تهنأ بها بعد اليوم ! » وتجهم هكتور ، وكلم أخيل فاعترف أنه أقوى منه ، وأطول فى مواقف الحرب باعا ، ولكنه حذره من الغرور ، « ومن يدرى ؟ ! هل أوحت إليك السماء أنك تقتل هكتور ؟ وهل أخذت على المقادير عهدا ألا يصرعك هكتور . . . » ثم انقض بن پريام فأرسل حربته الظامئة إلى صدر أخيل ، ولولا أن مينرفا كانت جانبه تحرسه ، ولولا أنها زحزحته قليلا فتفادته الطعنة ... لكان أخيل حديثا من الأحاديث . .

وبهت أخيل ، ثم صاح صيحة رجف لها جانب الجبل ، وجاوبتها أسوار طروادة ، ورددت أصداءها أجواز السماء ، وانقض على هكتور يود لو يقتلعه من عربته فيضرب به الأرض ، وتذهب روحه بعدها إلى الجحيم ! .

وكان أپولو إلى جانب هكتور هذه المرة ، كما كان إلى جانبه دائما ،

وراع الإله الأكبر أن يهجم أخيل تلك الهجمة التى يعجز عن مثلها مارس الجبار نفسه ...

وذهل أپوللو ماذا يصنع ، ليقى بطله من رمح أخيل ؟ !

ثم ذكر ما صنعه نپتيون مع إينياس ، فنشر ضبابة كثيفة أمام عينى أخيل ، وتقدم إلى هكتور فحمله ، وذهب به إلى حيث يكون بنجوة من مصير محزن ، كان يوشك أن ينتهى إليه ...

وظل أخيل يطعن الضبابة ، مشدوه اللب حيران !

طعنها مرة ، ثم مرة ثانية ، ثم ثالثة ، ثم ما كاد يطعنها الرابعة حتى أمّحت وبطل السحر ، وانكشف له الميدان يضج بالجند ، ويعج بعدة الحرب ، ولكنه مع ذلك ، وغير ذلك ... خلو من هكتور ! ...

« جميل يا هكتور ! صلّ للإله الذى أنقذك اليوم منى ! صلّ لربك أپوللو ! لقد أنجاك من قتلة بينة ، وموتة محققة .. صل له هكتور ! ولكن ثق أننا سنلتقى بعدها ، ولا أدرى هل ينقذك إلهك عندها ؟! إن لى أربابى التى تحمينى ، والتى إن فوجئت بغادر مثلك فهى تنجينى .. سنلتقى يا هكتور .. فصل الآن لأپوللو ... »

* * *

وثار أخيل فكان زوبعة !

وطفق يصرع أبطال طروادة ، فطعن دريوپس طعنة اخترمت حياته ، ثم جندل ديماخوس وأسرعت روحه إلى أمواج ستيكس المنصهرة ، وتقدم فأطاح رأس داردانوس العتيد ، وجال جولة هنا وجولة هناك ، فكانت المنايا تتعثر أنى ذهب ، وأيان سار ، فهذا تروس البطل مُلقًى على

الأرض والدم ينبثق من كبده ، وموليوس الصنديد زائغ العينين يتوجع مما ألم به، وإخكاوس ابن أچينور تتساقط نفسه حشاشات ، ثم ديكاليون الذى دوخ الجيوش وروع الأبطال ، وبث اليتم فى كل دار ... هاهو ذا فوق الأرض جسداً مُشخنا ، وجثمانا يتدفق الدم من جراحه ... نهاية حمراء لحياة حمراء ... كلها حرب وتقتيل !

ورجموس !

رجموس بن بريوس ! الذى شد رحله من تراقية لينصر الطرواديين على بنى وطنه ... قائداً جموعه التى لا حصر لها ، مؤلبا القبائل والأفخاذ على الأرض التى أنجبته ، والآلهة التى نشأته ... لماذا ؟ لا سبب معقول ! ولكنه طيش الملك وغروره وكبرياؤه . ولأن الهيلانيين لم يختاروه قائداً لهم فى هذه الحرب الزبون .

لقد امتشق أخيل سيفه ، وأصلتَه على رأس رجموس ثم أهوى به، فخر الخائن يتشحط فى دمه ... وانتهت بموته حياة ذميمة .

وزُلزل قلب ازيثوذ ... حارس رجموس وسائسه ... فود لو فر بعربة سيده ، لولا أن عاجله أخيل بضربة قدّت أضالعه ، وذهبت بروحه إلى حيث ذهبت روح مولاه ...

طوفان

تفزّع الطرواديون مما أخذهم به أخيل ؛ وزادهم خبالا هذا الظلام الذى راحوا يضربون فيه على غير هدى ، والذى كانت حيرا تمد فى دياجيره فيتدجى فوق الساحة الصاخبة ، ويمكّن لابن پليوس من أعدائه فيضرب فى أقفيتهم ، ويهوى على أعناقهم ، ويمسح بسُوقهم ويضرب كل بنان .

وضاق الجسر بجموع الفارين ، فاضطروا إلى خوض عباب النهر الزاخر ، وخوّضوا بخيلهم ورجلهم . . وتطامن لهم سكندر(١) فسكنت أواذيه ، ونامت جراجره ، وانكشف قاعه عن حصباء كالدر النضيد . . .

وتبعهم أخيل فخاض مياه النهر ، ثم أعمل سيفه ورمحه ، فكانت شآبيب الماء تختلط وشآبيب الدماء ، وأنين القتلى يمتزج بأصداء المنهزمين والجماجم المتناثرة تصطدم بالأشلاء الطافية هنا وهناك ، والسماء الكاسفة ترسل عقبانها تتغذى بالجزر المتساقط فى رحب المعركة ، من بطون مبقورة ، وهام مُفلّقة ، ولحم مفروم . . .

واستطاع أخيل أن يحصر اثنى عشر شاباً فيأخذ عليهم سبيل الفرار ، وفضل أن يرسلهم إلى سفائنه أسرى حتى لا يثخن فى الأرض ، وحتى يشهدوا ثمة ذلك القتيل المسجّى ، تسقيه ذيتيس الحزينة خمراً ، فكبل أرجلهم وأيديهم من خلاف ، ووكل بهم جماعة من رجاله فقادوهم إلى الأسطول ، بعد ما وقفوا هنيهة أمام جثة پتروكلوس ، يؤدون لها تحية

---

(١) رب النهر المحيط بطروادة .

المعركة التى دارت رحاها عليهم ، واصطلوا من بعده بنارها .

وطفق أخيل يأخذ الجوع من كل حدب ، ويلقاهم فى كل صوب ، حتى كان وجهاً لوجه أمام ليكاون بن پريام ، الذى كانت له معه قصة قديمة مشجية ، زمان إذ أسره أخيل واستاق قطعانه ، وحبسه فى جزيرة لمنوس ، حتى افتداه أهله من الحرس الموكل به ، ورشوهم بمائة ثور جسد ذى خوار ليطلقوا سراحه !

مسكين ليكاون بن پريام ! لقد فر من جزيرة لمنوس منذ إثنى عشر يوماً فقط ، وسعى إلى هذه الساحة النكراء ليلقى فوق أديمها حتفه ، كما لقيه أخوه پوليدور من قبل .

ودهش أخيل إذ رأى ابن پريام يذرع الميدان أمامه ، وعجب كيف أفلت من منفاه السحيق فى عرض البحر .. ثم أيقن أن فى الأمر مكيدة .. فانقض على الفتى المسكين انقضاض الباشق ، وأرسل إليه طعنة نجلاء كادت تخترم أجله ، لولا هذه اللفتة الرشيقة التى انفتلها الشاب فأنقذت حياته ... ولو إلى حين ! .

وفتح الفتى عينيه فنظر إلى شبح الموت تنتشر سماديره من ظُبَةِ سيف أخيل ، وأحس كأن هذا الشبح يلاحقه فى كل مكان فيقبض على عنقه ويضغطه ، ثم ينشب فيه أظفاره فيسرى السم فى هيكله الخاوى فلا يكاد يبين !

وحاول أن ينجو من روع هذا الموقف ... ولكنه كان أبطأ من حتفه الذى يسابقه ، فلما أيقن أن لا سبيل إلى الفرار ، ألقى سلاحه وتقدم إلى أخيل فقبل ثرى الساحة عند قدميه ، ثم لف ذراعيه المرتجفتين حول ساقى زعيم الميرميدون ، وطفق يضرع إليه ألا يقتله ... « فإن لى أماً

محزونة ما تفتأ ترسل دموعها على أخي پوليدور الذى قتلته منذ لحظة ، والذى أذويت شبابه النضر ولم تبق على عوده الفينان ، ولم ترحم فيه قلوباً تعطف عليه ، وأباً شيخاً أصبته فى ولده بقاصمة الظهر ... ارسلنى يا اخيل تباركك الآلهة وترعاك أرباب الأولمب ، ولا تفجع فىّ ذينك القلبين الحنيين علىّ ، الحفيين بى ... »

وكان الفتى يفصل توسلاته بعبرات شبابه ، ويصهرها بآهات صباه .. ولكن أخيل الذى يضطرم حزنا على پتروكلوس ، لم تأخذه رحمة فى ابن پريام المسكين ، وأخى هكتور الذميم ... ! بل استل جرازه البتار وأهوى به على عنق الفتى ... فطاح الرأس الطروادى الكريم !

وكان البطل الطروادى العظيم ، ستراتيوس بن پلجون ، رب البركات الذى يدين له بحياته أكسيوس رب النهر الشرقى الكبير ... كان ستراتيوس على مقربة من أخيل وهو يصرع ليكاون بن پريام ، فجزع — شهدت الآلهة — على ابن الملك ، وأحزنه ألا يرق أخيل لتوسلاته ؛ ووقر فى نفسه أن يقتص له من هذا الشيطان ، ويخلص الطرواديين منه ، فيطير ذكره فى الخافقين ويقترن اسمه بما لم يقترن به اسم أحد فى العالمين . فيمم شطر أخيل والكبرياء تنفخ أوداجه ، والغرور يشيع فى أعطافه ، ثم هز رمحه هزة المتحدى الخصيم ...

وزجره أخيل فلم يزدجر ، فانقض عليه انقضاض الحتف ، وأخذه أخذ المنية ، لا تجدى فيها اذا أنشبت أظفارها التمائم ، ولا تدفعها الرقى ، ولا تُفلت من اقصدته ولو كان فى برج مشيد !

وأرسل أخيل رمحه كالصاعقة ؛ ولو لقى الصخر لقدّه ، أو الجبل لنفذ

فيه ، ولكن سترابيوس كان أرشق من أن يلقى الطعنة ، فانزلق انزلاقة خفيفة أذهبت الرمح فى الهواء ، ثم هوى إلى الأرض فغاص فيها ، ومن ثمة راح يداعب أخيل حتى أحنقه وحتى بلغ الغيظ منه . فامتشق ابن پليوس سيفه وصرخ صرخة رجفت لها السماء ، وانصدع من هولها جانب الجبل ، وهجم على سترابيوس هجمة رابية فلم يفلته ، بل أرسل السيف فى بطنه فخرج سنانه يلمع من ظهره ، وبرزت الأمعاء فاجتمعت حولها طيور الماء ، تنوشها وتتغذى بها . . .

وريع سكندر ، رب النهر العظيم ، إذ نظر فرأى ابن ضيفه المقدام ، يلفظ أنفاسه ، ويُساقط نفسه ، فدارت الأرض به ، وضاقت عليه بما رحبت ، وتجهم من توه لأخيل ووود لو انشق فابتلع ابن پليوس آخر الدهر ، أو لو يأخذ هو سيفاً فيقد به أضلاعه ، ويُطيح برأسه . ويريح العالم من بأسه . لكنه آثر ، كإله له وقاره ، أن ينذر اخيل ويأخذه بالحيلة ، فخاطبه من القرار ، فقال : « اخيل يا ابن پليوس العظيم ! انا لا يهمنى ان تصطلم الطرواديين جميعا ، ما دام زيوس قد سلطك عليهم ورماهم بك .. أنا لا يهمنى من ذلك شىء ... ولكن الذى يحزنني ويضيق به صدرى هذه الجثث الكثيرة التى يعج بها عبابى ، وينتشر منها الخبث فى أرجائى ... لقد انتنت يا أخيل ، وخالطت عذوبة مائى ، ولم يعد لى بها طاقة ، ولا عليها جلد ... وهى إلى ذلك كادت تقف تيارى ، وتشل حركتى . . . فهلم فارفعها عنى ، وقف التصريع والتقتيل حتى تطهر مجراى من أردانها وحتى ألفظ أنا إلى البحر ديدانها ... »

وتبسم أخيل قائلا : « أما أن أقف هذه الحرب فلا سبيل إلى ذلك

حتى آخذ بثأر پتروكلوس ، وحتى أدك طروادة على رأس هكتور ، فإما أن ألقاه فأقتله وإما إن يلقانى فيقتلنى . وأما أن أطهر مجراك من هذه الجثث الطافية فوقه فليس لى الآن بذلك يدان .. أو تضعَ هذه الحرب أوزارها ... »

وحنق سكندر العظيم ، وانطلق إلى أپوللو يكلمه فى أمر أخيل ، ولم يدعه أپوللو حتى أغراه بابن پليوس أعدى أعدائه ، وأشد شانئيه ، وحتى أثاره عليه ، وهاج فيه كل حقد دفين . وعاد سكندر فأشار إلى الماء فسَهَلا وفاض ، وإلى الموج فتلاطم وجرجر ، وإلى الأواذى فدوّمت وهوّمت ، ولاحقت أخيل من هنا وهنا ؛ وفطن ابن پليوس إلى الخطر الذى أوشك أن يحيق به فهرع يحاول الفرار .. ولات حين فرار .. فقد أزبد الموج ، وانساب العباب ، وتشققت الأرض عيوناً ومسايل ، وعمُقت اللجة ، وبعد ما بين سطحها وبين قدمى أخيل ، أو ما بينه وبين قرارها ، فأطلق المسكين ذراعيه يسبح فى أغوارها ، ويتعلق بالجثث الطافية فوقها .

واشتد الخطب ، وعظم الكرب ، وصرخ أخيل يستنجد أربابه ، فما كادت حيرا تسمعه حتى فزعت إليه ، وأمرت ڤلكان ابنها فانطلق يجفف الأمواه بنيرانه ، ويرسل على الطوفان بدخانه ، ويستعين فى كل ذلك بآلهة الريح التى هرعت إليه من كل صوب تساعده ، وكان زفيروس الكريم يهب على النهر اللجى سجسجاً ، ويذهب منه بكل مزنة مثقلة ، ودِيمة محملة ، فلم يمض غير بعيد حتى صفا الجو ، وغيض الماء ، وبرز أخيل يحمل عدته ، فطربت الآلهة لنجاته ، وانقض ڤلكان على

سكندر يحاول أن يثأر لأخيل منه ... ولكن سكندر يعاهد حيرا — إذا هى صدت عنه ولدها ڤلكان — أن يحصر الطرواديين بموجه ، فلا يمكنهم من الدخول إلى مدينتهم ، ويجعلهم بذلك هدفاً لأخيل يصنع بهم ما يشاء !

* * *

وتُثار الخصومة بين الآلهة لموقف ڤلكان من سكندر ... ويغيظ مارس من مينرڤا أنها تؤيد ڤلكان وتحرضه على رب النهر المسكين الذى أفزعته النيران تأخذه من كل حدب ... فتقدم إليها وطفق يقرعها وتقرعه ، ويرميها بالمثالب وترميه بها ... ثم تناول رمحه العظيم واستجمع كل قوته ، وأرسله يود لو يقضى به على ربة الحكمة الحازمة ، ولكن ، ويل لك يامارس القد ارتد الرمح فلم يستطع إلى درع مينرڤا من سبيل ؛ وانحنت الإلهة المغيظة فأخذت حجراً من أكبر حجارة الجبل وقذفت به مارس فدكت عنقه ، وقصمت ظهره ، وتركته على السفح الشاحب لتقسى من ألقاء هذه الحرب !

وظل مارس ممدداً على السفح يخور ويئن ، ويتلوى بجثته العظيمة (١) التى كانت ترتطم بالجبل فتميد به ، وتهزه هزاً شديداً .

وأقبلت ڤينوس فوقفت تواسى مارس وتهون عليه ما فعلت به مينرڤا ، ثم أنهضته وانصرفت به ، ولكن حيرا أرسلت فى إثرهما مينرڤا ترى مايكون من أمرهما ... بعد كل تلك الفضائح التى لوثت شرفهما ، وجعلت اسمهما مضغة فى جميع الأفواه ...

---

(١) جاء في الميثولوجيا أن طول مارس سبعمائة قدم .

وأقبلت ڤينوس على مارس تشفى حرقةً فى قلبه ، وتنيله من ألطافها ما تنسيه به بعض الذى لقيه من أذى ... ولكن منيرڤا أهابت بهما ..! وطفقت تنصح لهما أن يدعا طروادة فلا ينصراها على شعبهما المختار ... هيلاس العزيزة ! ولكن ... ! لقد أسمعت لو ناديت حيا ...! فلقد أعطت ڤينوس پاريس موثقا ، وإن ڤينوس لصادقة ...!!

وانطلق نپتيون يعظ أپوللو ، ويصرفه هو الآخر عن مؤازرة الطرواديين ، فذكر له أيام أن نفاهما زيوس إلى أقصى الأرض ، فأتيا إلى طروادة ، وعملا فى خدمة أميدون الجبار ، الذى لم يتورع أن يرسل أپوللو فيرعى له قطعانه ، ويسمن نعمه وشاءه (١) ، كأن لم يكن أپوللو ابن إله عظيم ، وكأن لم يكن هو نفسه إلهاً عظيما !!... « أتذكر هـذه الأيام ياأخى أپوللو !! ... أتذكر أيام أن كان هذا الهاتية العنيد يسومنا الذل ، ويقهرنا غايةَ القهر ، وينزل بنا أشد ألوان الخسف ، متذرعا بغضب سيد الأولمب علينا ، لا تأخذه فينا رحمة ، ولا يهمه أن نبرم ونتسخط ، ما دام — فيما كان يزعم — يؤدى ما أمره به أبوك زيوس !!

فيم هذه المناصرة كلها لطروادة يا أپوللو ؟ .. ماذا تذكر من حسنات لملكها اللعين أو ميدون ! ؟ أنسيت يوم أسخطناه بالتراخى قليلا فى عملنا ، فأمر بنا فقطعت آذاننا وشُدَّ وثاقنا وأصبحنا ضحكة كل راء ؟! .. لالا ياأپوللو .. أنا لا أرتضى لك أن تكون غبياً إلى الحد .. »

وعملت فيه كلمات العم نپتيون عملها ، فعاهده ألا يخوض غمار هذه

---

(١) ماشيته وغنمه

الحرب كرة أخرى ، وقاسمه الا يسدد فيها بعد اليوم سهماً... ولو عيرته أخته ديانا ألف تعيير !

وماذا لو عيرته ديانا ، ورمته بالجبن امام نيتيون ؟! هاهى ذى حيرا تسمع إلى ربة القمر ، فتقذفها أشنع القذف وأمره (١) ، ثم تهجم عليها فتكبلها ، وتنثر كنانة سهامها ، وتمضى بعد ذلك لشأنها .. وتأتى لاتونا — ام ديانا الباكية — فتواسيها وتذهب وإياها إلى زيوس .. المتربع فوق سدة الأولمب ، فتشكو إليه ما لحق ابنتهـــا من زوجه .. ويغضى الإله .. لأنه ليس له على حيرا يدان ..!

ويتم الظفر لأخيل وجنـــده بعد ان ينسحب أپولو من المعركة ، فيأخذ الطروادیين أخذ عزيز مقتدر ، ويقف پريام الملك فى برج شاهق ، يطلع على الساحة ، ويشهد هزائم جنده ، فتدمع عيناه .. ويأمر بالبوابة الكبرى فتفتح ، ويسرع الجنود ناحيتها فراراً من أخيل وشياطين أخيل ، ولكن أخيل وشياطين أخيل تشطر الجنود الفارين شطرين ، بل يستطيع أخيل وكوكبة قوية من الميرميدون أن ينفذوا إلى البوابة الكبرى ، ويدخلوا طروادة فاتحين ...!!

وهناك ! يثبت لهم أجينور البطل الطروادى الحلاحل ، ويأخذ مع أخيل فى ملاحاة عنيفة ، ثم يتقارعان برهة ، ويصاول أحدهما الآخر .. ويكون .. أپولو ..! إلى جانب أجينور يحضه ويحرضه ، ويثبت قدميه .. ناسياً موثقه التى قطعها على نفسه أمام نيتيون ..

---

(١) لم يتورع هيرميروس أن يتقاذف الآلهة بأحسن ألوان الفحش فأثار بين حيرا وديانا سبابا ليس مثله سباب لا نستطيع إيراده هنا .

ويهم أخيل أن يبطش بفتى طروادة .

لولا أن يهز على أپوللو أن يلحق أچينور بصاحبه استرابيوس من قبل ، وبعشرات الأبطال من مثل استرابيوس ، فيتقدم إلى أچينور يحميه ، ويرسل عليه سحابة بيضاء فيحمله فيها .. ، مُضللاً أخيل عن خصمه ... ومبعده خارج البوابة التى يقفلها الطرواديون من دونه . . .

---

obeikandl.com

مصرع هكتور

اختلط حابل الطراودين بنابلهم ، وظلوا يهرعون إلى الأبواب حذر الموت الذى يتلقفهم عن شمائلهم وعن أيمانهم ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ، كأنما جَشَمت المنايا فى كل خطوة فهى لهم بالمرصاد ... طالما يكر أخيل هنا ويفر هناك ، وتكر من خلفه وتفر شياطين الميرميدون ، صائحين متهدجين « يا لثارات پتروكلوس ! » .

ووقف أپوللو وهو يتميز من الغيظ يشهد المعركة ، ويرى إلى أخيل يحصد تلك الرؤوس اليانعة التى لم يحن بعد قطافها ، فلم يملك أن دنا منه وقال :

« على رِسْلك يا ابن پليوس ، فكأنى بك ما كفاك من صرعت حتى لتحدثك نفسك بقتال الآلهة ، ومحاربتى أنا من دون أرباب الأولمب خاصة ! ولكن هيهات ! فإنك لابد يوماً ذائق الموت الذى لن يذوقه إله فى الأرض ولا فى السموات ... فاقصِد فى تقتيل هؤلاء الأبرياء ، ولا يغرنك نصر قد تكون فى آثاره هزائم ... ... »

وعبس أخيل عبوسة قاتمة ، ثم نظر إلى أپوللو مُغضَباً وقال : « حسبك ياسيد الشمس ماضيعت من جهود ، وما فوتّ علىّ من ثارات ؛ أعرج فى سمائك الشاسعة ، ودع بنى الموتى يصطرعون من أجل المجد والشرف ... لقد أنقذت خصمى من قتلة محققة ، فهل ياترى تظل ياسيد الشمس تعترض طريق الأقدار ، ليمرح فى كنفك الفُجّار الأشرار ؟ ... »

وانطلق أخيل يعدو فى إثر هكتور ، وكان هكتوو قد أخذته العزة أن ينجو بنفسه فيدخل المدينة مع الداخلين .

وكان پريام ، الملك الشيخ ، يشرف على الساحة الحمراء من أحد أبراج مدينته ، فرأى ابنه واقفاً فى إحدى حَنِيَّات الأسوار يستجمع ، ويرسل فى رَهج الميدان عينين سادرتين محزونتين ، تشفان عن قلق عميق ، واضطراب دَوِىّ ، فريع الأب المفئود ، وزلزل زلزالا شديداً ، وطفق يئن أنينا عاليا ، ويضرب صدره الموهون بيديه الواهيتين ، ثم يصيح بابنه أن يسارع إلى البوابة الأسكائية قبل أن يلحق به أخيل ، عسى أن ينجو مما يتربص به من منون . . .

« أى بنى ! هكتور ! فيم تقف فى هذا الميدان وحدك تنتظر الطاغية أخيل عليه لعنة السماء والآلهة ، جزاء قتله بنى ، وإهداره دماء مواطنى !

هلم يابنى فحسبى ما جزعت على پوليدور ، وحزنت أمض الحزن وأوجعه على ليكاون ، وما حطم قلبى من الأسى على أبناء إليوم ! . . .

هلم يابنى فأنت أمل طروادة ومعقد رجائها ، وليس لها بعدك من ولى ولا شفيع !

هلم فأبوك الشيخ قد صدعه الحزن ، وأوقرت ظهره ويلات الحرب وأغطشت عينيه أرزاء هذا البلاء ، فلا تكن أنت محنة المحن التى تحل به ، واستبق شبابك له يتسل بك ، ولأمك المفجعة تستلهم بقربك الصبر ، على ما كرثها الزمن الصارم من نكبات يلاحق بعضها البعض ، وتأخذ أولاها بتلابيب أخراها ، مشرقَ كل شمس ، وكل مغيب شمس .

هلم ياهكتور إلىّ ! إلى والدتك ! إلى زوجك ! إلى طفلك الذى

تكاد تسلمه لليتم ، وتدعه خلفك للشقاء !

هلم وحسبنا أرامل شجعاننا اللائى يحلن إشراق أيامنا ظلمة ، ويصيرن لألاء الحياة قتاما . . . ويرسفن فى أغلال الاستعباد حيث يقمن فى خدمة الإغريق اللؤماء . . . !

هلم إلىّ يابنى ! فو أرباب الأولمب إنى لأرتعد فرقاً كلما خلتك ملقى بالعراء تنوشك سباع الطير ، منبوذا لضوارى هذه البرية التى طالما أطعمتها وأكرمت مثواها . . . »

وصمت الملك ، وراعه أن ابنه لم يتحرك لتوسلاته ، بل لبث مكانه يرمق الميدان ، فراح يضرب يداً بيد ، ثم انحنى فجعل يحثو التراب على رأسه المجلل بثلج الشباب وندف الأيام ، وبهذه الشعلة البيضاء التى زادتها أحداث الزمان اضطراماً . . .

وكانت هيكوبا إلى جانبه . . . هيكوبا مليكة اليوم . . . هيكوبا الأم . . . التى فجعها أخيل فى عدد من أعز أبنائها ، ويحاول اليوم أن يفجعها فى هكتور ، ابنها البكر ، وتاج الأمومة الوضاح ، الذى تفخر به كل أم ، وتُدل به كل والدة !

وقالت الأم الباكية تخاطب هكتور : « هلم ياولدى فإنك وحدك لا تستطيع أن تكبح جماح هذا البحر الزاخر من الجند ، بل لو أن معك ألفاً من شجعان طروادة ما وسعهم أن يردوا عادية هؤلاء الميرميدون المقنعين فى حديدهم ، المُدِلين بعديدهم .

هلم ياهكتور واستبق شبابك وعنفوانك لأمك المحزونة التى لم يبق لها من ولد غيرك ، ولا عز إلا فى جوارك ، ولا حمى إلا فى كنفك ، ولا

بحسن يرد عنها عوادى الأيام إلا فى ظلك، ولا فخر لها بين النساء إلا فخرك، وما تمد الآلهة فى أيدك، وتشد به أزرك . . .

هلم يا بنى فلقد أزعجتنى الرؤى، وروعتنى الأحلام، وجثمت فوق صدرى أشباح هذه الساحة التى تفتأ تلبس الحداد وتخلعه، وتغرى بالنصر ثم تنزعه، وإن سرّت بطلا بفوز تنكص فتفجعه، فتقدّ أضلعه وتمزج بدمه أدمعه . . . »

وكانت الملكة، كما كان الملك، تمزج توسلاتها إلى ولدها بأغلى الدموع، وأحر الآهات؛ بيد أن هكتور ظل مسمرا مكانه كالحية الرقطاء التى تتحوى وتتكوم فى انتظار عابر تنقض عليه، وكان يمنى نفسه أن يأخذ أخيل على غرة، فيريح طروادة منه، ويضفر لنفسه بنفسه إكليلا من المجد لم يزن مفرق بطل من قبل.

وكانت توسلات أبويه تتناثر حول أذنيه، ولا يصغى لها قلبه، بل هو قد ظل يحلم فى يقظته أحلاماً معسولة، كانت تطن فى خلده هكذا: « ضلة لى إذا ثنيت عنانى إلى المدينة ألوذ بها من أخيل، فأرسف أبد الدهر فى حضيض العار! وأطأطىء حياء كلما لقيت طروادياً يهمس فى أذن أخيه: إن هذا هكتور الذى ولى دُبرَه، ونكص على عقبيه، ولم يجرؤ أن يلقى أخيل بمفرده فى الميدان، وأين أذهب من غادات اليوم وحرائرها إذا أنا وليت الأدبار، وها هن مشرفات على الساحة يرين ماذا يكون من أمرى مع ابن پليوس الذى تفزع الآلهة من ضرباته! وتمور الأرض تحت عجلاته، وتنعقد عجاجة الوغى فوق رأسه، فى حين يبرز منها

كالكوكب الدرى ! حاشاى أن أعود أجرر أذيال الخيبة ، فإما أن ألقاه فأريح الدنيا قاطبة من شره ، وإما أن يريحنى هو من هذا الهم المقيم فأقضى فى سبيل بلادى ومن أجل مملكتى . . .

ثم فيم صراخ أبى وعويل أمى ! أيرجوان أن أدخل إلى المدينة فأكون بمنجوة من الموت الشريف فوق أديم الميدان ساعة ، ثم يفتحها أخيل على ، فيذبحنى كما يذبح شاة لا حول لها ولا طول ، أو يضع الأغلال فى عنقى ويجرنى فى شوارع (إليوم) كما تكون أذن الجارية فى يد النخاس يسوق الرقيق ! ؟

« حاشا . . . بل خير لى ألف مرة أن أخوض غبار المعمعة ، ما دام أن يضيرنى إلا ما قضت المقادير على . . . »

وما كاد يفيق من أحلامه حتى كان أخيل أمامه وجهاً لوجه ، وعلى كتفه الرحب الهرقلى رمحه الظامىء العتيد ، وفوق صدره العريض الممرد سوابغ دروعه التى سردها الإله الحداد فلكان ، تنعكس عليها آلاف وآلاف من آراد الشمس فتبهر الأبصار وتخلع الأفئدة ، وتذيب فى الجوارح كهرباء الرعب ، وتشعل فى الرؤوس ضرام المشيب ! !

وزاغ بصر هكتور ، واضطربت مفاصله ، ونخب قلبه ، واستطير لبه وأحس كأن جبلا ينحط على روحه فلا يكاد يفلتها ، وذاب الثلج فى عروقه فجمدت من الروع والفزع ، وهزته قشعريرة طفقت تعصف بكيانه الضخم ، وتلعب بفؤاده المفزرع . . .

ثم بدا له أن يلهب جياده فتفر به من وجه أخيل ، ولكن إلى أين ؟ إنه حيثما ولّى فثم وجه أخيل ! ! إن أخيل غدا آلافا لا حصر لها من

الأشباح المفزعة تملأ الساحة وتكظ الهواء ، وتأخذ على الطروادين أنفاسهم !

وانطلق ابن پليوس فى إثر هكتور ، وأشرف عذارى اليوم يطللن من أبراج المدينة الخالدة ويمسكن حبات قلوبهم أن تثب إلى الميدان فتطأها سنابك تلك الجياد الجوارح . وكان كلما أغذّ هكتور ، خف أخيل فى أثره ، فكانا كالأبرديْن(١) : لا الليل يدرك النهار ولا النهار يستأنى فيدركه الليل ، حتى نال منهما الجهد ، وتفزعت الآلهة فى علياء الأولمب إشفاقا على ابن پريام العظيم ، ورثاء لابن پليوس المتهدج . ورحمة لهذه الأرض المضرجة بدماء الشهداء .

وهمّ سيد الأولمب أن ينقذ هكتور ، لولا أن أقنعته ابنته . مينرڤا ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، فنحّته عن طريق الأقدار ، وأخلت بين أخيل وخصمه . . .

وطافا حول طروادة ثلاثا ، وما كادا يبدآن طوافهما الرابع ، حتى قبض زيوس إليه ميزان القدر ، فهوت كفة الحق بقتل هكتور ، واربدّ وجه أپوللو وسقط فى يده ، وانطلق يضرب أخماساً لأسداس ... !

وأسرعت مينرڤا إلى أخيل تزف إليه بشرى السماء ، وآثرت له أن يتلبث مكانه يستجم نشاطه ، ويتنفس الصعداء حتى تذهب هى إلى هكتور فتغريه بإلقاء خصمه ، وتنفره من هذا الفرار الذى أضحك منه قيان اليوم وحسانها ...

واستخفت مينرڤا ، وبدت لهكتور فى هيئة أخيه الأصغر ديفوبوس ، ثم راحت تحضه على الحرب ، وتحرضه على أخيل ، وتهوّن له من شأن

---

(١) الليل والنهار .

زعيم الميرميدون ، وتعده أنها ستقدم له كل عون حتى يظفر به وتنصره السماء عليه نصراً عزيزاً ...

ولم يشك هكتور فى أن الذى يخاطبه هو شقيقه وحبيبه ديفوبوس ، فوقف قليلاً يفرج عن قلبـــه بعض ما كربه من روع ، وراح يمزج شكرانه لأخيه بدموع الفزع ، وذلة العبارات المتقطعة الحزينة ، وخفقان القلب المضطرب ذى الوجيب !

وانثنى هكتور للقاء أخيل ...

فما كاد ابن پليوس يشهده مقبلا ، بعد إذ كان مدبرا ، حتى طرب قلبه ، وشاعت بشاشة اللقاء فى زنده القوى وسواعده المفتولة ، ثم انقلبت هذه البشاشة إلى جهنم من الغيظ ، تستعر بالتشوف إلى الانتقام فى فؤاده ، وتضطرم بلظى البطش فى سويدائه ؛ وتطل من عينيه تود لو تنقدح فى أضلع هكتور . . . ؟

وقال هكتور : تخدع نفسك يا أخيل إذا ظننت أنى كنت ألوذ بأذيال الهرب منك ، حين أجريتك هذه الأشواط الثلاثة حول إليوم . . . ؟ ! لا ... فإنى ما حاولت إلا إجهادك ، وأن ينال الإعياء منك ... والآن ، هأنذا قد انقلبت للقائك فإما أن أقتلك ، وإما أن تروى رمحك الظامىء من دمى . ومن يدرى ؟ أليست الأقدار مطوية عنا فى صحائف الغيب ، لا يعلمها إلا سيد الأولمب وكبير الآلهة : زيوس جل شأنه !

بيد أنى أطمئنك من الآن يا أخيل ، إن أظفرتنى السماء بك ، فلن أفضحك فى هذه العدة السابغة من فوقك ، ولن أنزع عنك تلك الدروع الضافية التى ان تنفعك من المقادير من شىء ... ثم أعدك أيضاً ألا أفضحك

بعد موتك فى هذا الجسم العزيز الذى سيكون بعد قليل جثةً لانأمة فيها ولا حياة . . . ان أرسل بك إلى عراء طروادة فأنبذك فتأكل الطير منك ، وتنوشك سباع البرية الموحشة التى تعج بالضوارى والكلاب . . لا . . . لن أفعل من ذلك قليلا ولا كثيرا . . . بل سأترك لجنودك البواسل أن يحملوك إلى سفائنك عزيزاً فى قتلتك ، كما كنت عزيزاً فى معاشك .

والآن يا ابن پليوس ! هل تعدنى الوعد الذى وعدتك ، وهل تعاملنى بمثل ما أنا معتزم أن أعاملك ، إن أظفرتك السماء علىّ . . . ؟

وتزلزل الأرض تحت عربة أخيل مما سمع من مهاترة ابن پريام ، ويقذفه بشُواظ من الكلم المحنق والقول المضطرم ، ثم يقذفه بصعدته الظامئة التى تمرق إلى هكتور كالبرق الخاطف ، لو أصابت منه عضواً لذهبت به إلى الجحيم . . .

ولكن هكتور العظيم ينفتل كالبرق الخاطف ، فيهوى رمح أخيل إلى أرض الساحة ، ويغوص ثمة إلى ثلثيه . . . إلا قليلا .

وكانت فرصة طيبة لهكتور ينفرد فيها بخصمه الأعزل لو لم تكن مينرڤا حاضرة ، وعلى أهبة تامة لمعاونة أخيل . . . فلقد سارعت إلى الرمح فانتزعته من الأرض ، وسلمته لصاحبه دون أن يلمحها هكتور . . .

وقبل أن يتهيأ لها أن تصنع ذلك ، قال ابن پريام : « أخيل ! هاقد طاشت ضربتك ، وآن لطروادة التليدة أن تستريح منك يا ألد أعدائها !! لقد كنت تحدث نفسك برأس هكتور ، غريمك وخصمك ، فلتبحث الآن عن رأسك يا ابن پليوس . . .

ولم يكد البطل المسكين يتم قولته ، ويضيع بها فرصته ، حتى كانت

مينرفا قد أعادت الرمح إلى أخيل ... وحتى تبسم أخيل ابتسامة لاذعة ساخرة بما قال هكتور ، الذى داعب هو الآخر رمحه ، ثم أرسله كأنه الحتف فارتد على درع ڤلكان ، ثم هوى إلى الأرض ، فغاص فيها ، وقبل أن يلحق به هكتور حال أخيل بينهما ، وأصبح الموت ، أقرب إليه من حبل الوريد ، وتلفت ابن پريام يبحث عن أخيه ديفوبوس فلم يعثر له على أثر ، فصاح من الوجل يقول : « ديفوبوس ! أغثنى يا ديفوبوس ! أدركنى يا ديفوبوس ! هات لى رمحاً يا ديفوبوس . . . »

بيد أن ديفوبوس لم يغثه ولم يدركه ولم يحضر له رمحاً ، وبدت له مينرفا وهى تبتسم ابتسامة خبيثة زلزلت أركان هكتور ، الذى فطن إلى الحيلة التى جازت عليه ، فقال يخاطب الربة الساخرة ، وهو يكاد ينشق من الغيظ : « يا للسماء ! أهكذا تخاتل الآلهة ، فتقضى بموتى فى معركة لا أحمل فيها سلاحا . . . ولكنى سأقاومك يا ابن پليوس ، فإذا سقطت فلن يكون لك فى ذلك فضل ولا محمدة ، واذهب من بعدها فصل للخاتلة التى نصرتك وآزرتك . . . »

وامتشق المسكين سيفه ، ولكن ماذا يصنع الجراز البتار فى ملحمة لا يقطر المرت فيها إلا على أسنة الرماح ! . . .

لقد انقض أخيل على فخر طروادة وأملها المذخور فعاجله بشكة من رمحه الظامىء نفذت فى عنقه ، وهوت به إلى أديم الأرض المقدسة التى طالما دافع عنها مع جنوده البواسل الكرماء . . .

. . . « هكتور ! اليوم شفيت حزنى الممض على پتروكلوس . . . واليوم تذهب روحك إلى ظلمات هيدز غير كريمة ولا حميدة . . . يا كلب

طروادة المذؤوم ! ! كم كنت تمنى نفسك لو تظفر بى فتنبذ جثتى بالعراء لوحوش طروادة وجوارح طيرها ... ألا فحدث نفسك الآن ماذا صنع القدر بك . . . ! »

ويتهدج هكتور قائلا : « أخيل ! يا ابن پليوس العظيم ! استقسمك برأسك الرفيع ، وأبويك الحبيبين ، ألا تأخذ جثتى فتنبذها لكلابك ، وتعفر جبينى الحر بثرى المذلة بين أصحابك ، وحسبك أن الآلهة قد أظفرتك بى ، وأن المقادير السود قد نصرتك على » .

فيقول أخيل ، وقدزهاه النصر على ألد خصمائه : « إطمئن ياهكتور ، فكلابنا لا تستطيب إلا جزر الأبطال ، وستكون لها وليمة فاخرة . . . فو رأس أبيك لو ملأنى پريام هذه الدنيا ذهباً على أن أخلى بينه وبينك ، ليعود بك إلى إليوم ، ما رضينا بك بديلاً . . . »

وتكون سكرة شديدة من سكرات الموت جاثمه فى صدر هكتور تعذبه وتضنيه ، فيتأنى قليلا حتى تنجاب عنه الحشرجة ، ويفتح عينيه ويقول : « أخيل؟ لا تغتر بما تم لك من نصر ، فپاريس أخى سيقتص لى منك ، وسيرميك من أبراج طروادة بسهم يعجل بك إلىّ . . . فى هيدز . . . وثمة سنلتقى ! »

ويموت البطل . . .

وتنطوى صفحة مجيدة من صفحات طروادة . بل تنطوى أنصع صفحاتها جميعاً ، بموت هكتور .

يا عجباً !

هل كان كتاب الغيب مفتوحاً أمام هكتور يقرأ منه ، عندما أنذر أخيل بسهم باريس ؟ !

* * *

وازدحم الهيلانيون حول الجثة يطعنونها ويُصلونها كلوماً عجزوا عن إيصالها إليها حية ، فأبوا إلا أن يُصلوها بها ميتة . . .

ونزل أخيل من عربته ، فانحنى على الجثة ، ونزع عنها تلك العدة العزيزة التي نزعها هكتور عن جثة پتروكلوس . . . عدة أخيل . . . فلن تكون بعد اليوم إلا لأخيل !

واستل ابن پليوس خنجره ، وأهوى على عَقِبَيْ هكتور فخرمهما . وربط القدمين العزيزتين في مؤخر عربته الحربية ! ثم ألهب جياده فهامت على وجوهها في الساحة ، وطفقت تطويها مثنى وثلاث حول إليوم ، والرأس العظيم يتعثر بثرى المعمعة الذاهلة ، والطراوديون فوق الأسوار ينظرون ولا يحيرون . . إلا هذا الملك الشيخ . . پريام المذهول : الذي راح يملأ الفضاء أنينا موجعاً ، وشجواً مفزعا . . . وإلا هذه الأم المرزأة . . . هكيوبا الملكة . . . التي راحت تحثو التراب فوق رأسها ، وتتقلب فوق الأرض كالطائر المذبوح . . .

أما أندروماك . . . فلها السماء . . . ولها الآلهة !

لقد كانت تضفر أفواف الزهر للقاء هكتور ، وترشق الورود في أرائك المخدع ، وتعد الحمام الساخن لغسل ثرى الميدان . . . ولم تكن تفكر قط إلا في عودة البطل مخضّب الذيل بدماء الأعداء . .

ولكنها سمعت لغطاً وضوضاء يرتفعان فجأة خارج القصر ... وكأن هاتفاً من السماء هتف بها أن تخرج لتستجلى النبأ ... ولكنها شعرت بقوة خفية تدفعها إلى البوابة الأسكائية ... حيث وقف بريام يبكى ولده ... فما كادت تصل ثمة وتشهد هذا الجمع المحزون يُذرى دموعه ... وما كادت تطل من شرفة البرج فترى إلى هكتور مربوطا فى عربة أخيل ، وأخيل الجبار يطوى به الساحة ، ويذرع به الميدان ... حتى وجفت نفس الزوجة البائسة ، وخرت إلى الأرض مغشيا عليها ...

* * *

وأفاقت أندروماك التعسة ...

وطفقت تبكى زوجها ، وترثيه بالدم .

وطفقت نفسها تتساقط عليه أنفساً ! ؟

بعد مصرع هكتور

انتصر أخيل !

وعاد بجثة هكتور ليجد أمه لاتزال تسقى بتروكلوس خمراً ؛ ولا تزال تدفع عن القتيل المُسَجَّى فوق سرير الموت أسراب الذباب ؛ ولاتزال تذرف الدموع الغوالى !

ويهرول زعيم الميرميدون ، ويهرول معه جنوده حول جثة صديقه ثلاثا ، ثم يقف فوق الرأس المتشح بجلال الفناء . ويقول :

« السلام عليك ياپتروكلوس فلقد ثأرت لك ! السلام عليك فأنت خيرٌ حياةً من كثيرين ممن ينعمون بالحياة ، وإن تكن تسبح فى لا نهاية هيدز !

هاك غريمك هكتور سأتركه جزر السباع وكواسر الطير ، وسأضحى لك باثنى عشر من خير شباب إليوم ... أذبحهم عند قدميك بيدى !

« إبكوا بتروكلوس يارفاق ! ... »

فيبكى الميرميدون على بطل أبطالهم ، ويُعْوِلون حتى تخفق السماء بأناتهم ، وتضطرب الأرض بزفراتهم ، ويمتلىء الهواء من حولهم أسى وشجوناً !

ويقبل الهيلانيون من كل فج يهنئون ويعزون : يهنئون بقتل هكتور ، ويعزون ، ويا حرَّ مايُعَزُّون ، فى پتروكلوس !

ويمتلىء بهم شاطىء الهلسپنت(١) ؛ ويأمر أخيل رجاله فيأتون بالشاه والظباء ، وبكل عجل جسد وخنزير سمين ؛ وتؤجج النيران ، ويسطع الشواء حتى ينضج ، وتكون وليمة يقبل عليها القوم أيما إقبال . . . إلا أخيل . . . المنعكف وحده يذرف الدموع على پتروكلوس .

وأمر أجا ممنون بماء ساخن يغسل به أخيل ما عليه من نضح الدم وغبار المعركة ، ولكن أخيل يأبى إلا أن يظل النضح ويبقى الغبار حتى يتم تحريق پتروكلوس ، وحتى تنتهى المراسيم الدينية التى تقتضيها السماء . . . ويفرضها پلوتو (٢) على موتاه !

وتفرق الهيلانيون بعد أكل شهى وري ، ونهض الميرميدون إلى خيامهم يخلون عددهم ويستجمون من عناء اليوم الحافل ؛ ولبث أخيل وحده على الشاطىء الشاحب يرقب أواذيه الصاخبة ، ويرى إلى أعراف الموج تنقطع هنا وهناك ، وترتد ثم ترتد حتى تغيب فى لانهاية الماء !

ثم غفا إغفاءة فتمدد على العشب ، وأسلم جفنيه لنوم عميق .

ورأى ظلا حزينا يطيف به ، ولا يكاد يبين ، فتقلب ذات اليمين وذات الشمال مما تأخذه الرؤيا به ، ولكن الشبح مايفتأ يهوم ثم يهوم ، ويقترب ثم يقترب ، حتى يكون عند رأسه ؛ وحتى يقر الناثم فما تبدو منه حركة ، ويسكن فما يتردد فيه نفس ، ويحسر الزائر لثامه ، فإذا هو پتروكلوس ! !

لقد أقبل روحه الكبير يتحدث إلى مولاه ، فيقول :

« أخيل ! أهكذا تنام ملء عينيك وتدع صديقك يهيم فى مملكة

---

(١) الدردنيل (٢) هو رب الدار الآخرة .

الظلمات دون أن يؤذن له بعبور ستيكس الفائض بالحميم ، ليقر فى عشه وآته الأخرى مع المؤمنين ! إننى ياصديقى سأبقى طريداً شريداً ما دمت أنت متوانيا عن تأدية الطقوس التى يتطلبها پلوتو وتفرضها السماء !

ماذا تبتغى بعد أن ثأرت لى ياأخيل ! ألا يشجيك أن أظل معذباً فى هذا التيه الذى لا نهاية له ، كاسف البال مسبوه اللب ، لأنك تأبى أن تؤدى لى فرائض الآخرة !

أتحسب أنا ملتقيان فى دنياك كرة ثانية ياأخيل ، فأنت تنتظر هذا اللقاء ؟ لا ، لا ياصديق ؛ نحن لانلتقى إلا هنا ! فى هذه الدار الجميلة الهادئة التى لاصخب فيها ولا ضجيج . . . سنلتقى هنا . . . وسنلتقى سريعا . . . ولن أزعجك إذا أخبرتك بما علمته هنا ! . . . إنك ملاق حتفك تحت أسوار طروادة . . . لاتنزعج ياأخيل ، فأنت بطل ، والأبطال أمثالك لا يرهبون الموت ، والبطل الذى لا يجرع الكأس طافحة فى حومة الوغى يموت موتة لاتشرفه . . . فاطمئن ! إنما ذكرت لك ذلك لأن لى رجيّة عندك أتمنى لو أديتها لى . . . ذلك أن توصى فتدفن رفاتك فى نفس الرمس الذى يضم رفاتى ، لنظل آخر الدهر متقاربين ، كما كنا أول الدهر متقاربين ، ولنقضى أحقاب الموت فى مربعٍ معاً ، كما قضينا شرخ الشباب فى ملعب معاً .

إيه ياذكريات الماضى السعيد !

أبداً لن أنسى يوم حملنى مولاى الأمين أمفيداماس من نجاد أوبوس إلى بلاط بليوس ، حيث نشأت وترعرعت فى ظلال القصر الذى ترعرعت فيه يا أخيل . . . وأبداً لن أنسى هذا الحنان الذى كانت

تغمرنى به ذيتيس ، أمك الرؤوم ، حتى اشتد ساعدنا ، وسار الركبان باسمينا فى كل ناد .

هلم يا أخيل ... انهض يا زعيم الميرميدون . . . واذكر ما قلته لك »

ويذرف أخيل عبرة غالية ، ويجيب پتروكلوس فيقول :

« پتروكلوس ! إلىَّ يا أعز الناس علىَّ ! سأفعل كل ما تريد ، ولكن ... اقترب ... اقترب قليلا ... لِنَسْتَمِرَّ من أحزاننا يا أخى ! هب لى أن أعانقك فأنا مشوق إليك ! »

وهب من نومه مذعوراً ماداً ذارعيه لعناق پتروكلوس ، ثم ضمهما فجأة . . . ولكن !

وا أسفاه ! . . . لقد ضم أخيل إليه الهواء . . . ! لأن الشبح العزيز قد ولى بعيدا عنه . . . هناك ... هناك ... فى ظلمات السُّفل ... فى ديجور الدار الآخرة ... فى مملكة پلوتو الجبار ... حيث الأرواح والأشباح . وحيث العذاب والنعيم . . . !

وصرخ الزعيم المفئود صرخة زلزلت عماد المعسكر ، واجتمع لها القادة مشدوهين مروّعين ، وروّعهم أكثر هذا الحديث الطويل عن الرؤيا المشجية ، فأنفذ أجامنون الملك عصبة قوية إلى غابات الصنوبر والشاهبلوط القريبة ، فجمعت أحمالا ثقالا من جذوع الأيك وحطام الدوح اليابس ، وأقبلت فكومت ما جمعت كومة واحدة عالية ، ثم أمر أخيل جنوده فاصطفوا حول الكومة بعَدَدهم وعُدَدهم وخيولهم وعرباتهم ، وأقبل فوج منهم يحمل جثمان پتروكلوس ، موارًى فى شَعَرٍ كثير انتزعه الفرسان من رؤوسهم حزنا على قائدهم بالأمس ، وكان أخيل يتعثر خلف القتيل

وقد حطمه الحزن ورزأته المصيبة فى أعز أصدقائه ، وغشيه من الهم مالو كان بعضه يوضح الضحى لأحاله ليلا من الوجد مظلما ... ونزع شعر رأسه هو الآخر فغطى به وجه صاحبه ، ومد ذراعيه المرتجفتين فرفع الجثمان الطاهر ، يعاونه نفر من الميرميدون ، ووضعوه فوق الكومة التى تسامت وسمقت حتى غدا ارتفاعها مائة قدم أو تزيد . وأمر أخيل فذبحت ألوف من المجول والخنازير والنَّعم ، ونزعت عنها شحومها جميعا ، فوضعها بيده على الكومة من حول پتروكلوس ، ثم أشار إلى حملة الزِّقاق فطفقوا يصبون الزيت والعسل المصفى ليزيدا فى ضرام الوقود

وارتفع ضجيج بعيد وضوضاء ، فتلقّت القوم ، وإذا فريق من الميرميدون يسوقون الشبان الطرواديين الإثنى عشر ، الذين أسرهم أخيل فى ملحمة الأمس ، وقد كبلوا فى الأصفاد ، ورهقتهم فترة مظلمة من الروع والحزن ، فلما شارفوا ، تقدم أخيل المغضب المُحْنَق ، فاستل خنجره ، وشرع يمسح بأعناقهم ويبقر بطونهم ، ويروى سنانه من قلوبهم . . . والبشرية البائسة تتلفت يمنة ويسرة . . . وتتعذب . . . وتبكى !

وأمر الزعيم فصفت الضحايا الأثنى عشره من حول الكومة .

أما هكتور ! فقد حدجه أخيل بنظرة ساخرة ، وأقسم ألا يحرق جثمانه فينفذ روحه إلى هيذز ، بل يتركه ثمة حتى تنوشه الطير ، وتأكله كلاب البرية ، وتلقى عظامه فى اليم ، غير كريمة ولا مرجوة !

بيد أن منظراً عجبا خلب ألباب القوم ، وأذهلهم عن أنفسهم . . . ذلك أنهم رأوا إلى شبح جميل أبيض ، يصب دهن الورد فيجعل منه حَنُوطاً مباركا لجثمان هكتور ، ورأوا كذلك إلى ضبابة ذات أفياء وظلال

جاردة تقف من فوقه فتذود عنه أشعة الشمس المحرقة حتى لاينتن أو يتعفن . . .

ماذا ؟! آه ! إنها فينوس الوفية التى تصب دهن الورد فوق هكتور ، وإنه أپوللو المحزون الذى ينشر الضبابة من فوقه لتقيه من الشمس وتذود عنه حرارتها !

وصلى أخيل صلاة قصيرة ، ونذر لآلهة الريح ، إذا هى أقبلت تروّح على النيران حتى تذكو ، أن يذبح لها ويقرب لها القرابين ! وما كاد يفرغ من صلاته ، حتى تقلب البحر واضطرب . ومار اليم واصطخب ، وثارت العاصفة الهوجاء فى بطن الدأماء ، وأقبل زفيروس وإخوته آلهة الريح فحاصروا الكومة ، وما هى إلا لمحات حتى كانت ضراما فى ضرام ، ولظى يتأجج فى لظى .

وسكنت اللهب ، وخفت أوار النار ، وتقدم أخيل و حملة الزقاق فصبوا على الجمر خمرا حتى خبا .

وتقدم نفر فرفعوا رفات پتروكلوس وهم يبكون ، وأقدم أخيل فوضعها بيديه فى إران[1] من الذهب ، وأشار إلى بعض أصحابه فحفروا فى الأرض حفرة كبيرة عميقة . وأسرع هو فوضع الإران فيها ، بين أنين الجند ، وبكاء القادة ، وزلزلة الأرض والسماء . ! !

وهيل التراب على الميت ، وعمل الكل فى ذلك حتى كانت كومة عالية من الردم ، ستظل آخر الدهر رمز البطولة الخالدة ، وتحية الدار الآخرة لهذه الدنيا المشحونة بالأشجان ! !

---

(١) تابوت

وكان من دأب الهيلانيين إذا مات أحد أبطالهم أن يحرّقوه كما حرّقوا پتروكلوس، ثم تتلو ذلك حفلة ألعاب يشترك فيها أبطالهم، ويساهم فيها الجندى الصغير إلى جانب القائد العظيم، وقد يفوز عليه فينال الجائزة من دونه، وكانوا يعدون هذه الحفلة تتمة للجناز لا يكمل إلا بها؛ فلما انتهوا من إقامة الشعائر الدينية للشهيد الكبير نهض أخيل فأعلن القوم ببدء حفلة الألعاب ثم دعا للمشاركة فى سباق العربات الحربية، وعدد الجوائز؛ فذكر أن للفائز الأول غانية من أبرع غانيات طروادة جمالا، وأوفرهن حسنا، وأنبههن فى القيام بشئون المنزل، ثم آنية عظيمة من الذهب الخالص، غالية الثمن، عالية القيمة، لا تقدر بمال لما بذل فى زخرفتها ونقشها من فن، وما أضفى عليها من عبقرية، وأن للفائز الثانى مُهْرة صافنا تسبق الريح وتلحق البرق، وللثالث كوبا من الفضة الناصعة، عظيم القدر، غالى الثمن، وللرابع بدرتين من الذهب الإبريز. وللخامس إبريقا فضيا للخمر، وكأسين للشراب.

واشترك فى هذا السباق لهاذم أبطال الإغريق، وصناديدهم الصيد؛ وكان أول من نزل إلى الحلبة يوميلوس الملك ابن أدميتوس العظيم، وتلاه ديوميد الحلاحل ابن تيديوس، ثم منلوس سليل السماء، وفرع الآلهة بن أتريوس الكبير؛ وكان رابعهم أنتيلوخوس المشهور بن نسطور الحكيم، الذى أخذ أعين القوم بقامته السامقة، وعوده اللدن، وقوامه الأهيف السمهرى الممشوق، والذى تقدم إليه أبوه فقبله فى حر الجبين، وزوده بنصائحه الغوالى، وكان خامسهم مريونيس الهائل، صاحب الذكر البعيد، والشأو المجيد، فى كل مثار نقع وفى كل ميدان.

وكان على الفارس العظيم فونيكس أن يلاحظ السباق ، فكان فى مركزه هذا حكما عدلاً وقاضياً ماهراً ...

وأعطى أخيل الإشارة ... فانطلقت الجياد تزلزل الأرض ، وتثير عجاجة قاتمة من ثرى الميدان . وتضرب الصخر بحوافرها فينقدح الشرر ، ويميد جانب الجبل ، وتتصل أبصار القوم بالريح التى تتعثر فى أدبار الخيل ، ويتحسس كل منهم قلبه ، متمنيا قصب السبق لصاحبه الذى هو من شيعته ... ثم ... تتدخل الآلهة فى هذا اللهو البرىء فتغير دفة المقادير ، وتتحمس مينرفا للبطل العظيم ديوميد ، حينما ينزع أپوللو السوط من يده ويلقى به إلى الأرض ، فتعيده إليه ، وتلحظ أن أپوللو يصنع هذا ليظفر يوميلوس ويفوز بالسبق ، فتذهب من فورها إلى ابن آرميتوس وتنزع إحدى عجلتى عربته ، فيهوى البطل ويوشك رأسه ان يتحطم على الجلاميد المتراكمة على جانبى الطريق ...

وتعدو الخيل ...

وتخفق قلوب القوم ... ثم ينظرون فيرون إلى ديوميد قد أنهى الشوط . ونزل من عربته فصافح فونيكس ، واستحق بذلك الجائزة الأولى . وتلاه أنتيلوخوس ، ثم منلوس الملك ، ثم مريونيس ، وكان أبطأهم .

وسكن القوم قليلاً ، وإذاهم يبصرون يوميلوس المقدام يسوق جياده ، وخلفها عربته التى حطمتها مينرفا ، فيثير مرآه قهقهة عالية وصخباً ، لايقطعهما إلا أخيل بصيحة راجفة تعيد إلى الملأ وقارهم ، ويقضى ليوميلوس بالجائزة الرابعة ، لأنه لولا الحظ العاثر لكان صاحب الجائزة الأولى ! ! » .

واشرأبت الأعناق حين أعلن أخيل عن دورة الملاكمة .

وشارك فيها من الأبطال إپيوس ، فتى مفتول السواعد مكتنز العضل ، رحب الصدر ، له قبضتان كأنهما حراشف جذور بارزة من جذع شجرة ، ألقت بها الريح فى يوم عاصف ؛ ونهض إلى جانبه شاب قوى بادى البأس ، لم يلبث القوم أن عرفوا فيه يوريالوس بن مسيتوس ، الذى طالما شارك فى أولمبيات الملك أودپيوس وكان أبداً فتاها وفارس حلبتها .

وأعطيت الإشارة فانقض الأسد على الأسد ، وارتطم الجبل بالجبل ، ولبث البطلان يكيل أحدهما للآخر لكمات كانت تقشعر لها أبدان الآلهة ، وتنتفض من هولها أفئدة الرجال ، ثم لاحت فرصة للبطل إپيوس كال فيها لخصمه لكمة فى ذقنه (١) فألقته فوق أديم الأرض بين هتاف الجند وضجيج القادة ، وبذا استحق إپيوس الجائزة الأولى ، وهى بغل أشهب مسرج ، فى شدقيه لجام من الحديد ، يتصل به عنان من الفضة . أما يوريالوس فقد أفاق من اللكمة القاسية لينال كأسين جميلتين أعدتا للفائز الثانى ...!

وأرهفت الأسماع حين نهض أخيل يعلن عن دورة المصارعة التى لم يجرؤ أحد أن يتقدم إليها حتى أوشك زعيم الميرميدون أن يلغيها لو لم ينهض أوليسيز ويتبعه أجاكس متثاقلين ! !

وأهطعت الرقاب ذاهلة نحو الزعيمين الهولتين ، وشخصت الأبصار ترى إلى الجبل يأخذ بتلابيب الجبل ، والبحر ذى العباب يصاول البحر

---

(١) Upper—cut ? ? ?

ذا العباب ، والشهاب الراصد يندق على الشهاب الراصد ؛ لاهذا ينال فرصة من ذاك ، ولاذاك يرى ثغرة ينفذ منها إلى هذا ، والقلوب فى أثناء ذلك تخفق وتخفق ، والقشعريرة الباردة تشيع فى أصلاب هؤلاء وهؤلاء ، كل يتمنى أن يفوز رجله ... ... حتى ثارت عجاجة حول البطلين انجلت عنهما صريعين فوق الأرض ، لم ينل أحدهما من الآخر ! ! فكان القضاء العادل من السماء !

وحاولا أن يعودا إلى صراعهما الأول ، فحال بينهما أخيل ... لأن الدورة كانت لاتنتهى إذن ... فكان بحسبهما أن ينالا جائزتين متساويتين ! !

وبدأ سباق العدائين ، واشترك فيه أوليسيز وأچاكس أيضا ، ثم أنتيلوخوس الذى استطاع ان يفوز بالجائزة الأولى ، لما كان يبدو على منافسيه من نصب ، من جراء صراعهما السابق .

وتبع ذلك سباق المبارزة ، وشارك فيه أچاكس أيضا ؛ ثم ديوميد العظيم ، الذى استطاع بعد لأى أن يجرح خصمه فى عنقه ، فينبثق الدم من الجرح ، فينال الخزام الفضى بذلك !

ثم كان حمل الأثقال وهو سباق يحبه الإغريق كثيراً ، وقد شارك فيه بوليبوتيس وإپيوس وليونتيوس ... ثم ... أچاكس ... ! الذى فاز بالجائزة الأولى ..

وتلا ذلك سباق الرماية ، واشترك فيه البطلان تيوسين ومريونيس ، وفاز الأخير بأسنى الجائزتين للبراعة الفائقة التى أبداها فى إصابة الغرض (وكان حمامة تنطلق وتنطلق ... حتى تكون خلف السحب ... ! ؟)

ثم كان سباق إصابة الغرض بقذف الرمح ، وقد تقدم إليه قائد الحملة العظيم . . . أجا ممنون الملك . . . ثم . . . مريونيس الشجاع وأحد أتباع الملك إيدومنيوس ... وقد هال أخيل أن ينافس أحد قائد الحملة ، فتقدم إليه معترفاً بتفوقه على الجميع فى كل شىء ، وقدم له الجائزة الأولى ... ثم قدم الرمح لمريونيس ... وكانت مجاملة طيبة من أخيل تقبلها الجميع بثغور باسمة .

پريام الحزين

تفرق القوم إلا أخيل . .

لقد أوهنه الحزن ، وشف قلبه الأسى ، وكأن قتله هكتور لم يشف ما فى نفسه من شجو ، ولم يخفف عنه ما يلقاه من عذاب البعد عن أعز أصدقائه . . .الفقيد پتروكلوس !

وخرج لبعض شأنه ، فرأى جثة عدوه فى طريقة ، تثير فى نفسه الكوامن الشواجن ، فينقض عليها كالمجنون ، ويثبتها ركلا بقدمه ، وكلوما بخنجره ، ويربط القدمين فى عربته ، ثم يلهب جياده بسوط نقمته فتعدو كالريح حول قبر پتروكلوس ، جارّة وراءها جثمان هكتور ، تقلبه فى الأديم المُنَدَّى ، وتلُتّه فى التراب الهامد .

ويكون أپوللو مطلا من سحابة سارية ، فينتابه من الهم على صديقه ما يثير فى قلبه الحنان المقدس ، ويلقى درعه الذهبى على القتيل المهين ، فيقيه الدرع من الصخر والحصى . .

أما ڤينوس ! فإنها ترفّ هى الأخرى فوق الجثة ، وما تنفك تصب عليها من خمر الأولمب ما تنضح به من دمائها !! وطلاتها (١) ! !

وتطلع الآلهة من ذروة جبل إيدا ، فترثى لما يحل بالميت المسكين من هوان ، ويلحظ أپوللو ما ينقدح من عينى سيد الأولمب من شر ، فيجد

---

(١) الطلاء : دم القتيل

فرصته . وينهض خطيباً مصمماً كيما يثير زيوس على أخيل ... عسى أن يحل عليه غضبه ... بعد إذ حماه طويلا . . .

وينجح أبوللو فى إثارة رحمة الآلهة، وتأليبهم على زعيم الميرميدون ، وجعلهم صفًّا عليه واحداً ، لولا أن نهضت حيرا مغضبة ، فانطلقت تدفع عن أخيل . وتُذكر سادة الأولمب بهذا المهرجان الفخم الذى أقامه پليوس أخوهم ونجيهم . هناك ... هناك فى أعماق المحيط احتفاء بقدومهم للمشاركة فى عرسه ، وبنائه على ذيتيس المسكينة ... التى يعلم الجميع أنها ثكلى ... وإن لم تفقد أخيلاً بعد !

وتذكرهم حيرا بالموثق الحرام الذى قطعوه على أنفسهم أن يباركوا نسل پليوس ، وأن يدفعوا عنه الضر ... حتى تنفذ مشيئة ربات الأقدار

ويحار زيوس بين سخط الآلهة ، ودفاع حيرا ... ثم يبدو له أن ينفذ رسولة الأمين (إيريس) إلى ذيتيس الحالمة فى أعماق البحر ، فتوقظها وتلقى إليها برسالة السماء ...

« ... أن هلمى من فورك هذا إلى سيد الأولمب ... فإنه يأمرك أن تسعى إليه فى مهمة تعرفينها فيما بعد ... »

وتنتفض الأعماق بالأوسيانيد والنريد وسائر عرائس البحر وعذارى الماء ... يسعين خببا فى إثر ذيتيس ... حتى تكون فى أفق جبل إيدا ... فينثنين . . تاركات مولاتهن فى ثوبها الحريرى الأسود ، وزفرات حارها القاتم تسعى وحدها حتى تكون فوق الشبج ، ومن ثمة تعرج فى الأديم الأزرق حتى تلج أبواب السماء ...

وألفت حشد الآلهة لايزال يتحاور ولايزال أبوللو يحاج حيرا ، وحيرا

تقرعه ، حتى نظر زيوس فرأى ذيتيس تتهادى فى طيلسانها الأسود ، ووجهها المشرق المترع بالمفاتن يزيده الحزن روعة ، ويضفى عليه الأسى جلالا ... فتبسم سيد الأولمب ، واهتز فوق العرش ، ثم قال : « مرحبا ذيتيس ! فيم هذا الأسى يافتاة ! آه ... مسكينة ... ! ولكن أصغى إلى : لقد دعوتك إلى الأولمب لتذهبى برسالتى إلى أخيل العزيز ، فتوصيه بجثة هكتور ، لقد أثار بما ينزله بها من هوان غضب الآلهة جميعا ... بل لقد أثار غضبى أنا أيضا ... أنا ... حاميه ومنقذه ومرشده فى كل مثار نقع ... إذهبى إليه فأمريه أن يقلع عن هذه المُثْلة ، فإنه لاشىء يحنق الآلهة مثلها ... وليُسَلم القتيل لأهله ، فهذا خير له ، وليقبل القَوَدَ العظيم الذى يقدمه إليه بريام الملك الشيخ الحزين ... الذى حطمه الرزء ، وعظمت عليه البلية ، وصدعت قلبه المصائب ... أما نحن ... فسننفذ إيريس إلى طروادة تأمر الملك بإعداد القوَد ، والتجهز للقاء أخيل فى معسكره . . وسنرسل ولدنا هرمز إلى بريام يحدو ركبه إلى معسكر أخيل ويعمى أبصار الميرميدون حتى لا يثوروا به ، وحتى يكون أمام زعيمهم وجها لوجه ...

« ذيتيس ! حَسْبُ أخيل ماحل بابن بريام ... »

وهمت ذيتيس فانطلقت إلى ولدها ، حيث ألفته يتناول وجبة الصباح ، فأبلغت إليه الرسالة الأولمبية وعيناها تفيضان بالدمع ، وقلبها يخفق ويضطرب ، ونفسها تذوب على شبابه الغض حسرات ...

وهش أخيل لأمه ، وتقبل رسالة الإله الأكبر قبول احسنا ، فنهضت ذيتيس وعادت أدراجها ، بعد إذ طبعت على جبين ولدها قبلة خاطفة ،

كانت .. وا أسفاه ... آخر وداع منها له فى الحياة ...

* * *

وانطلقت إيريس إلى پريام الملك ، فوجدته ما يفتأ يبكى هكتور ، ومن حوله أبناؤه التسعة ، خُضراً كأفراخ القطا ، نُضراً كأكمام الزهر ، والرجل مع ذاك يقلب فيهم عينين تفيضان حسرة ، ووجها يتشح باليأس والهم ، وإلى جانبه جلست هكيوبا المرزأة تئن وتتفجع ، وترسل من أعماقها زفرات الهم والأسى ...

وبلّغته إيريس رسالة ربه ، وعادت أدراجها إلى الأولمب ، وما كاد الملك يخبر زوجه بما أوحى إليه من ربه ، حتى اضطربت هكيوبا وأعولت وطفقت تضرب صدرها المتهدم بيديها الضّعيفتين لما اعتزم زوجها من تنفيذ ما أشارت به السماء ، والذهاب إلى أخيل يرجوه أن يهب له جثمان هكتور ، خشية أن يأسره زعيم الميرميدون ويستبقيه عنده رهينة حتى يسلم الطرواديون ... !

ولكن الرجل كان مؤمنا لا يتسرب إلى قلبه الشك بما رسمت له الآلهة ، ولا يساوره ريب فى أى مما تشير به أربابه ؛ فزجر الملكة ونهض إلى خزائنه العامرة بالتحف ، فتخير اثنى عشر قرطقا من أغلى ما نسجت مصر ، ومثلها من المعاطف المصنوعة من القاقم والسنجاب ، وعددا كبيرا من الوسائد الرائعة والطنافس ذات التصاوير ، ثم أمر بعشر بدر فأحضرت من بيت المال ، وبدستين كبيرين من الذهب ، ذوى قوائم من الفضة ، وأيد من الجوهر ؛ وبأربع قدور مهداة من ملوك الشرق ، تزن إحداها ما يملأ خزائن بن بليوس ذهبا . ، وبكأس من الإبريز الخالص بها من

النقوش والصنعة ما يعجز عن مثله عباقرة الجن . . .

أمر پريام بكل أولئك فوضعت فى صناديق كانت هى الأخرى تحفا من صناعات مصر والشام والهند . . ثم فوقها تصاوير فارس . .

وصاح بأبنائه التسعة فهرعوا من كل مكان . . . پاريس المشئوم وهيلانوس وأجاثون ، وپامون وأنتيفون وپوليت ، ثم ديفوبوس وهيبوثوس وديوس . . كلاب الأزقة كما كان يدعوهم أبوهم . . . « ليت المنية التى تخطفت هكتور تلقفتكم وخلت سبيل هكتور . . . أوليتها أصابت ألف ألف من أمثالكم وعميت عن ليكاون وپوليدور . . ؟ »

وأمرهم فصفوا الهدايا ورفعوها فوق ظهور البغال ، وما ثقل منها وضعوه فى عربة كبيرة يجرها بيمان ؛ وتقدمت هكيوبا فصبت على يدى زوجها خمراً يطهر بها ، وأخذ هو فى صلاة طويلة لزيوس . . أن يحميه ويوفيه . . ويرشده فى طريقه إلى أخيل ، ويرسل إليه الرسول الذى وعد ، يقوده إلى فسطاط زعيم الميرميدون !

ولم يكد ينهض من صلاته ، ويختم توسلاته ، حتى رف فوقه طائر ظل يضرب الهواء بخافقيه ، ويهوم ويدوم ، ويرتسق فى سماء الهيكل تارة ، ثم يستقر عند المذبح أخرى ، حتى أيقن الملك وملؤه أنه الرسول المنتظر ، والقائد المنشود ، فخفقت قلوبهم ، وفرحوا واستبشروا .

وتقدم إيديوس الحكيم فألجم البغال ، وأسرج الخيل ، وشد البهائم إلى عربة الملك ، وأقبل پريام فركب ، وأصدر أمره إلى حكيم طروادة وفيلسوفها ، فسار بين يدى الركب ، يحدوه ويباركه ويضمن له رعاية السماء

أما الطائر الميمون فقد انتفض انتفاضة هائلة ، وراح يحلق فوق

طروادة . . . . ثم غاب عن الأبصار . . . إلى أين . . . ؟ إلى حيث لا يدرى أحد !

وتهادى الركب . وانطلق إيديوس يحدوه ، حتى كان عند مقبرة إليوس الأكبر ، وحتى كانت طروادة الخالدة وراءهم ، حالمةً فى غبشة المساء ، ساهمةً مستسلمة ، كالفكرة الشاردة فى دماغ الشاعر الغرير .

وغابت الشمس فى مياه الهلسپنت ، واختلط البنفسج الشاحب بسواد الليل ، ونقّت ضفادع الأباسة فى فضاء البرّية ، فملأت القلوب وحشة ، وأرسلت فى المفاصل رعدة ، فلم يكن بد من أن ينيخ القوم حتى يأذن القضاء بالرحيل .

وفيما كان إيديوس يسقى الدواب من الغدير النائم فى كِلّة الغسق ، إذا شاب يافع يقبل نحوه ويسأل عن الملك . . . ويكون بين يديه بعد لحظات . . .

ويسأله الملك عن شأنه فيحدّث أنه جندى آبق من جنود أخيل ، وأنه ينصح للملك ألا يجازف بنفسه وبما يحمل من الشّهى والعطايا فى هذه الرحلة المهلكة ، التى قد تنتهى بما لا يدور الملك فى خَلَد ، أو يقع له بحسبان ، ولكن الملك يبدى تصميمه ، ويلح فى سؤال الشاب عن هكتور . . . « ألا يزال مُسجّى بين يدى أخيل يشفى بمرآه حَرَدَه ، أم هو قد أسلمه للسباع وجوارح الطير تنوشه وتتغذى به ؟ . . » ويطمئنه الشاب اللّعاب الداهية ثم يرثى له فيعده أن يكون قائده إلى فسطاط أخيل . . « لأن أحداً من الناس لا يستطيع أن يخترق صفوف الميرميدون الدواهى ما لم يكن مخاطراً بنفسه ، أو ملقياً بيديه إلى التهلكة . . . » ويستسلم الملك الشيخ ، ويلقى فى يدى الجندى الشاب بزمامه ، ويأذن له

فيمتطى الجواد الأمامى الذى يتقدم سائر الدواب ، وتبدأ الرحلة إلى مربض الميرميدون .

ويتحدث الشاب إلى الملك ، ويتحدث الملك إلى الشاب . . حتى إذا كانا قيد خطوات من معسكر أخيل ، مد الشاب ذراعيه المفتولتين ، ولفهما حول جذع الملك ، ثم رقاه رقية قصيرة ، فاذا سأله الملك عما يبتغى بها أنبأه .. « كى لا تمتد إليك عين ولا يلمحك أحد ، ولا يحس بمسراك أىٌّ من أولئك الميرميدون . . » فيسكن جأش بريام الشيخ ، ويطمئن قلبه ، وتتضاعف ثقته فى الجندى الشاب ..

ويكون فسطاط أخيل تلقاءهما !

فينهض الشاب من جانب الملك ، ثم ينتفض انتفاضة تكشف عن حقيقته ، ويقول ضاحكا : « أيها الملك أنت الآن فى جوار أخيل ، وعليك أن تلقاه فى غير هيبة ولا وجل ، فادخل غير مستأذن ، ولتكن رابط الجأش ساكن الروع ، واركع بين يديه ثم اذرف أغلى دموعك حتى تُلين ما قسا من قلبه ، وتحجز من مشاعره ، واذكر له حاجتك فانه رادٌّ عليك جثمان هكتور . . وثق أن السماء قد قضت بذلك ، ولا مَردَّ لقضائها . أما أنا . . فلا تنتظر أن أسعى بك إلى زعيم الميرميدون . . وليس سراً أن أذكر لك أننى . . .. هرمز .. قد أرسلنى أبى اليك لأجىء بك إلى هذا المكان . . إنهض . . إنهض .. ماذا أخافك منى ؟ .. أجل .. أنا ربك .. ولكن لتقصر صلاتك هذه ، فالفرصة تكاد تُفلت . . تشجع يا بريام . . قف . . آمرك . . »

وينهض الملك من غشيته التى كادت تذهب به حين ذكر له الشاب أنه

هو هرمز . . . هرمز نفسه الذى ذكرت له إيريس أنه سيقوده إلى فسطاط أخيل . .

وينظر پريام فيرى إلى الجندى الشاب يرف فى الهواء المُنَدَّى ، ثم يرتفع ويرتفع ، حتى يكون فى السماء التى تتفتح له أبوابها ! ؟ .

ويصلح الملك من شأنه ، ثم يتقدم بخطى وئيدة إلى فسطاط أخيل ، ويدخله . . ويرى زعيم الميرميدون فى الصدر ، وبين يديه وزيراه العظيمان أوتوميدان والكيموس ، ثم قادة الجند منتشرين هنا وهنا . . يهمسون ولا يكادون يبينون . .

وكان السماط لا يزال أمام الزعيم ، وزِقاق الخمر لا تزال تقبل الكؤوس المفعمة ، والشواء العظيم يملأ الخياشيم بقتاره . . . فلم يبال پريام . . . بل تقدم وتقدم ، حتى كان أمام أخيل . . . فركع ذاهلاً عن نفسه ، ولف ذراعيه حول ساقى الزعيم ، وراح يوسعها لثما وتقبيلا ، ويعطرهما بأحر العبرات ! .

وشُدِه أخيل ! . .

بيد أنه كان يعلم من أمر هذه المفاجأة كل شىء ، فلم يزد على أن قال :

« پريام ! ؟ » .

— « أجل يا بنى ، أنا پريام ! . . . »

وبهت القادة مما رأوا ، وأذهلهم ما سمعوا ! .

أهذا حقاً هو پريام ملك طروادة يبكى بين يدى أخيل ويلتحب ؟.

إذن . . فيم هذه الحرب ؟ . . وحتام ذلك الصراع ؟ . . وإلام تذهب هذه الموج ؟ . .

— « أجل يا بنى . . أنا هو . . أنا الرجل المُرَزَّأ المحزون الذى قتلت أبناءه ، وهرقت دماءهم لأنهم يحاربون من أجل وطنهم ، ويذودون عن بلادهم . . سميت اليك . . اليك يا أخيل العظيم ، لأمطر هذه اليد التى ذبحتهم بدموعى ، ولأوسعها لثماً وتقبيلاً ؟ ؟

أتمنى يا بنى أن تعود قريبا إلى أبويك سالما ، فيهش أبوك للقائك ، وتبش أمك لعناقك ، ويفرح ذووك بك ، لأنك عدت اليهم بالنصر والفخر . . . أستغفر الآلهـــة بل عدت اليهم سالما من نكبات الحرب وكوارثها . . . فهل أكون قاسيا أن أرجوك . . . حين تعود إلى ديارك وتلقى فيها أحباءك . . . أن تذكر أن أبوين آخرين قد خلفتهما وراءك يشقيان ويبكيان . ويلبسان السواد أبد الدهر . لأن أبناءهما لم يعودوا من ساحة الحرب كما عدت أنت ، بل هم قد سقطوا فوق أديمها ، مضرجين بدمائهم ، شاكين إلى أربابهم ما حل فيها بهم . تاركين آباءً شيوخا فانين ، وأمهات ضعيفات معولات . وقلوبا تتفجر أسى عليهم . وعيونا تختلط دموعها بدمائها من أجلهم . وآمالا يلطمن الخدود ويشققن الجيوب . ويتامى لاحول لهم ولاقوة على الزمان الغادر ، والحظ العاثر ، والصبر الجميل . . ؟ .

هل أكون قاسيا يا بنى إذا رجوتك أن تذكر ذلك أو بعض ذلك ، حين تعود إلى ديارك وتلقى أبويك الفرحين بك ؟ .

أخيل ! لم أسع اليك يا بنى إلا بأمر الآلهة ، ووحى سيد الأولمب أرجوك فى هكتور . .

وأحر قلباه يا هكتور . . ! وا أسفاه عليك يا ولدى ! . .

صَدَرْت إليك يا أخيل من أمر السماء أرجوك فى هكتور أن تسلمه إلىّ حتى تؤدى له فرائض الآلهة ، وطقوس الموت ، وما أحسبك إلا ملبيا ندائى الحزين ، حتى تتيح للآلاف المؤلفة من جنوده وذويه وزوجه وابنه أن يبكوه جميعا ، وأن يشيعوه إلى الدار الآخرة بما رضيت أن تؤديه لبعض أصحابك ، حتى تقر روحه ، ويؤذن لها فتلج إلى هيدز .

أخيل . . لبّ ندائى أيها الزعيم الباسل . . . لب نداء هذا الشيخ الضعيف . . . وارحم فيه هذا الذل الذى حمله اليك . . . وأسعده بتقبل هذه الهدية التى أمرت بها السماء . . . وإن كنت يا أشجع المحاربين فى غنًى عنها . ولا حاجة بك اليها ... »

وأحس أخيل كأنما تخاطبه السماء كلها بلسان هذا الشيخ المتهدم ، وكأنما الآلهة جميعا تنطلق من فمه لتكون بيانا ورحمة فى قلبه ، فأنهضه من بين يديه ، وأجلسه إلى جانبه فوق أريكته ، ثم أخذا معا فى بكاء حار طويل .

وتقبل أخيل هدايا الملك ، وأشار إلى أتوميدون وزميله فأخذاها إلى الأسطول ، ثم أمر الخادمات فغسلن هكتور بالماء الساخن المعطر بدهن الورد ، ولففنه فى مدارج بأكملها من كتان مصر ، وتقدم هو فوضعه على وسادة الموت ، وأشار إلى جنوده فرفعوه إلى إرابه ، ثم أخذ يهوّن على پريام ويواسيه ، ودعاه إلى تناول العشاء معه ، فلبى الشيخ وهو يعول ويبكى ... بكاء يفتت الأكباد ويذيب نياط القلوب . . .

وكان الليل قد انتصف أو كاد ، وكان پريام الملك قد لبث الليالى الطوال يتفجع على ولده ، ولا يذوق جفنه طعم الكرى ، فأحس بعد

العشاء بإعياء وجهد ، وميل شديد إلى النوم ، فصُفَّت له ولرجاله وسائد فاخرة ، عليها طنافس وملاءات من الهند ، واستأذن أخيل فاستلقى على متكئه ... وقبل أن يسلم عينيه للكرى . سأله أخيل أن تكون هدنة بين الجيشين المتحاربين حتى تؤدى كل الطقوس اللازمة لتحريق هكتور ، واتفقا على أن تكون هذه الهدنة لمدة أحد عشر يوما .

وفى الهزيع الأخير من الليل ، أقبل هرمز الكريم فأيقظ پريام الملك ، ونبهه إلى الخطر الذى يحيق به إذا أشرقت الشمس وأقبل أجاممنون وسائر القادة الهيلانيين ورأوا كبير أعدائهم ، وصاحب اليوم ، فى معسكر أخيل . . . هنالك يحجزونه لديهم رهينة حتى تسلم مدينته . . . « فقم أيها الملك وانج بنفسك ، وسأقودك إلى طروادة بحيث لا يشعر بك أحد ، ولا يحس الميرميدون لركبك ركزا ... »

ويسير الركب فى هـــدأة الفجر ، ويحدو هرمز القافلة حتى تكون لدى البوابة الإسكائية الكبرى ، فيسلم على الملك ويبارك الميت . . . ويعرج فى السماء ...

وتكون كاسندرا ، ابنة پريام الكبرى ، أول من يلمح الركب مقبلا فتبشر الأهالى المحزونين ، ويرتفع اللغط ، وتشتد الفوضاه ، ويتكبكب المواطنون حول العربة التى تحمل الإران حتى ليتعذر السير ويبطىء السعى فيصيح الملك بالملأ ، فتنفرج الطريق ، ويعم الصمت ، ولا يحس إلا وجيب القلوب وخفقانها .

وتقبل أندروماك فتذرى دموعها ، وتندب حظها ، وتبكى زوجها ، وتمزق قلوب الطرواديين مما يذيبها من أسى وحزن ، ووجد وكمد . .

وأم هكتور ! . . . ويا لمصاب الأمهات فى فلذات أكبادهن ، وأعز الأبناء عليهن ! ! ..

وهيلين ! ! والعجيب أن تبكى هيلين هى الأخرى ! ! هيلين الآبقة هيلين الأثيمة .. ! !

* * *

ويأمر الملك فينتشر الجند يجمعون الوقود من كل فج ، حتى تكون كومة عالية ، ويوضع الجثمان المبكى فوقها ، وتصب الخمر تحية لإله الموت وتكرمة ، وتشتعل النار فتكون ضراما(١) .

* * *

أنشد يا هوميروس !
يا شاعر الأحقاب الخالية !
يا صدى الزمان القديم !
أيها القيثارة المرنة فى أنامل الأيام !
أرسل من الأزل أنشودتك تملأ أسماع الأبد !
واعصف مع الريح ... ...
واهتف مع البلابل ... ...
وتقبل تحيات المعجبين .

---

(١) وهكذا تنتهى الياذة هوميروس بتحريق هكتور

مقتل أخيل

انتهت الهدنة ، واندلعت نيران الحرب كرة ثانية ، والتحم الجمعان توجج العداوة بينهما ثارات وثارات ؛ ولم يجد الطرواديين أن تنضم إليهم مليكة الأمازون تحارب بفصائلها فى صفوفهم ، وتشد بجموعها أزرهم ، فإن أخيل هو هو لم ينقص ولم يزد ... بل هو يزيد كل يوم ظمأ إلى دماء قاتلى صديقه وأحب الناس إليه ... پتروكلوس الشهيد ...

لقد انقض أخيل على مليكة الأمازون التى انقضت بدورها على جحافل الهيلانيين فأوقعت الروع فى نفوسهم ، وقذفت الرعب فى قلوبهم ... فلم يزل بها يصاولها ويطاولها حتى نهز منها نهزة أنفذ بها رمحه فى صدرها ، وعفر جبينها الملتهب بثرى المعمعة ، وجردها من سلاحها فإذا هى جثة هامدة ، وانكفأ أتباعها وبهن من الحزن على صاحبة الأمر فيهن .. ما صرفهن عن طرواده والطرواديين .

وإن أخيل ليصول فى الميدان ويجول ، وإنه ليرتفع بصره عفواً ، وعن غير قصد ، إلى البرج الشاهق من أبراج إليوم ، فوق البوابة الإسكائية إذا هو يلمح قمراً مطلا من شرفة البرج يربو بعينى ظبى ، ويهطع بجيد رئم ، ويشرق بخدين ناضجين من خدود ربات الخدور ، يرسلان على الساحة كلها سناء ورواء ...

من هى ؟ ...

من هذه العذراء البارعة التى تشرف هكذا على الساحة الحمراء فتطفىء

جذوات الغل المتقدة بين أضلاع أخيل ، وتضع حداً لهذه الثورة التى ظلت إلى تلك اللمحة تعصف بنفسه الغضبى ، وتحز فى قلبه المحزون ؟ ...

أوه ... ! ! إنها الأميرة الفتانة پوليكسينا ، صغرى بنات الملك الشيخ .. پريام البائس الباكى الحزين ...

لقد أرسلتها العناية لتشرف على الساحة الصاخبة ، ولتنظر إلى هذا البطل الخرافى الجبار الذى لم يعد بيت فى طروادة كلها إلا وفيه لسان يلهج بذكره ، ويتحدث عن شجاعته ، ويصف جبروته ... ثم لم يعد بيت فى طروادة كذلك ، إلا وفيه عين مؤرقة تبكى على عزيزها الذى قتله هذا البطل ، أو الذى سيقتله ، أو الذى يخشى عليه أن يقتله ... كأنه أصبح سفير هيدز إلى إليوم ، أو وزير پلوتو العظيم فى هذه الدار ! !

وأبصر أخيل بها ... ويالها من نظرة أنبتت فى قلبه دوحة من الحب وارفة ، ذات ظلال وذات أفياء ...

وظل الرمح يهتز فى يده ... ولا يصيب أحداً ... وظل هو يسارق النظر قمر البرج المطل مشدوهاً مسبوهاً ... لا يعرف لماذا شبت هذه الحرب ، ولماذا يقتتل هذان الجمعان ؟ ! ...

وانثنى من الميدان ينظر فى هذا الغرام الجديد ...

ولم يجد بداً من العمل لإحلال السلم محل تلك الحرب التى طالت وتتابعت عليها السنون ، من غير أن يظفر الهيلانيون بالطرواديين ، أو الطرواديون بالهيلانيين ، ومن غير أن يفكر أحد فى هذه المجزرة الشائنة التى تغتذى كل يوم بقطوف الشباب من زهرات الأمتين على السواء .

فياله من حب مهد لسلم ، لولا قساوة فى القلوب زادتها الثارات

عنفوانا . ولولا شرف أمة بأسرها تعبث به امرأة ، ولولا الإحن التى ذهبت بأبناء الملوك الصيد !

واستطاع أخيل أن ينفذ رسله إلى پريام يستعتبه ، ثم استطاع الرسل أن يخاطبوا الملك فى پوليكسينا على أن تكون أحب أزواج أخيل وآثرهن إلى قلبه ، فوعدهم الملك ، بعد إذ لحظ من افتتان ابنته هى الأخرى بزعيم الميرميدون ، أن تتم مراسيم الزواج حين تضع الحرب أوزارها ، وحين تنكشف هذه الغاشية عن طروادة ...

بيد أن الهوى المبرح قد ألح على قلب أخيل ، والصبابة العاتية قد جمعت أفانين من السهاد فى عينيه ، وطيف پوليكسينا يراوحه ويغاديه ويملأ عليه أمانيه ، ويتهادى أمامه فى كل نظرة ينفرج عنها هدبه ، أو غمضة يتناعس بها جفناه ! فلم يطق إلى صبر من سبيل !

وأنفذ رسله كرة أخرى فاتفقوا مع الملك على إجراء مراسيم الخطبة ، عسى أن تفل من غرب هذه الحرب القاسية ، أو تبزغ منها تباشير السلام المنشود !

وأعلنت هدنة ليوم أو بعض يوم ؛ وأقيم المهرجان الفخم فى صميم الحومة الرائعة ، وتقدم أخيل فصافح الملك ، وأعلنت الخطبة ، وانثنى الزعيم العظيم وقلبه يكاد يطفر من الفرح ، أن أصبحت له پوليكسينا ...

وما كاد البطل ينقلب إلى جنده ، حتى كانت فينوس توسوس إلى پاريس أن ينتهز الفرصة العزيزة النادرة ، ويريش سهماً من سهامه المسمومة إلى عقب أخيل التى لم تغمرها مياه ستيكس فيصميه ... فيرديه ! !

ووتر پاريس قوسه ، وأرسل السهم المسموم إلى عقب أخيل فنفذ

فيه ، وأنفذ فيه قضاء ربات القضاء ... اللائى فرغن الساعة فقط من غزل خيط حياته ، وقطعته أتروبوس[1] الهائلة بمقصها الجبار الفظيع .

وهكذا أنهى باريس الخائن تلك الحياة الحافلة بغدرة سافلة من غدراته التى توشك أن تنتهى !

* * *

واستطير الميرميدون ! وانقض أوليسيز كالعاصفة ينافح عن جثمان صاحبه ، واستطاع أن ينتقذ القتيل العزيز من أيدى أعدائه الجبناء ، وكان أجاكس العظيم يعاونه فى دفع الجموع الحاشدة التى تكاثرت حول الجثة تطمع فى عدة قتلكان ...

وانصرف الجيش الحزين يذرف دموعه على أخيل !

واجتمعوا حول الجثة المضمّخة بالطيب وحنوط المسك يحرقونها !

ووقفت ذيتيس تلقى على ابنها نظراتها الأخيرة ... وتذرف عليه دموع الوداع !

وكانت ثيابها السود تبكى معها ...

وكانت السماء كلها تذرف شئونها على أخيل ...

وعرائس البحر ساهمات على شواطىء الهلسپنت الفائض بالدم !

وپليوس المحزون يضطرب فى الأعماق فيجعلها ضراما !

والأولمب كله ، إلا عصابة ڤينوس يعزى بعضه بعضا !

---

(١) أشرنا إلى ربات القضاء سالفا — وهن ثلاث — ١ — كلوثو وتنسج خيوط الحياة — ٢ — لاخسيز وهى تبرمها حتى تحتمل عاديات الزمان — ٣ — وأتروبوس وهي تقطعها فتنتهى الحياة !

وليس أولئك جميعاً شيئاً إلى ماحدث من بعد ، قبيل أن تخمد النيران فوق أخيل ... فقد ضج المكان الصامت بصيحات مفاجئة ، نبهت ما سكن من هول هذا المحشر الرهيب ... وتلفت القوم ، فإذا أچاكس العظيم قد أصابه طائف من المس ، وإذا به يزغى ويزبد ، ويعول وينشج ، ثم يقذف من فمه صبيباً من الدم ، يتلوه شؤب من العلق ، وينبطح على الأرض ثم يثب على قدميه ، ويروح ويغدو دون أن يلوى على شيء ... ثم يستل جرازه ويركزه فوق الأرض ، ويتكىء بصدره على سنانه ، فينفذ السنان من ظهر أچاكس ، ضحية جديدة لهذه الحرب التي لا تشبع ، وخيط حياة حافلة يمر وشيكا بين الشفرتين من مقص أتروپوس ! ...

ويحك أچاكس ! واللاهة ما وفيت لأخيل يا بطل الأبطال !

* * *

وذهل القوم لانتحار أچاكس ، ولم يفيقوا من ذهولهم إلا ليروا إلى مأساة ضعضعت ما أبقى عليه الحزن من ألبابهم ، وأطاشت ما بقى من حلومهم ، وتركتهم سكارى وما هم بسكارى .

هذه پوليكسينا !

إنها تقبل من طروادة كأنما بها مس ...

وهى تطوى الساحة المزدحمة بالأشلاء ... المضرجة بالدماء ، بقدمين عاريتين ، لا يقيهما حذاء ... وإن الدم ليتفجر منهما ...

وهى تصرخ ... وتضرب خديها الشاحبين ، بكفيها الواهيتين

وهى تجفل كالظبية المراعة ، وتدور حول نفسها ... ثم تقف لحظة ... وتنطلق ...

وهى تفعل هـذا حتى تكون أمام البركان الخافت ، المشتمل على رفات أخيل ..

وإنها لتقف تلقاءه جامدة كأنها دمية ... ذاهلة كأنها تمثال ...

يا للهول !!

لقد انطلقت الفتاة تخاضت النيران ... ودست رأسها فى جمرات الغضى تبحث عن حبيبها المرجو ... وزوجها المؤمّل ... عن أخيل (١)

أخيل الجبار ... قاتل ليكاون وپوليدور .. وهكتور

* * *

ويجزع الهيلانيون مما ألم بهم من مقتل أخيل ، وانتحار أجاكس حزنا عليه ، فينصرفون عن الحرب إلى استيحاء آلهتهم ؛ وينفرد كالخاس يرسل نظرة فى النجوم ، ويناجى سكان السماء ، ثم يقبل على القادة وقد فرغت قلوبهم من الصبر ، وتبلبلت أفكارهم من طول الانتظار ... فيقول « سهام هرقل ! ! لا بد من سهام هرقل ! لن يفتح عليكم طروادة إلا سهام هرقل . . ! »

سهام هرقل ؟ ؟ وما سهام هرقل هذه ؟ ؟

آه ! لعلها هى هذه السهام التى غمسها هرقل فى دم هيدرا (٢) فتسممت به ، وادخرت من الموت ما يكفى لإبادة الطرواديين جميعا ...

---

(١) اختلفت المصادر فى انتحار پوليكسينا ، فبعضها يرويه كما أثبتنا ، وبعضها يزعم أنها انتحرت على قبر أخيل — والبعض يروي أن بيروس ، ابن أخيل ، قد انتزعها من حضن أمها هكيوبا وجعل منها قربانا على قبر أبيه عقب فتح طروادة .

(٢) نشرنا هـذه الأسطورة فى كتاب أساطير الحب والجمال عند الاغريق « مجازفات هرقل » ج (١)

ولكن أين هى هذه السهام اليوم ! وأنى للهيلانيين أن يهتدوا إليها ؟

جلس القادة يفكرون ...

وذهب العرافون يقلبون صحف الغيب ...

وطفق مشايخ الجند يفتشون فى زوايا أدمغتهم ...

ثم ادّكر أوليسيز ، بعد لأى ، أن هذه السهام المنشودة قد تُركت مع الجندى القديم فيلوكتيتس (١) الذى غادره الجيش فوق جزيرة لمنوس ، فى طريقه إلى طروادة . . فجُرِحَ الحملة ... منذ عشر سنوات !

ولقد كان فيلوكتيتس قد أصيب بجرح كبير فى قدمه جعل اصطحاب الحملة له من المحال ، لما كان يلقى حينذاك من الآلام المبرحة ، وما كان يملأ به آذان الجند من الصراخ والأنين ... فاضطر أوليسيز إلى تركه فى جزيرة لمنوس ، حيث أوى الجندى المسكين إلى كهف منعزل عكف فيه على جرحه يعالجه ... دون جدوى !

واتفق القادة على أن يذهب أوليسيز ، مصطحبا معه پيروس ابن أخيل ، (أو نيوپتلموس كما كانوا يسمونه أحيانا) إلى جزيرة لمنوس ليريا هل الجندى الجريح ما زال يحيا هناك ، وقد بحثا عنه فى أنحاء الجزيرة حتى عثرا به يئن فى كهفه ويتوجع ، ويشكو إلى غير مُستَمَع ، فعرضا عليه أن يصحبهما إلى طروادة فأبى . وجعله يشتد فى الإباء تذكره هذا اليوم الأغبر الذى آثروا فيه تركه فوق تلك الجزيرة القاحلة لا أنيس ولا سمير ، ولا لسان يرفه عنه وحشة الألم ووحشة المنفى الذى لا يَدَ له فيه ، وكبر

---

(١) اعتمدنا فى تلخيص هذا الجزء من ذلك الفصل على درامة سوفوكليس الخالدة Philocetes ترجمة لويس كامبل .

عليه أن ينطلق مع هذا الجيش الذى جحده وغمطه حق الجهاد فى سبيل الوطن ، والذود عن شرف هيلاس واسمها المقدس ...

وتركه أوليسيز ليبروس يأخذه بالحيلة والرفق ... ولكن بيروس لا يستطيع أن يقنع فيلوكتيتس . . . فيكاد يدعه برما متسخطا . . لولا أن يظهر طيف هرقل فجأة مرفرفاً فى العلو ، فيأمر فيلوكتيتس ، بعد تهويمة هنا وتهويمة هناك ، أن ينصاع لما يأمره أوليسيز به(١) .

ولا يسع الجندى الكريم إلا أن ينطلق مع أوليسيز ... فيركب الجميع فى السفينة إلى طروادة ، ويلقاهم العسكر المشتاق بالبشر ، ويروع إليهم بالإيناس ! .

أليس فى سهام هذا القادم الأعرج .. النصر كل النصر ؟ !

* * *

ونفخ فى صور الحرب ، واشتجرت الأسنة ، واستحر القتال ، وتبوأ فيلوكتيتس مقعداً للرماية لا يبصره فيه أحد ؛ فى حين يبصر هو منه كل ما فى الميدان !

وراش سهامه ، وتطايرت المنايا عن قوسه المرنان ! وسعت إلى الطرواديين مصارعهم تهدهدها سهام هرقل ، وتمهد لها يمين فيلوكتيتس !

ومرق سهم منها إلى باريس ! ...

وكان يشرف على المعركة من أسوار إليوم ! ... فوقع يتشحط فى دمه ، ويغص بريقه ، ويصرخ من الألم الذى يسرى فى عروقه مع الدم ... !

---

(١) هذه رواية سوفوكليس ويقول هوميروس إن هرقل زار فيلوكتيتس فى المنام وألقى اليه هذا الأمر .

واجتمع حول پاريس أبوه وذووه وعشيرته ... وهيلين ! ...

وطفق الجميع يبكون فى پاريس إخوته ، والذكريات السود التى أقبلت من كل صوب ترف فوقه وترنق على جبينه ...

وأخذ الألم من پاريس مأخذه ... وراح المسكين يصرخ ويتلوى ... غير آبه لما تغرقه به هيلين من قبلات دنسة ، ودموع مسمومة ، كانت الويل كل الويل على طروادة والطرواديين .

وذكر ، وهو يتجرع غصص العذاب ، أن حبيبته الأولى وزهرة صباه ، ووردة حبه القديم ، إيونونيه ، كانت قد ذكرت له أنها تعرف من خواص الأعشاب المختلفة ما يشفى أزله أشد أوجاع الجروح وأنكاها ، فأشار إلى بعض أهله ، وطلب اليه أن يذهب إلى سيف البحر ، علّه يجد إيونونيه ... فإذا لقيها فليخبرها بما انتهى اليـــه (حبيبها !) پاريس ، والآلام التى تعذبه وتشقيه ، من جراء جرح هذا السهم المسموم ... ... بيد أن إيونونيه التعسة ... إيونونيه المعذبة ... إيونونيه التى أخلصت لپاريس الحب حتى عبدته ... ذكرت ما كان من هجر هذا الحبيب وقلاه ؛ وذكرت دموعها التى ذرفتها مرة تحت قدميه ضارعة متوسلة ... وتلك القسوة التى كافأها بها لما أن خدعته فينوس ... وأوقعته فى أحبولة هيلين ..... فرفضت فى إباء وشمم أن تذهب اليه ..... والآلهة وحدها تعلم مقدار ما كانت تكنه له برغم هذا الرفض من الحب النقى .. والصبابة الحزينة ... والهوى المتأجج المشبوب !

وقضى پاريس نحبه ! ...

وأُعدت النيران الضخمة لتحريقه ، فما هو إلا أن أشعلت من حوله حتى شوهدت إيونونيه المتبتولة تخرج من لجة الهلسپنت وتعدو ، كأن قد أصابها مس ، حتى تكون تلقاء النار ... فتقف باهتة ... وتتنهد طويلا ... وتقذف بجسمها الجميل المرمرى المشوق فى اللهب ... وتصرخ صرخة مشجية ... و ... وتلقى قصة حبها الباكى الحزين ...

وهكذا تخط بيدها آخر سطر فى كتاب پاريس ...

فتح طروادة

لم يبرح فيلوكتيتس يرسل سهامه على الطرواديين ، ولم تبرح المنايا تتخطفهم ... ولكن المدينة ذات الكبرياء مابرحت أمنع من عقاب الجو على الغزاة الجبارين ...

وذهب كالخاس عراف الحملة ، إلى آلهته يستوحيها ، ثم هرع إلى سادته قادة الجيش فذكر لهم أنه مادام تمثال مينرفا المقدس ... البالاديوم المشهور — فى طروادة فلن يفتحها على أهلهـــا فاتح ، ولو عاونته الأرباب جميعا !

وانطلق أوليسين ، وانطلق معه ديوميدين ، فتسللا ، واحتالا على حارس البوابة الإسكائية الكبرى ففتحها لهما ، وذهبا قدما إلى هيكل مينرفا . وسرقا البالاديوم المقدس ، وعادا به ، وكل همهما أن تبطل نبوءات العم كالخاس التى أخذت تترى ، ويأخـــذ بعضها برقاب بعض ... وكرت الأيام ... ومع ذلك لم تفتح طروادة ! ؟

ثم بدا لأوليسين أن يصطنع الحيلة ...

فعرض على زعماء الحملة أن يدعى مهرة التجارين والمثالين فيصنعوا حصاناً هولة كبير الحجم ... خاوى الجسم ، فيكون بداخله جمهرة من

---

(١) اعتمدنا فى تلخيص هذا الفصل على ملحمة فرجيل الخالد The. Aeneid. ترجمة فيرفاكس تالمر (طبعة دانت) — ورجعنا كذلك إلى درامة يوريبيدز الممتعة (The Trojan Women) ترجمة جلبرت موري النثرية وترجمة ر — بوتر الشعرية مع ما بين الملحمة والدرامة من فروق محتفظين بروح الأسطورة .

أقوى شجعان الهيلانيين وأبسلهم ، ثم يوهم الأسطول أنه أبحر بجنود الحملة ، فاذا مضى شطر من الليل ، وأقبـــل الطرواديون على الحصان فأدخلوه مدينتهم تذكاراً لهذه الحرب الضروس التي أكلت أخضرهم ، وأحرقت يابسهم ، وذهبت بالزهرة اليانعة من شبابهم ... ثم إذا كان الهزيع الأخير من الليل ... خرج الأبطال المختبئون ففتحوا أبواب اليوم ، وانقض الجيش المرابط ، فاحتل المدينة العانية التي رغمت تحت أسوارها أنوف ، وذلت جباه ، وذابت أنفس ، وذهبت أرواح ، دون أن ينال منها أحد ...

وطرب القادة لهذه الحيلة التي بدهم بها أوليسيز ... وانصرفوا عن القتال وهم له كارهون ... وانصرف الطرواديون فاعتصموا بأسوارهم ، ورابطوا داخل صياصيهم ، وعمرة النجارين وكبار المثالين دائبون على حصانهم الهولة حتى فرغوا منه ...

وأقلع الأسطول ...

وانكشفت الساحة من هذا الجراد المنتشر الذي لبث ينوء فوقها عشر سنين ...

واختبأ أوليسيز داخل الحصان ومعه نخبة من شياطين الميرميدون ، وعلى رأسهم پيروس النجيب ، ابن أخيل الخالد ، وعصبة قوية من فرسان الإغريق البواسل ...

ودق الطرواديون البشائر ...

وجاءوا يهرعون إلى الساحة ، ويتكبكبون حول الحصان الهولة ، ويكلمون سينون الذي تركه الهيلانيون عند الحصان ليخدع الطرواديين

وليتصح لهم بنقله إلى المدينة ليكون آخر الدهر تذكاراً لهذه الحرب التى شنها قومه على طروادة ظلماً ، فباءوا منها بالبوار ...

« ... هؤلاء الهيلانيون اللؤماء ، الذين انصبت عليهم أحقاد الآلهة ، وثار بهم كبير الأولمب وسيده الأعظم ، وسلطت عليهم الزوابع والأنواء حتى كادت تفنيهم ، لولا أن أمروا بتضحية قربان بشرى ينجيهم من غضب السماء ... ولكن ؟ . . من منهم أصاخ إلى الأمر المقدس ؟ ومن منهم سمع إلى هتاف الأولاب ؟ لقد جبنوا جميعاً ! ولم يشأ واحد منهم أن يضحى بنفسه لينقذ الجميع ، حتى أوليسيز نفسه ؟ هذا الداهية المفضل ! لقد جبن هو أيضا ! وفى الوقت نفسه حاول أن يرغمنى أنا ! أنا سينون المسكين ، على أن أقبل التضحية ، وأن أهب دمى للآلهة لقهداً ثورتها . .

ولكنى رفضت فى شمم ، وامتنعت فى إباء . . لا خوفاً من الذبح ؛ ولكن ضناً بدمى النقى الطاهر عن أن يهرق فى سبيل هؤلاء الجبناء . . . الذين تكأكأوا وفزعت نفوسهم من صيحة السماء ... !

وهربت يامولاى ؟ يامولاى پريام العظيم .. ؟ ولذت بظلال طروادة الخالدة ، طروادة المنيفة القوية ، وجعلت أصلى لأربابى حتى استجابت لى ، وأرسلت إليهم من أنذرهم بسوء المنقلب إذا هم لم يقلعوا هذا المساء ... ! قاتلهم سيد الأولمب ! وقاتلهم الآلهة جميعاً ! ...

والآن ! ... هاهم أولاء قد تركوا هذا التمثال الرائع الذى أعدوه ليوم نصرهم ، فجعلته الآلهة آية فشلهم ! ... انقلوه يا مولاى إلى المدينة ،

واجعلوه تذكاراً لهذه النوبة الجنونية التي شنوها عليكم ، فحاق بهم سوء ما كانوا يمكرون ... ألا فليكن قُربة لمينرڤا ... !

ولقد سمعت هاتفاً في صلاتي يقول : « ... الويل لمن يصيب هذا التمثال بشر ! تنقض عليه رجوم السماء ، وتنخسف من تحته الأرض ، وتميد من فوقه الجبال ! ... وطوبى لمن احتفظ إلى الأبد به ! ... إذن يحميه شر حدثان الزمان وعوادي الأيام ... »

وكان سينون الداهية يمزج كلماته بدموع الصلاح والورع ، ويشعل فيها جمرات الإخلاص والصدق ... وكان يرسل آهاته من الأعماق ... ! حتى استطاع أن ينفذ إلى سويداء الملك ، ويستولي على مشاعر الطرواديين ؛ وحتى ثار الطرواديون أنفسهم على قديسهم الوقور لاوكون ، راهب نپتيون الأكبر حين نصح ألا تجوز عليهم هـــذه الكلمات المعسولة ، والنفثات السحرية التي يتلجلج بها لسان سينون ، وأن يدعوا الحصان مكانه « فانه إن دخل طروادة جلب عليها الشر وكان فأل السوء للضحايا والشهداء ... ولا تصدقوا أن الهيلانيين قد تركوا هذا الحصان تكرمةً لنپتيون كما يدعي هذا الآفاق المأفون ، بل هم قد صنعوه حيلة منهم لغرض سيء ... وها هي ذي ابنتك أيها الملك ... كاسندرا العزيزة فاسألها ... فان لديها سر السماء ... »

وسأل الملك كاسندرا فأفتت بما أفتى به لاوكون ...

ولكن ... من يصدق كاسندرا ولا تزال نقمة أپوللو تنصب فوق رأسها ... وقد جعلها إله الشمس عرضة لكل مستهزىء ، وضحكة كل ساخر لعّاب

وزاد الناس استهزاء بالقديس لاوكون ، حين رأوا إليه تفترسه حيتان عظيمتان على سيف الهلسپنت إذ هو يقدم قربانه لربه نبتيون فتقتلانه وولديه ، عقب تحذيره الطرواديين ألا يقربوا الحصان المشؤوم وألا يدخلوه مدينتهم !

وتعاون الطرواديون جميعاً فجروا الحصان الهولة ، وهدموا بأيديهم جزءاً كبيراً من سور إليوم المنيع لتتسع البوابة للتمثال الهائل ، فكانوا كالتى نقضت غزلها أنكاثا ! ...

* * *

وكان الأسطول قد اختبأ فى ظلال الأيك النامى فوق جزيرة تندوس ، فلما كان النصف الثانى من تلك الليلة الخرافية الحالكة ، وكانت طروادة كلها قد استسلمت للنوم العميق الذى يسبق القضاء الصارم عادة فى مثل هذه الأحوال ، هب سينون الخبيث ففتح الباب السرى الذى لا يعرف إلا هو مكانه من الحصان ، وخرج الأبطال فقتلوا الحراس النائمين لدى الأبواب ، وأشعلوا النيران ، فرآها الجنود الذين عاد بهم الأسطول فى دجى الليل ، فانطلقوا سراعا إلى إليوم الخالدة ... المستسلمة ... فدخلوها ... وأعملوا السيف ، وشرعوا الرماح ، واستباحوا المدينة ، وهتكوا الأعراض النقية ، وأحلوا حرمة الهياكل ، وأضرموا النيران فى القصور ، وأتلفوا الحدائق الفينانة ، وهشموا تماثيل الآلهة فى الميادين العامة ، وقتلوا الصبية والأطفال ، وجعلوا المدينة أطلالا !

وهكذا ، وفى سكرة الليـــل ، وهدأة الظلام ، تم للهيلانيين الاستيلاء على تلك المدينة العتيدة ، وهبت من تحت الثرى عشرة أعوام طوال مضرجة

بالدم ، ملطخة بالإثم ، حافلة بالذكريات ، غارقة فى الدموع ... تشهد إلى الفتح المجرم ، وترى إلى المأساة الظالمة فى آخر فصولها !

وكان إيناس اليافع بن فينوس الهلوك من أنخيسيز ، فتى طروادة وأميرها الجميل ذو القسمات ، يغط فى نومه العميق ، ملء سريره الذهبى الوثير .. ، مطمئناً آمناً ... لا يدور بخلده أن تحل تلك الكارثة باليوم فى هذه الغفوة من الفجر ..

وكان إيناس محبباً إلى الآلهة ... ولم يكن قد جاء أجله بعد ... فأرسلت إليه ربات الأقدار طيف هكتور يزوره فى نومه ، ويريه حلماً مفزعا ... وينذره ... « أن هب بالإيناس فقد سقطت طروادة ، وانج بنفسك وبأهلك فالأسطول ينتظرك ، واستنقذ التحف المقدسة والآثار العلوية ... فقد دنسها الفاتحون ! »

وذعر إيناس ، وهب من نومه لهفان صعقا .. وفزع إلى سلاحه ثم أشرف على المدينة المروعة فشهد المأساة تحل بها ...

وهاله أن يرى الوحوش الضوارى من بغاة الميرميدون ، وغزاة الهيلانيين ، يسوقون أتراب طروادة وبيض خدورها المكنون .. عاريات أو نصف عاريات ... إلى الأسطول ... ليكنّ إماء فى بيوت هيلاس ... ورقيقا فى أسواقها ! ؟

وكاسندرا ؟ ! كاسندرا نفسها ! إبنة بريام الملك ... حبيبة السماء وصفية الآلهة ! التى حذرت أباها يوما من قبول باريس ... أن يحل البلاء بالمملكة وينزل الشؤم بالناس ! هاهى ذى مسوقة فى قبضة أجاممنون نفسه ... أجاممنون سيد القوم وقائدهم العام إلى ... سفينته !

وفكر إيناس ، فلم يجد لإنقاذ المدينة وأهلها من سبيل ... فأشار إلى بعض رجال قصره فقتلوا نفراً من جند الإغريق المتخلفين عن الجيش الغازى ، كانوا مشغولين بالسلب والنهب فى متجر قريب ، ثم نزعوا عنهم ثيابهم فلبسها إيناس وصحبه ليستخفوا بها عن أعين المغيرين ؛ وانطلقوا إلى القصر الملكى ؛ وبودهم لو استطاعوا أن يحموا الملك فى هذا الروع الأكبر ... ولكن واأسفاه ! لقد كان پيروس بن أخيل قد سبقهم إليه فى عسكو كجشر من أبالسة الميرميدون ؛ وكان پوليتيس بن پريام ، وآخر فرع من دوحته الباسقة آيلاً أمامه ، مكروباً مُفَزَّعاً ، فاراً إلى ذراعى أبيه الضعيف الشيخ ، يلتمس الحماية فى أوهى حمى ... فلم يزل پيروس ينهب الأرض فى إثره ... حتى قتله بين يدى أبيه ، وانقض على الملك التعس فوضع حداً لهذه الحياة الطويلة المملولة الشقية التى لطخها الدم البرىء وصهرتها جحيم الشدة ... ولم يفن عن پريام المسكين توسلات هذه الزوجة المعذبة التى وقفت بينه وبين پيروس ... هكيوبا ! الملكة المرزأة ! التى بقيت وحدها لتجرع الثكالة الباقية فى كأس الحياة ... مرأ وعلقما ...

وهكذا صعدت روح الملك إلى سماء طروادة
تتلفت حولها ! ترى إلى المدينة الخالدة تضطرم
النيران فى جنباتها ... وتتدك صروحها العزيزة
فى الرغام ... وتتهاوى أبراجها المنيفة التى
كانت تسجد تحتها آسيا الجبارة ... والآن !
هاهو ذا على ثرى إليوم لقىً لا أنفس فيه !
وجثة هامدة لا تحمل اسمها بعد ... ورأسا

معفراً . . . . . من غـــير جسد ! (١)

وزاغ بصر إيناس حين شهد هذا المنظر الرهيب ، ووقر فى نفسه أن مثل هذه النهاية المحزنة قد تحل بأبيه الشيخ ، أنخيسيز ؛ وبزوجته الهيفاء كروزا ، وبطفله المعبود إيولوس . . فلم يبال أن يقتحم صفوف الأعداء إلى قصره الذى خلا غايرُه اليوم من أُسْده ، ويُحدِّل الشوك من ورده ، وعاث فيه جنود الهيلانيين فأصبح قاعا صفصفا . . . كأن لم يَشْدُ فى دوحه بلبل ... ولم يحن فيه فؤاد إلى فؤاد !

وهناك ... فى إحدى الردهات المنعزلة ... وجد هيلين ! نعم ، هيلين ! سبب هذه الكوارث المتلاحقـة التى حلت بطروادة والطروادين ... هيلين التى لم تبال أن تغزرج ديفبوس — أخا باريس — عقب مقتـل حبيبها بأيام معدودة !

وجدها هناك ... تتقدح المصائب شرراً من عينيها ، وتتـــدجى غواشى الكروب فوق هامتها ، وتنعقد ظلمات الكوارث على جبينها المقنن الكريه ... الجميل !

وهم إيناس أن يفتك بها ، لما ذكر من الأرزاء التى حاقت بطروادة من جرائها ... اولا أن بدت له أمه ... ڤينوس ! ...فأنذرته ألا يفعل ... ثم كشفت له حجاب الغيب المحرم على أعين البشر ، فرأى إلى الآلهة أنفسهم يعملون بأيديهم فى تخريب طروادة ، وتدمير الطروادين ، وعلى رأسهم شيخ الأولمب وسيده ... زيوس ... كبير الأرباب !

«فانج بنفسك يا بنى ... ولذ بالبحر ... وانزح عن هذه الديار ...»

---

(١) عن فرجيل .

وانطلق إلى أبيه فنصح له أن يهرب معه . . ولكن أباه استكبر وأبى . . بحجة أنه ينتظر نبوءة من السماء توحى إليه بما توحى ... فغيظ إيناس وأغلظ لوالده القول ، ثم أمره أن يهبَّ من فوره غير مستأنٍ فيعتلى كاهلى ابنه وإلا قتلوا فى الحال !

ولم يسع أنخيسيز إلا أن يطيع ... فسار ابنه يحمله ، وسار ولده الصغير أيولوس بجانبه ، وتبعتهم زوجه الجميلة كروزا ...

كان قد اتفق مع أتباعه ، قبل أن يقصد إلى قصر الملك ، أن ينتظروه فى هيكل خرب قريب من مياه الهلسپنت . . . فلما أقبل نحوهم يحمل أباه اتفقوا على أن يبحروا فى الحال . . . ولكنه . . وا أسفاه ! افتقد زوجه فلم يجدها ... زوجه كروزا التى كانت الساعة فقط تتبعه ! ! لقد قتلها كلب من شياطين الميرميدون . . . ! ولما رجع إيناس ليبحث عنها لقيه طيفها الجميل . . عند تمثال مينرفا . . . فخاطبه قائلا . . . « هلم يا إيناس ! غادر هذه الديار فى الحال ... واذهب إلى شطئان التيبر ، فإن الآلهة قضت أن تبنى بيديك . . . رومة أم القرى ! ! » وأبحر إيناس ... وأبحرت فلول الطرواديين معه وعينه تفيض من الدمع على كروزا !

وفى غبشة الصبح المضطرب ، كان صوت الطبل الكبير يقصف كالرعد فى خرائب طروادة . وكانت الجموع الحاشدة تهرول نحو الأسطول وكان السبى الكثير من عذارى طروادة وسائر نسائها يهرولن هن الأخريات نحو البحر . . . فكنت ترى هيكوبا الملكة . واندروماك الحزينة التى اغتصبها پيروس لنفسه ... وكاسندرا ... تلك التى أحبتها السماء ... فأصبحت فى جملة السبى من سُرِّيات أجامنون وغانياته . . . وكنت ترى

غير من يعرفن فى الصباح الباكى إلى شاطىء الهلسپنت ، ليركبن البحر فيبتن عن أرض الوطن إلى الأبد ..

وكانت كاسندرا تنظر إلى المأساة وتبتسم ...

وكانت أمها ترمقها بعينين دامعتين ... وتسألها عن سبب ابتسامها ... فتفتر كاسندرا وتقول ... « أماه ليس حظ هؤلاء الفزاة المنتصرين بخير من حظ أبطالنا ... ها أنذى أقرأ ألواح القضاء ... انظرى ... ها هو ذا مصرع أجاممنون بيد زوجته كليتمنسترا العاشقة ... إنها تفضل اليوم ذراعى پاريس الآثم على جنة يكون فيها زوجها ... إنها ستقتله ، ستذبحه بيديها ... حينما تطأ قدماه أرض الوطن ... !

وانظرى يا أماه .. ها هو ذا أوليسين تعصف به الريح ... ويلعب به الموج ... ويؤرجحه البحر اللجى ... والعشاق يتقاتلون من حول زوجه ... وتليماك المسكين يضطرم غيرة ولا يستطيع أن يفعل شيئاً ...

وانظرى يا أماه ... ها هو ذا منلوس ... بائس .. كم أنت بائس يامنلوس ... لقد ظن المسكين أن هيلين نقية كما هى ! ... لقد نسى الشقى أنها تقلبت فى أحضان أزواج غيره ! ... أنظرى إليه يقذفه البحر إلى شطئان مصر ... وانظرى إليه ذليلا بين يدى هيلين يتوسل إليها وكان أحرى لو أنه قتلها ...

* * *

ونسى الهيلانيون فى نشوة النصر أن يقربوا القرابين للآلهـــة التى نصرتهم وأيدتهم وأظفرتهم بأعدائهم ؛ قبل أن يبحروا ... فأثاروا غضب الأولمب ... واستنزلوا لعنة السماء ، واستحقوا حنق حيرا ونپتيون

ومينرفا . . ونقمة زيوس ! !

لقد ثارت ثائرة مينرفا . . . فانطلقت إلى أبيها وشكت إليه ما فرط هؤلاء الجاحدون فى جنبها وجنب الآلهة ... واتفق الجميع على أن يسخر نبتيون الجبار .. إله البحر . . أرياحه العاتية على أساطيلهم فتمزقها . وتضللها تضليلا . . .

فما كادت الأساطيل تمخر عباب الماء . وما كادت تبتعد عن شواطئ إليوم . . . حتى بدأت العاصفة تدوّم . . . وحتى أخذت الأمواج ترسل أعرافها حول السفائن ، وحتى نثر الثبج حبابه فوقها . . . وحتى ارتعدت فرائص القوم . . . ونظر بعضهم إلى بعض . . كأنهم فى يوم حشر . . . فهم لا ينيسون .

ولقد صدقت كاسندرا !

فها هى ذى الأساطيل الكثيفة تتمزق فوق سطح البحر . . . وها هى ذى جوارى منلوس المنشئات تدفعها العاصفة فى طريقها إلى ... مصر ، وها هى ذى مراكب أجاممنون تتكسر على الصخور الناتئة فى عرض اليم ... وما يكاد يصل هو إلى مملكته أرجوس حتى تقتله زوجته العاشقة مؤثرة عليه عاشقها الأثيم إيجستوس . . . وها هى ذى سفين أوليسيز تضل فى البحر الشاسع ، وتتكسر بما عليها من سلّب . . . ويظل البطل المغوار فى تنقلة وترحال ... عشر سنوات . . . وتظل زوجته بثلوب تنتظره ... وخطّابها يقتتلون حول قصرها .. وتليماك ، ابنها البائس ينتظر أوبة أبيه . حتى يعود بعد شدة وبعد أهوال ، فيدمر العشاق الآثمين ، ،

وهاك پيروس بن أخيل يعود ومعه أندروماك التى تظهر له الحب ، عاملة بنصيحة هكيوبا لها ... حتى تلتشفى ابنها لينتقم لأبيه ووطنه من اليونان ... وكانت تعتزم مضايقة پيروس ومناوأته ليقتلها ... ولتستريح بالقتل من عذاب العيش بعد هكتور . . . (١)

* * *

وهكذا ياصديقى القارىء تنتهى تلك الملحمة الطويلة الدامية ، فإن أحسست أنت أنها لم تلتئم بعـــد ، فأنت صادق . . لأن المأثور أن هوميروس قد نظم ملاحم طويلة عن أوبة كل من أبطاله إلى بلاده ، لم يبق منها ، واأسفاه ، غير درته اليتيمة الخالدة :

الأوذيسة (٢)

وهى التى سنقدمها لك قريبا إن شاء الله ، مروية بطريقتنا التى آثرنا أن نروى بها روائع الأدب اليونانى ، الذى تسمع به جمهرة قرائنا ولا تعرف عنه إلا اسمه .

وليس من شك فى أن الأوذيسة ، كما أشرنا إلى ذلك فى مقدمتنا عن هوميروس ، هى أروع آيات الأدب اليونانى كله ، إن لم تكن آية آيات الأدب القديم جميعه ، ، ، نسأل الله أن يلهمنا السداد وأن يهبنا من لدنه العناية وحسن التوفيق .

---

(١) يعتبر هذا الفصل الأخير من طراودة النبع العذب الذى استمد منه اسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيدز مآسيهم الخالدة التى أربت على المائتين ، والتى لم يبق منها إلى اليوم أكثر من ست وعشرين نرجو أن نقدمها للقارىء تباعا وفي زمن قريب ، فى سلسلة كتبنا عن المسرح اليونانى .

(٢) صدرت الأوذيسة بالفعل ونفدت الطبعة الأولى وستظهر الطبعة الثانية قريبا إن شاء الله

خاتمة عن هوميروس

لزمت هوميروس أعواماً ثلاثة أقرؤه وأدرسه وألخصه فما ضقت به ولا نفرت منه ، بل ازددت له حباً وبه إعجاباً . وكنت كلما تركته فترة أحسست شوقاً عجيباً إلى أدبه يجذبنى ويلح على فأعود إليه ، فيخيل إلى أنه قد شرع يغنى لى ، ويطلعنى على صور غريبة رائعة من فنه الجميل لم أكن قد ظفرت بها من قبل ، فأكب عليه عوداً على بدء ، لأطوى الأحقاب الطويلة الماضية ، ولأجلس فى شرفة الزمان فأطل على أخيل وأجاممنون ونسطور وأجاكس[1] وديوميدز وأوديسيوس فى جانب من المسرح .

وعلى بريام وباريس وأندروماك وهيلين فى الجانب الآخر ، وبينهما ذاك الضجيج وذاك النقع ، ومن حولها آلهة الأولمب يشتركون فى الوغى ، ينصرون أو يخذلون .

ما أجمل هوميروس !

لقد اختلف المؤرخون فيه اختلافاً شديداً ، لكن اختلافهم فيه لا قيمة له ما دامت الإلياذة والأوذيسة ، وما دمنا لا نجد بداً من أن نعترف لهما بمؤلف استطاع أن يسجل شخصيته فيهما معاً وأن يطبعهما بطابعه الخاص . فلم لا يكون هذا المؤلف هوميروس ؟ وإن لم يكن هو مؤلفهما فماذا يضير الأدب إذا سمينا هذا المؤلف هوميروس؟ وهؤلاء المؤرخون الذين ينكرونه بغير حجة ولا برهان ، إلا أنهم يستكثرون على عقل بشرى واحد هذا الإنتاج الضخم والمحصول الكبير الذى يكوّن أدب أمة ، والذى نهل منه

---

(١) هو أياس .

شعراؤها وشعراء الأمم الأخرى فى كل زمان ومكان ، ولا يزالون ينهلون . هؤلاء المنكرون لهوميروس لم لا يصدقون هيرودوتس الذى هو أبو التاريخ والذى ذكر أن بينه وبين هوميروس أربعمائة سنة ؟

ألا يكون التواتر صحيحا فى أربعة قرون ويكون صحيحا فى عشراتها ؟ إن تاريخ هيرودوتس هو أصدق ما وصلنا من التاريخ القديم ، وقد ذكر لنا هوميروس وذكر ملحمتيه ، بل حدد يوم وفاته ، وقد سمع المنشدين فى كل فج من اليونان يرددون بالتواتر أغاريده من الإلياذة ومن الأوذيسة ومن غير الإلياذة والأوذيسة ، وكان هيرودوتس خبيراً بأدب بلاده وبتاريخ هذا الأدب ، وكان يعرف أن الإلياذة والأوذيسة لم تكونا معروفتين بحالهما الذى رواه الناس بالتواتر عن هوميروس ، قبل هوميروس .. حقا لقد كانت الأساطير التى حشدها فى ملحمتيه معروفة قبله بأجيال ، لكنه كان أول من نظمها فى هذا العقد الجميـــل الرائع الذى قبس منه إسخيلوس ، والذى حام حوله يوريبيدز ، والذى ظل موردا لجميع الشعراء الكلاسيين من غير استثناء .

لقد كتب هيرودوتس تاريخه فى زمن استقرار الحضارة اليونانية ونضوجها .. ، ونحن نلمح فى تاريخه روح النقد والتمحيص ، والبحث والتحقيق ، فهو إذا روى لم يثبت إلا ما يراه متفقا عليه من الناس ، فإذا رآهم يتفقون على شىء لا يطمئن إليه ضميره لم يبال أن يقول بعد إثبات ما اتفقوا عليه : أما رأيى فهو كيت ، أو أنا أعتقد كذا ... ولم يكن يبالى كذلك أن يدلى برأيه فى الآلهة ، فقد صرح أنه لا يدرى من أين نشأوا ، وأن شيئا عن ذواتهم لم يكن معروفا إلى زمنه . . . وذهب إلى أبعد من هذا ، فقرر أنهم جميعا من صنع هوميروس وهسيود اللذين وضعا للإغريق ذلك الثبت الطويل من الآلهة وأنصاف الآلهة ، ثم راحا يوزعان عليهم

ذلك الاختصاص العجيب من مقاليد البر والبحر والأفلاك والهواء والنور والظلمة والحكمة والفنون . . . وقد رفض ما ذهب إليه الشعراء من أن هذا التوزيع وذاك اللاهوت بطقوسه التى تعارفها الناس كانا موجودين قبل هوميروس وهسيود . . وأكد أن الميثولوچيا اليونانية كلها لم تعرف إلا بعدهما . . .

وإذا كان هيرودوتس قد ولد سنة ٤٨٤ قبل الميلاد ، فلا يبعد أن يكون هوميروس قد ولد سنة ٨٨٤ أو حوالى ذلك . أو أنه قد عاش بالفعل فى القرنين التاسع والثامن ، أما ما قيل غير ذلك فلم تقم على إثباته حجة ، ولم يؤيده برهان .

وتتنازع فخر مولده مدائن شتى . على أن الذى حققه المؤرخون ويؤيده ماجاء فى ترتيلة أپوللو فهو أنه من مدينة خيوس الواقعة فى الشاطىء الشرقى من الجزيرة المسماة باسمها والقريبة من مدينة أزمير ، وهو لهذا إيونيوى (من إيونيا) بدليل أن أقدم نسختين من الإلياذة والأوذيسة مكتوبتان بلغة إيونيا .

ويختلف المؤرخون فى اسمه ومعناه ، فيذكرون له أسماء معقدة لادا عى لذكرها هنا . ثم يفسرون اسمه فيقولون إن معناه (أعمى) وإلى ذلك ذهب هيرودوتس ، وهو يعلل ذلك بأن الاسم (هوميروس) مركب من هو — مى — أورون — ومعناها : الرجل الأعمى . ويتعصب هيرودوتس لهذا التأويل بالرغم من وجود تفاسير أخر قد تكون أقرب إلى المعقول من تفسيره هو . ذلك أن بعض القدماء يقولون : إن كلمة هوميروس قد تكون مشتقة من (هوميريدا) . وهى اسم لإحدى العشائر التى كانت تقطن جزيرة خيوس آنفة الذكر ، وقد قطنوها برهة لأنهم كانوا أسرى

حرب (رهائن) نفوا إلى تلك الجهة . وذلك بدليل أن كلمة هوميروس نفسها تحمل معنى أسير تحت الفدية أى رهينة حرب

ولم يضمّن هوميروس إحدى ملحمتيه الخالدتين اسمه كما صنع هسيود فى منظومته العظيمة (شجرة أنساب الآلهة) Theogony فقد ذكر فى مقدمتها اسمه الصريح ، ثم ذكر فى قصيدته الأخرى (الإرجا Erga) كيف هاجر من كيمى إلى أسكرا ، وكثيراً من حياته الخاصة وحياة أهله ؛ ولو قد صنع هوميروس مثل هذا ، أو شيئا من هذا لما وقع المؤرخون فى هذا الخلط الكثير عن شخصه وعن زمانه وعن حقيقته .

ولم يشر قط إلى السبب الذى ذهب ببصره ، ويؤكد المؤرخون أنه قضى شطراً عظيما من عمره بصيراً سليم العينين بحيث استطاع أن يقرأ ويكتب ويسجل كثيراً مما نظم . ويذهب بعضهم إلى أنه بدأ نظم ملحميته « أو إحداهما » وهو بصير معافى .

وكل ما جاء فى ذلك لا يعدو إشارة طارئة فى آخر ترتيلة أبولو يخاطب فيها العذارى اللائى كن يصغين إلى إنشاده : « إذا سألهن أيما ظاعن : أى المنشدين أحب إليهن وآثر إلى قلوبهن ؟ أن يجبن على الفور إنه رجل أعمى من قطّان خيوس الصلبة السوداء ، وإن أغانيه ستخلد آخر الزمان ! » .

وحتى هذه الفقرة لم تسلم من تشكك المؤرخين فى قائلها ، هل هو راوية هوميروس ، أو هو هوميروس نفسه !

هذا ، وقد كان الإغريق أدبهم وأشعارهم وأغانيهم وموسيقاهم قبل هوميروس . وليس معقولا أن هوميروس هو الذى بدأ ذلك جميعا ، لأن ذاك الكمال ، أو ما يقرب من الكمال ، الذى جاء فى ملحميته لا يمكن أن يأتى طفرة . وإذا صدقنا هيرودوتس يكون هوميروس صاحب فضلين

عظيمين على هيلاس — اليونان — كافة — فهو الذى صنع آلهتهم وأنشأ بذلك لاهوتهم الوثنى العجيب ، ووزع ما فى الحياتين الأولى والآخرة على هذه الآلهة وتلكم الأرباب ، ثم هو الذى بدأ نظم الملاحم الطوال وديجها هذا التديبج المتألق البراق ، مستغلا أساطيرهم القديمة ، وذاك الفولكلور الساذج الذى يفيض به تاريخهم القديم .

والثابت أن هوميروس لم ينظم الإلياذة والأوذيسة للقراءة والاستمتاع الأدبى ، بل هو قد نظمهما للتلاوة والإنشاد فى المحافل ومجامع السمر ، إذ كان من دأب دويلات بحر إيجة استدعاء الشعراء والمنشدين والمغنين لإحياء أفراحهم وبعث المرح فى حفلاتهم . وقد حفظ لنا الأثر أسماء أورفيوس وميوزيوس ولينوس وغيرهم من شعراء عصر البطولة ومنشديه وموسيقييه الذين سبقوا هوميروس إلى نظم الخرافات وقرض الأساطير ، متأثرين فى ذلك بقصص الشعوب السامية فى مصر والشام وأساطير الفرس والبابليين . ولم يحفظ لنا التاريخ شيئا من آثار هؤلاء الشعراء ، اللهم إلا نتفا مما كان اللغويون ومؤلفو المراجع يستشهدون به للتدليل على صحة كلمة أو سلامة استعمال ، وهو شىء يسير ليس فيه غناء .

وقد سهلت اللغة اليونانية القديمة على شعرائها الكلاسيين عملهم ، وجعلت نظم الملاحم الطوال من أيسر الأعمال الأدبية وأهونها عليهم . ذلك أنها لغة واسعة شاسعة استوعبت لهجات كثيرة لمختلف الشعوب والقبائل الضاربة فى شطئان البحر الإيجى ، وقد تهيأ لها بذلك ما تهيأ للسان قريش من كثرة المترادفات وليونة التعبيرات وتعددها .

ولم يكن نظم الملاحم للتلاوة يستدعى فنية الأسلوب أو صقله بحيث يحتاج مجهودا ويلتفت فيه الناظم إلى ما يلتفت إليه شعراؤنا من التهذيب والتطرية البيانية والزخرف الصناعى . وقد يحسب قارىء أدبهم أنه

عبث أطفال كما قال قدماء المصريين مرة لصولون . . وقد كان المصريون معذورين فى قولهم هذا ، فلقد كانوا يعنون بالجد الصارم من أمور الحياة أكثر مما كانوا يلتفتون إلى هذا القريض الطويل الشعبى يهرف به الشعراء والمغنون .

والحق أن روح الطفولة شائعة فى ملاحم اليونان كلها ، ولم تظهر العناية القليلة بالأسلوب إلا عند شعراء الدرامة (المسرحية)، ثم شعراء الإسكندرية بعد ذلك . وهذه الروح واضحة فى هوميروس وضوحا شديداً ، فهو لا يعنى إلا بالحادثة ، وكثيراً ما يتحاشى (الرتوش) والتماويل المملة والزخارف اللغوية التى لا تتهيأ إلا فى الأثر الأدبى الذى يؤلف للقراءة لا للإنشاد أو للتمثيل . وهو لهذا يحصر انتباه سامعيه فى صميم القصة ، وقلّ ان يشرد بهم خارجها كما يصنع الشعراء الرومنسيون . وقلّ كذلك أن يستعمل الأصباغ لتطرية بيانه كيما يسترفيه ضعفا أو يعوض السامع بفخامة العبارة عن تفاهة الموضوع ، فهو دائما يلزم الروح ولا يلتفت إلى دمام(١) الجسم إلا بقدر ، وإلا فى حدود النظم الذى أخذ به نفسه فى الملحمة .

وفى ذلك يقول الأستاذ بورا : « إنه يكتب — أو ينظم — لكل الناس وليس لطبقة بعينها من الناس » .

وقد ساعد هوميروس تقلبه فى البلاد على هضم اللهجات المختلفة فى الأصقاع المندانية اليوم — المتنائية يومئذ — التى زارها ، ونحسب أنه من أجل ذلك تنازعت فخر مولده هذه المدائن السبع التى فعلت ذلك ، فقد كان يقيم حقبة بكل منها فينشد إلياذته — ولما يكن قد نظم الأوذيسة — ويغنيها بلهجة الجهة التى هو مقيم فيها ، فيتقن إنشادها بهذه اللهجة إتقانا لا يدع أثارة من الشك فى أنه من أهلها . . . وهنا ملاحظة طريفة انتبه

(١) الدمادم : التواليت .

إليها كل من برتون راسكو الأديب الناقد الأمريكى(١) ، وجلبرت مرى — المؤرخ الثقة فى الأدب اليونانى — ذلك أنه لا بد أن يكون هوميروس قد نظم الإلياذة مرتين .. تتلى إحداهما فى بلدان الشاطىء الآسيوى وفيها ينصر أبطال طروادة على أبطال هيلاس . وتتلى الأخرى فى بلدان هيلاس وفيها ينصر أبطالها على أبطال طروادة ويُظفرهم بهم . وبغير هذا لم يكن يستطيع أن ينشد إلياذة واحدة فى كلا الشاطئين . ولو صح أنه فعل لثار به الأهلون بفعل العصبية ، ولمزقوه إربا ، لأنه كيف يترك أخيلا مثلا هكتور وهو ينشد هذا الشعر لأحلاف هكتور وأهله ، وكيف يسيغ أن يترك هيكتور يقتل أخيلا إذا كان الإنشاد للملأ من مواطنى أخيل ؟

غير أن هذه الملاحظة لا تزال تفتقر إلى ما يثبتها ، لأن الإلياذة التى بأيدينا هى التى كانت تنشد وتغنى فى هيلاس .

* * *

ألم ينظم هوميروس غير الإلياذة والأوذيسة ؟

لقد ذكر كالينوس الشاعر اليونانى القديم (٦٦٠ ق . م) منظومة لهوميروس تدعى (Thebais) لما يعثر عليها إلى عصرنا هذا ، ويظن بعض المؤرخين أنها لا تعدو أن تكون الإلياذة فى صورة أفخم ، نظمها للإنشاد فى طيبة اليونانية ، ولذلك أطلق عليها هذا الاسم .

وعثروا على آثار للشاعر سيمونيدز (أمورجوس) الذى كان يعيش فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، وردت فيها مقتطفات من هوميروس يظن أنها من الإلياذة ، منها ذلك البيت المشهور : « وكما تساقط الأوراق (فى الخريف) فكذلك تساقط أرواح البشر » .

وبعد ذلك بقرن كامل (٥٥٦ — ٤٦٨) روى شاعر آخر يدعى :

---

(١) فى كتابه : قصة أعلام أدباء العالم ، وستظهر ترجمته قريبا .

سيمونيدز (من كيوس) بالتواتر عن هوميروس شعراً من ملحمة مفقودة لا تمت بصلة لا إلى الإلياذة ولا إلى الأوذيسة .

أما بندار (٥٢٢ — ٤٤٨ ق . م) ، وهو زعيم الشعر الغنائى فى اليونان القديمة ، فقد كان مشغوفا بهوميروس ، وإن لم يمنعه شغفه به من مآخذ أخذها عليه فيما يتصل بأوديسيوس ؛ وقد ذكر لهوميروس ملحمتين طويلتين عن أخيل لا تزالان ، والأسفاه ، مفقودتين إلى اليوم ؛ وإذا كانت الأوذيسة قد بلغت هذه الغاية من الإبداع فى سمو القصص وكثرة الوقائع ، وهى لبعض أبطال الإلياذة ، فما بال هوميروس فى ملحمتيه فى أخيل وهو بطل أبطال الإلياذه جميعا ؟ ! أية ثروة أدبية من شعر البطولة قد فقدها العالم ! لقد كان بندار يعجب بهاتين الملحمتين (الإلياذة الصغيرة والأثيوبيون) إعجابا فائقا جعله يشدو بهما كما يشدو عصفور الدنيا باللحن الموجع .

أما إسخيلوس فقد كان يقول عن ثلاثياته (١) التى نيفت على الثمانين ولم يصلنا منها ويا للأسف إلا سبع : « إنهن فتات من موائد هوميروس الحافلة ! » والثابت أنه استخدم أبطال الملاحم الهومرية فى أكثر ما ألف إن لم يكن فى كل ما ألف ؛ فهل كانت جميع مآسى إسخيلوس عن أبطال الإلياذة والأوذيسة فقط ؟ !

وقد ألف سوفوكلس أربعا وعشرين ومائة مأساة ؛ وكانت مآسيه تحوم حول أبطال هوميروس (٢) ، كما كان يفعل إسخيلوس ، فهل كانت أبطاله فى هذه الأربع والعشرين والمائة المأساة كلها من الإلياذة والأوذيسة ؟

---

(١) كانت مآسى إسخيلوس تتركب من ثلاثيات والثلاثية Trilogy عبارة عن ثلاث مآس (حلقات) تؤلف موضوعا واحدا .

(٢) كذلك كان يستغل موضوعات الأساطير اليونانية عامة .

يقول المؤرخون حين يعرضون لهذا إن كلا من إسخيلوس وسوفوكلس كان يعد كل ما وصل إليه من ملاحم العصر القديم هوميريا ، ولو لم يكن من نظم هوميروس ، ومن هذا التراث العظيم استمدا موضوعات مآسيهما. بل يقولون إنهما كانا يدعوان ذلك العصر كله العصر الهوميرى ... على أنه ليس فى هـــذا الـكلام دليل على أن هوميروس لم ينظم غير الإلياذة والأوذيسة ، وإلا لم يقل إسخيلوس إن مآسيه فتات من موائده الحافلة ، لأن إسخيلوس كان يعنى ما يقول أكثر مما يحاول مؤرخو زماننا هذا أن يفهموا من عبارته وجهها الصحيح ، وهو ولا شك كان يعنى هوميروس نفسه ، ولم يعن عصره كله وبعض العصر الذى سبقه وبعض العصر الذى جاء بعده ، أو ما يسميه المؤرخون العصر الهوميرى ، أو ما يزعمون أن إكسنوفون (القرن السادس) كان يدعوه كذلك ،

هذا وقد اعترف تيوسيديدز لهوميروس بالإلياذة وبالأوذيسة وبترتيلة أپولاو ، أما أفلاطون فلم يستشهد بأكثر من نتف من الإلياذة والأوذيسة وجاء أرسطو فاعترف له بالإلياذة والأوذيسة وملحمة فـكاهية تدعى (مارجيتس) ضاعت فيما ضاع من تراث الإغريق . . أما أرسطرخوس الإسكندرى العظيم (١٦٠ ق م) فلم يعترف له بأكثر من الإلياذة والأوذيسة

وعلى ذكر أفلاطون وأرسطو يروى أن كلا منهما كان يقتنى نسخة من الإلياذة مختلفة فى كثير من فصولها عن النسخة الأخرى ، ولم يستطع المؤرخون تعليل ذلك بعد ، اللهم إلا ما يعزى إلى بزستراتوس — منظم أشعار هوميروس فيما يقال — من أنه تناول الإلياذة بشىء من التحوير ، وأقحم عليها زيادات فى تمجيد الأثينيين . وهو ما يشك فى صحته الأساتذة لانج ومرى وبورا والعلامة كارل موللر .

على أنه ليس بزستراتوس وحده الذى اتهم (بتحشية) الإلياذة والتزوير

على هوميروس ، بل إن صولون نفسه قد اتهم بمثل ذلك . بل اتهمت به كل مدينة يونانية .

ولقد أسهمت مدرسة الإسكندرية بأوفى نصيب فى درس الإلياذة والأوذيسة ، وفرغ من تلاميذها الأفذاذ لكلتا الملحمتين عدد عظيم استطاعوا تمييز الزائف من غيره ، وكان إمام هذه المدرسة المؤرخ الناقد الكبير أرسطرخوس الذى وضع لنقد الأدب الهوميرى قواعده الرائعة.

ويحددون عصر البطولة الذى وقعت فيه حوادث الإلياذة ثم حوادث الأوذيسة بالقرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وذلك أن القبائل اليونانية (الإيونيوية والإيوليوية والدورية) كانت قد أخذت تنهض فجأة وتناضل فى سبيل مجدها وتناوىء الحثيين والمصريين على السواء ، وكان لابد لها قبل كل شىء من أن تقهر طروادة المحصنة القوية الرابضة على ضفة الهلسپنت (الدردنيل) الشرقية . وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وبعد أربعة قرون أو نحوها ، جاء هوميروس ليروى وقائع هذه الحرب فى منظومته الخالدة ، أو وقائع السنة الأخيرة من السنوات العشر من حصار طروادة — أو إليوم — كما كان يدعوها غالباً .

فالإلياذة من هذه الوجهة قصيدة حربية حافلة بأنباء المعارك ، تكاد تسمع صليل القتال وأنت تتلوها . وتكاد تشرف منها على ميدان صاخب ثائر النقع ، شديد الروع ، فائر بالدماء ، وإذا كنت من رجال الحرب سرتك الخطط المرسومة والخدع المحبوكة ، وراعتك هذه الفيالق المجيشة تأخذ أماكنها ثم تتحرك كالموج ، ثم ترتد قطعة بعد قطعة وهى فى حالتى الكر والفر كالرجل الواحد ، أو كالبنيان المرصوص . والإلياذة من هذه الوجهة أيضاً تصور لك حياة الجند فى الثكنات أبرع تصوير وأروعه ،

كما تصور لك حياة البحارة والرياضيين والرعاة ورجال الجبال ، لكنها لا تبلغ من ذلك ما بلغه هسيود فى ملاحمه .

الإلياذة وصف قوى لهذه المجازر التى نشبت بين جيل من الناس يسكن فى طروادة ، وبين جيل مختلف عن جيل طروادة ، لأنه جيل من أنسال الآلهة ، وذرارى أرباب الأولمب ، فيما تزعم أساطير اليونان ، جيل توالد من تزاوج عجيب بين هذه الأرباب الأولمبية وبين إنسيات فاتنات من بنات حواء ، فليس أخيل العظيم ولا أودسيوس ولا أجامنون ولا منلوس ولا ديوديميد ولا نسطور ولا أجاكس ولا أبطال أخايا (١) جميعاً أشباهاً لهكتور ولا باريس ولا أبيهما پريام ولا لأبناء طروادة ، لأن الأولين أبناء آلهة والآخرين أبناء بشر مثلنا .

شخصيات عجيبة جداً تلك الشخصيات التى اخترعها هوميروس ، فهو لم يكتف بأن صنع للإغريق لاهوتا يمج بكل زوج من الآلهة ، بل راح يزواج بين تلك الآلهة وبين الناس ، ثم ينسل أولئك الأبطال العظام الذين دوخوا طروادة ، وأرووا ساحاتها بالعزيز الغالى من دماء أبنائها .

فالسيدة هيلين ، التى بسببها نشبت الحرب ، هى ابنة زيوس كبير الآلهة من ليدا التى أحبها الإله الأعظم فى غفلة من زوجه هيرا .

وأخيل — بطل الإلياذة — هو ابن بليوس ملك فتيا — لكن أمه عروس الماء الحسناء المفتان ذيتيس — التى استطاعت أن تزلزل قلب الإله الأكبر — زيوس — بجمالها الساحر ، وأن تجعله ، وهو سيد الأولمب ،

---

(١) آخايا وهيلاس من أسماء اليونان القديمة . وأخايا أيضا مقاطعة بعينها فى هذه البلاد .

بعض عبادها ، كما استطاعت كذلك أن تسحر قلوب الآلهة الذين أهرعوا من كل مكان ليشاركوا فى زفافها ويشربوا النخب فى أكواب مما أهدى إليها إله الخمر ، باخوس .

وأوديسيوس — بطل الأوذيسة ، وثانى أبطال الإلياذة ، وصاحب فكرة الحصان الخشبى — يتصل بزيوس من أمه مايا — وكذلك ابنه تليماك .

أما أجاكس ، وهو من أبرز فرسان الإلياذة وأشدهم بأساً . فهو من أحفاد دردانوس .

وأجاممنون ، وأخوه منلوس ، هما ولدا أتريوس حفيد تنتالوس ، ذلك الملك القاسى المتحجر القلب الذى حاول مرة أن يطعم الآلهة من شواء صنعه لهم من بدن ابنه . فكان جزاؤه النفى إلى ظلمات هيدز حيث قاسى الظمأ الممض وهو غريق فى نهر من الماء العذب لا يصل إليه فوه ، وإن بينه وبين الماء لشبراً واحداً .

وجميع الأبطال الآخرين هم أحفاد الآلهة ، وأبناء السماء كما دعاهم هوميروس (الإلياذة جـ ٢ سطر ٥١٣) .

على أن أبطال طروادة يمتون هم أيضاً بوشائج النسب إلى بعض الآلهة ، فبريام وأبناؤه التسعة (هكتور وباريس ... الخ) ينحدرون من أسلاف أجاكس (دردانوس) .

وفى كثير من كتب الإلياذة مفاخرات عجيبة بالأنساب بين أبطال اليونان وأبطال طروادة . إذ يرد الطرفان أصولها إلى الآلهة (المفاخرة الجميلة بين أخيل وبين إيناس — إلياذة — الكتاب العشرون)(١) .

---

(١) تجد فى الكتاب الثانى للالياذة أنساب معظم الأبطال اليونانيين الذين اشتركوا فى هذه الحرب وقد أورد الأستاذ جربر جدولا أنسابيا فى آخر كتابه هو أحسن ما وضع فى هذا الباب .

بيد أن أبطال اليونان فى الإلياذة يبدون أكثر اقترابا إلى الآلهة وأشد اتصالا بهم مما تبدو العناصر المكونة لجيش طروادة .

وكذلك الحال بين آلهة الأولمب ؛ فأكثرهم يعطفون على اليونانيين ويناضلون عنهم ، ويسدون إليهم أحسن الجميل فيما تقتضيه معاركهم من تيسير وترشيد .

أما طروادة ، فيعطف عليها أبوللو ، وتنحاز إلى صفوفها فينوس ... أليس باريس قد قضى بالتفاحة لها من دون هيرا ومينرفا .

لذلك تكاد حرب الإلياذة أن تكون قائمة بين قبيلين متفاوتين فى الطبائع . فأحدهما أقرب إلى الآلهة منه إلى الناس ، والآخر أقرب إلى الناس منه إلى الآلهة ، وفى ذلك ما فيه من ميل هوميروس الذى يبدو هواه مع اليونانيين فى الإلياذة التى تملكها ، والتى هى من تمحيص اليونانيين من أهل أثينا والإسكندرية .

على أن هذا الميل لم يكن حاداً أو مبالغا فيه كما هى الحال فى القصص الشرقى الذى خلفته لنا عصور البطولة ، ومن نحو قصة عنترة أو أبى زيد أو سيف بن ذى يزن ، فالغالب فى هذه القصص أن يطبع الراوى سامعيه بطابع خاص . فيجعل هواهم فى جهة واحدة بحيث يطربون أبلغ الطرب وأشده إذا جال عنترة جولة فأطاح برؤوس مائة أو مائتين أو ألف أو ألفين . أو إذا انهزم الزناتى أمام أبى زيد .. لا . . . لم يفعل هوميروس كما فعل هؤلاء ، فهو بالرغم مما جعل لأبطال الإغريق من شرف النسب وكرم الحسب ، وبالرغم مما أنهى به الإلياذة من فتح طروادة وإشعال النيران فيها وقتل أبطالها البارزين ، قد خصهم بنوع عجيب من البطولة يرفعهم درجات فوق الأبطال الإغريق . وذلك أنه جعلهم أناساً ، وسجردهم فى

المعمعة من هذه الحضانة الربانية التى خلعها على أخيل وغير أخيل ، ومع ذلك فقد صبروا وصابروا ولقوا جموع اليونانيين بمثل الشجاعة التى لقيهم اليونانيون بها ، فلم يجبنوا ، ولم يهنوا ، ولم يتخاذلوا عند اشتداد اللقاء ، وكانوا يقتلون ويقتلون ، وكانت الكرة تكون لهم مرة ولخصومهم مرة . وكانت لهم مواقف عجيبة مشرفة تنتزع من القارىء استحسانه أو رثاءه ، وقد استطاع هوميروس أن يستدر دموع سامعيه وهو يصور وداع هكتور لزوجه وولده ، وفزع هذا الولد العجيب وأبوه يتناوله من يدى أمه ليقبله القبلة الأخيرة التى لم يره بعدها ، لأنه ذهب ليصاول أخيلا فيقتله أخيل بمساعدة الآلهة .. لا لأنه أقوى منه وأشد مراسا ..

لقد استطاع هوميروس أن يستدر دموعنا وهو يصور لقاء أخيل لبريام المحزون وقد ذهب — وهو ملك طروادة — يرجو بطل الإغريق وزعيم الميرميدون فى أن يدع له جثة ولده هكتور ، وأن يخلى بينه وبينها ، فما كان من أخيل إلا أن أصاخ ودموعه تنزف . فترك الجثة . جثة هكتور الذى قتل بتروكلوس حبيب أخيل ، ووكيله على جنده وأعز الناس إلى نفسه ، والذى بكيناه أحر البكاء حينما قتل ، وحينما انتزعت أسلابه ، وحينما جىء به إلى معسكر أخيل معفراً بتراب المعمعة ، وحينما سهدت عليه العيون ، وسهرت عليه حبيبة أخيل .

وهكذا يرتفع هوميروس بأبطاله فى الناحيتين ، ويوزع إعجاب القارىء على المعسكرين ، مما سنبينه فيما يلى .

* * *

كان هوميروس يخفض الآلهة إلى مراتب الناس فيجعل لهم من الغرائز الدنيا مثل ما للناس ؛ ثم يرفع الناس إلى مراتب الآلهة فيجعل لهم من الفضائل ما ليس ينبغى إلا الآلهة أو ما ليس يتوفر إلا الآلهة .

وعجيب أن تتخذ آلهـــة هوميروس مُثلها العليا من البشر الذين خلقتهم بأيديها ، لأن هوميروس — على ما يبدو فى ملاحمه — لا يرى الحياة الدائبة النشيطة المفعمة بالغرائز المتضاربة ، إلا فى محيطها المرئى المعترف به الذى يتكون منا نحن البشر . ولكى تتم الصورة الشعرية التى هى روح ملاحمه ، والتى نفوّق بها على ضريبه هسيود ، تراه يلجأ إلى الأساطير يلون بها فصوله ، وليثير بغرابتها شوق سامعيه . وليجدد فيهم الحماسة التى هى أولى غايات الملاحم . لذلك تراه يعقد مجالس الآلهة للتشاور فيما ينبغى أن تكون الوسيلة لنصرة فلان أو لخذلان فلان ، فاذا اجتمع شمل الأولمب فلا بأس أن تثور الحفائظ بين أرباب وأرباب وبين ربات وربات ، ولا بأس أن يعير أحد الآلهة ڤلكان إله النار بما وقع بين زوجه ڤينوس وبين مارس إله الحرب من خطيئة وفسوق[1] . . . ولا بأس أن يدس هرمز أنفه فى الموضوع فيصرح أن مارس معذور جد معذور فيما حدث له من الصبوة إلى ڤينوس ، وأنه أول من يشتهى أن يكون الذى وقع لمارس كان قد وقع له . . .

وليس يرى هوميروس بأسا فى أن ينزل الآلهة فى معمعان الحرب يناضلون عن الأبطال الذين ينتمون إليهم . . . ففى الكتاب العشرين من الإلياذة يستأذن الآلهة سيد الأولمب فينقسمون فريقين ، فتكون هيرا ومينرڤا وهرمز وڤلكان فى صفوف الإغريق ، وينحاز أپوللو ومارس وديانا وڤينوس إلى صفوف الطرواديين . . . فاذا ثار النقع ، واضطرمت الحرب ، والتقى أخيل وهكتور (الكتاب العشرون) وقعقعا بالسلاح ، وأوشك هكتور أن يظفر ببطل أبطال اليونان عندما سقط رمحه . . .

---

(١) كتابنا أساطير الأولين وآلهة عند الاغريق ص ٢٠٧ ج ١

تتقدم ميزرفا فجأة وعلى عجل فتأخذ الرمح من فوق الأرض وتناوله لأخيل فتنقذه من قتلة لم يكن فيها شك ولا عنها متحول . . . وهى تفعل مثل ذلك فى الكتاب الثانى والعشرين فتنقذ أخيل وتمهد له بذلك فيقتل هكتور ، ومع أن ميزرفا هى ربة الحكمة فى المثولوجيا اليونانية فهوميروس فى هذا الموقف ينحط بها إلى أسفل مراتب الإنسان ، لأنها تكون سببا فى قتل رجل عظيم مثل هكتور يدافع عن وطنه ويذود عن حمى بلاده . . . وهى لا تتسبب فى قتله فقط بل تحرمه فرصة نادرة أوشك أن يبطش فيها بأخيل.

وليتها فعلت كما صنع نبتيون فى الكتاب العشرين حينما أنقذ إينياس من رمح أخيل مرتين حتى لا يغضب زيوس كبير الآلهـــة على بطل الإغريق(١).

هوميروس يزخرف الإلياذة بمثل تلك الأساطير ليقطع تسلسل المعارك وليتقى سأم السامعين ، وليجدد حماستهم ، وهو فى ذلك أستاذ أرباب المسرح من أمثال شيكسبير وأضرابه . . . وهو لا تعييه حيلة فى اختراع ما يخفف وطأة الحزن إذا استعرت نيرانه فى قلوب الناس حوله ، فلا بأس عنده إذن من أن يترك جثمان پتركلوس ويقيم حفلا أولمبيا للألعاب يشترك فيه أبطال الحرب ، فينافس بعضهم بعضا ، فيتسابقون ويتلاكمون ويصطرعون ويقذفون القرص ويرمون الطوق ويحملون الأثقال ويتسابقون على الخيل . وتكون حفلة باهرة كأحسن ما يشهد العالم الحديث فى حفلات الأولمبياد . . ثم ينهض أخيل المحزون المرزّأ ، فى إثر كل مباراة ، فيوزع الجوائز السنية على الفائزين (الكتاب الثالث والعشرين) .

---

(١) فى هذا الكتاب أيضا ينقذ أپوللو هكتور من يدى أخيل .

وقارىء الإلياذة يتولاه العجب وتأخذه الدهشة لبراعة هوميروس الأعمى فى الوصف ... فكأس نسطور فى الكتاب الحادى عشر ، ودرع هكتور فى الكتاب السادس ، والنقوش الآخاذة التى حفرت فى درع أخيل ، والستر الأزرق الجميل فى قصر ألكينوس ، وشروق الشمس وغروبها ، وتكاثف الضباب ، والنقع المثار فوق المعمعة ؛ كل هذه آيات من الوصف الدقيق الذى يشهد لهوميروس بملكة فنية قوية تتجلى فى أكثر أنحاء منظومته ، وتربك المترجم خاصة(١) حتى يستعصى عليه أن يساير هوميروس ، ملك الشعراء ، الذى تراه فيما ينظم مصوراً ورساما وقائد جيوش وإلها وسحابا وبرقا ورعداً وحدادا . ثم جزاراً وشوّاء . ثم راهبا وواعظا وما شئت من فنون الحياة التى لا حصر لها .

لقد يتهم الإنسان لغته وهو يترجم هوميروس .. فهو لا يدرى كيف ينقل كلامه وهو يصف الرجل يتل الشاة ثم يذبحها ثم يسلخها ثم (يوضبها!) ثم يشعل النار ثم يؤججها ثم ينثر فيها من أعواد الند والرند والصندل ثم يلقى فيها بالقراميد ثم يقطع اللحم ثم ينتشر القتار (رائحة اللحم المشوى) ثم .. ثم ..

حقا إن فى كتب اللغة ما يعين المترجم على كل هذا ، لكن المترجم يغازل الذوق العام للقراء وهو ينقل آثار الأعاجم ، وهو إذا قسا على هذا الذوق أعرض عنه ، ولم يلتفت إليه ، وذوق القراء عندنا ذوق كسول لا يجب أن يرهق بما حشد فى كتب فقه اللغة ، لأن أكثر ما فى هذه الكتب حوشى وقد هجر استعماله ، والمترجم لا يستعمله إلا إذا ضاقت به

---

(١) إقرأ مقدمات مترجمى هوميروس كوبر ولورد درب وتشابمان وپوب .

الحيل ، ولم يستطع أن ينحت من الكلمات الحديثة السائغة ما ينزل برداً وسلاما على قلوب القراء .

* * *

وبعد فأى الملحمتين أثرت فى نهضة الأدب المسرحى اليونانى أكثر من الأخرى ، الإلياذة ، أم الأوذيسة ؟

لقد أشرنا إلى ما قيل من أن هوميروس قد نظم الإلياذة الرجل ، كما نظم الأوذيسة للمرأة . الإلياذة التى تفيض بذكر الحروب ووصف المعامع ومقادير الأبطال فى أولئك جميعا ، والأوذيسة التى هى قضية زوجة وفية غاب عنها زوجها حتى ظن أنه غير آيب وحتى طمع فيها كل طامع ، لأنها تفردت بين نساء زمانها بالحسن الذى لا يغيره مرور الأيام ولا ينال منه تطاول الزمان .

نظم هوميروس الإلياذه لتكون مثالا للرجال يحتذونه . . إذ ينبغى أن يكون الرجال شجعانا . ينبغى أن تثور فيهم النخوة إذا تعرض رجل نذل مثل باريس لامرأة أحد منهم بسوء فيقوموا كرجل واحد ويجتمعوا من كل حدب وصوب ليردعوا من ناله بالأذى فى أعراضهم ، ولو شنوها ضراما ، وصلوها أعواما . .

ونظم هوميروس الأوذيسة للنساء مثالا رائعا من الوفاء يحتذينه . . إذ ينبغى أن يكون النساء وفيات لأزواجهن ، فلا يفرطن فى أعراضهن ، ولا يستسلمن للمقادير إذا عارضت شرفهن . لقد غاب أودسيوس زمنا طويلا ، واجتمع عشاق پنلوب فى قصره يراودون زوجه ويأكلون زاده ويهينون ولده ، ومع ذلك فلم تضعف پنلوب ، بل احتالت للطاغين العتاة ، وصابرت ، وضربت بعضهم ببعض حتى آب زوجها ، فقضد شوكتهم واستأصل شأفتهم .

فالإلياذة خشنة كخشونة الرجال ، والأوذيسة لطيفة رقيقة فيها كثير جداً من رقة النساء ... وهى رقة جعلت صمويل بطلر الأديب الإنجليزى العظيم يؤمن بأن هوميروس لم ينظم الأوذيسة ولم يعرفها ولاهى تمت اليه بسبب ، وبأنها من نظم فتاة من جزيرة صقلية استطاعت أن تدرس هوميروس والميثولوجيا اليونانية دراسة هادئة ثم فرغت إلى نظم الأوذيسة فأتمت عملها فى سهولة وفى يسر ، وأخرجت هذه الدرة الفريدة التى تسمو فى كثير من فصولها إلى ذروة الإلياذة إن لم تزد عليها .

لشد مايدهش المرء لهذه الفكرة الغريبة التى قذف بها منطق بطلر ! إن كثيراً من القرائن تؤيد هذا الرأى ، بيد أننا لانميل كثيراً إلى الأخذ به لأن الأخذ به شرود خطير مبالغ فيه عن حيز الأدب اليونانى القديم ، وقليل من الاستقراء فى المآسى التى ألفت بعد هوميروس تهدم رأى بطلر وآراء الذين تشككوا فى صحة نسبة الأوذيسة إلى هوميروس ، فثلاثية إسخيلوس (الأورستيه) مثلا والتى تتركب من مآسيه أجاممنون وحاملات الكؤوس والإيوميندز قد أشير إليها فى الأوذيسة (الكتاب الحادى عشر) إذ يقص أوديسيوس على ألكينوس الملك رحلته إلى هيدز (الدار الآخرة) وما تحدث إليه به الكاهن تيرزياس عن أوبة أجاممنون ، وما حدث له من الغيلة على يدى زوجته كليتمنسترا وعشيقها إيجستوس ثم ما كان من ثأر الفتى أورست لأبيه وقتله أمه . . . الخ

فهذه الثلاثية التى أخذها إسخيلوس من الأوذيسة وقدمها للمسرح تنقض وحدها دعوى الأديب بطلر ، لان الفتاة الصقلية التى يزعم أنها نظمت الأوذيسة لم تكن قد وجدت بعد .

وقد جاء سوفوكلس فوضع مسرحيات كثيرة ، معظمها مفقود بكل أسف ، متخذاً موضوعاتها من صميم الأوذيسة ، ومما وصل إلينا من أسمائها

تلك المسرحية الجميلة المسماة نوزيكا ، وقد أخذ فكرتها من الكتاب السادس ، وهى المسرحية التى يُروى أن سوفوكلس نفسه قد قام فيها بتمثيل دور الفتاة نوزيكا ابنة الملك ألكينوس حينما ذهبت إلى شاطىء البحر فى سرب من وصيفاتها تغسل أثواب عرسها وتنشرها فى الشمس فوق أغصان أشجار الغابة التى كان أوديسيوس مختبئا فيها بعد نجاته من الغرق .

وهناك أدلة كثيرة تهدم ما رآه بطلر خطأ فى نسبة الأوذيسة إلى مؤلف غير هوميروس ولم أعثر فى الكتب التى درست فيها سيد الشعراء من يوافق الأديب الإنجليزى على وجهة نظره هذه

والذى يقرأ مآسى اليونانيين القديمة يلاحظ أن الشعراء قد عنوا بالإلياذة أكثر مما عنوا بالأوذيسة ، فأخذوا من الأولى أضعاف ما أخذوا من الثانية . وقد لا يكون بعيداً أن إسخيلوس قد أخذ من الإلياذة ستين مأساة على أقل تقدير من الثمانين التى ألفها والتى قال فيها إنها فتات من موائد هوميروس الفخمة ... وكذلك أخذ سوفوكلس كثيراً من مآسيه التى وضعها للمسرح .

والإلياذة حقيقة بهذا الالتفات من شعراء اليونان ، فهى النهر العظيم الجياش المتدفق الذى تفرعت منه الأوذيسة والإلياذة الصغيرة والإلياذات الكثيرة التى ألفها شعراء القرن الثالث قبل الميلاد فى كل من أثينا والإسكندرية ، والتى لا نستطيع هنا أن نحصرها ، ولا أن نتكلم عنها .

* * *

وليس من شك فى أن شخصية أخيل هى أبرع شخصيات الإلياذة . ولا غرو ، فقد سمى هوميروس إلياذته « قصيدة غضب أخيل !! » . وروح أخيل هى كهرباء الحماسة فى الإلياذة من أولها إلى آخرها

أنظر إليه وقد ذهبت به أمه إلى نهر الخلود تغطه (١) فيه حتى لا ينفذ فى جسمه رمح ولا سهم من رماح الحرب أو سهامها لأن لماء هذا النهر ذاك الفعل العجيب ! وانظر اليه كيف يبتل جسمه كله ماعدا عقبه ... ثم يكبر أخيل ويشب ويصبح بطل أبطال اليونان ، ثم تكون حروب طروادة فيمضى إليها بخيله ورجله ، ويقتل الأبطال الصناديد ، ثم يصوب إليه باريس سهما من سهامه يقر فى العقب التى لم تبتل بماء نهر الخلود فيكون فيه حتفه !

وانظر إليه يختلف وأجا ممنون من أجل الجارية بريسيز التى هوِيَها أخيل وعلقها قلبه ، فيرفض أن يغشى المعركة ، ويعتزلها وجنوده الميرميدون ، فتدور بذلك الدوائر على جيوش اليونان ولا يغنيها أن يكون فى صفوفها الأبطال المغاوير أودسيوس وأجاكس وديوميدز ومن إليهم .

وانظر اليه يكلمه پتروكلوس فى نصرة بنى جلدته حين يعز عليه أن يصطلمهم أبطال طروادة فيأذن له ، ويضفى عليه درعه العظيمة التى ذهبت أمه فصنعتها له عند ڤلكان الحداد ... ويذهب پتروكلوس فيكسر شوكة الطروادين ويصيبهم القرح على يديه وأيدى الميرميدون جنود أخيل .

وانظر إلى أجا ممنون يعتذر اليه ويرد عليه بريسيز ويقسم له أنه لم يطمثها ولم يمسسها بسوء . وانظر إلى أخيل لا يفيء ولا يلين ولا ينهض لحرب الطروادين ، فيغضب الآلهة ويسخط أرباب الأولمب ويخرق الشرائع وقوانين الأخلاق ، فتكون النتيجة أن يقتل پتروكلوس الحبيب العزيز .

وانظر إلى أخيل كيف تسود الدنيا فى عينيه حزناً على پتروكلوس فيمضى إلى المعمعة فيصرع أبطال طروادة ويجول فيها ويصول ، ويزأر

(١) غطه فى الماء غمسه فيه وغطسه بالتشديد .

ويزجر ويطويها كالعاصفة... ثم انظر اليه يظفر بهكتور، قاتل پتروكلوس، فيصرعه ويجره خلف عربته ويدور حول طروادة غير موقر قدس الموت ولا حافل بتقاليد السماء.

ثم قف عند أروع مناظر الإلياذة جميعاً: پريام الحزين! والد هكتور! هذا الرجل المحطم يمضى وحده إلى أخيل باكيا ضارعا متوسلا، يرجو الرجل الذى قتل أولاده فى أن يدع له جثمان هكتور ليشفى بالبكاء عليه جوى نفسه، وليطفىء بتحريقه السعير المضطرم بين جوانحه، فيعصف الحزن بأخيل العظيم، ويعانق الرجل العظيم، ويتبادلان البكاء، ثم يأذن له ببدن ولده...

هنا نبل هوميروس، وهنا إنسانيته وسموه، وهنا فرق ما بينه وبين قصاصينا الذين يشتركون مع سامعيهم فى السخط على بطل الناحية الثانية.

* * *

ومن ألمع شخصيات الإلياذة شخصية أجامنون... تلك الشخصية العجيبة التى رفعها هوميروس فوق شخصياته جميعاً، وخصها بالقيادة العامة للأسطول فى البحر وللجيوش فى البر.

وأجامنون هو شقيق منلوس زوج هيلين التى بسببها شبت الحرب بين اليونان وطروادة، وهو الذى ضحى بابنته إفجنيا كى تتحرك الريح وتتأذن الآلهة للأسطول فى أن يقلع من أوليس بعد إذ لبث هناك زمانا طويلا لا يقوى على حركة، لسكون البحر وجمود الرياح... وقد اتخذ إسخيلوس من مأساة الفتاة إفجينا (١) موضوعا لمأساته الرائعة التى دبرت

---

(١) كذلك كتب فخر شعراء اليونان بور بيديز عن إفجنيا درامتيه البارعتين إفجنيا فى أوليس وإفجنيا فى توريس كما كتب عن أورست وعن كثير من أبطال هومر

فيها كليتمنسترا زوجة أجامنون غيلة زوجها بعد أوبته من طروادة وذلك بمعاونة عشيقها إيجيستوس ، ثم تتسلسل ثلاثية إسخيلوس المشجية (الأورستية) على هذا القرار .

ومن المشاهد المؤلمة التى ينقم فيها القارىء على أجامنون ، ذلك المشهد الذى يقص علينا فيه هوميروس ما شجر من الخلاف بينه وبين البطل أخيل ... إنه مشهد يثير السخط عل أجامنون ، كما أثاره تسليم رأس ابنته للجلاد قربانا للآلهة حتى تثير الرياح كى يقلع الأسطول . . . وبمثل هذه المشاهد التى وضعنا بين يدى القارىء صوراً رائعة منها وضع هوميروس أساس المأساة اليونانية ومهد السبيل لمن جاء بعده من الشعراء فخلقوا الدرامة وخلقوا المسرح وتركوا للذهن البشرى ثروة لا يزال يستغلها ولا يزال يروى ظمأه منها .

وقد ورد ذكر أجامنون فى الأوذيسة كما أسلفنا وذلك عندما لقى أودسيوس الكاهن تيريزياس فى العالم الثانى وأخذ يقص عليه ما آل إليه أمر أبطال الإلياذة بعد أوبتهم إلى أوطانهم ، وقد ذكر له من أمر أجامنون مادبرته له زوجه .

وللبطل ديوميدز منزلة رفيعة فى الإلياذة ، ويكاد بشجاعته النادرة ينفرد بالإعجاب بعد إذ هجر المعركة أخيل . ففى الكتاب الخامس الذى قصره هوميروس على هذا البطل لا تقتصر شجاعته على التفوق على الآدميين الذين خاضوا الحلبة بل تتعداها إلى الآلهة ، وحسبه فخراً أنه جرح ڤينوس ربة الجمال التى كانت تتفانى فى مساعدة جيوش طروادة ، ثم مارس إله الحرب الجبار ، المدله بهوى ڤينوس ... وكلما حاق بأحد اليونانيين كرب فى المعمعة كان ديوميدز أسرع الفرسان إلى نجدته بل إنقاذه ... وقد ذهب فى الكتاب العاشر فى صحبة أودسيوس إلى معسكر الطرواديين فى حلك الليل حيث

اغتالا ريسوس بعد أن اجتازا ساحة تموج بالمنايا وتضطرب بألوان المهلكات

أما أودسيوس فله شخصية فذة . . . إنه بطل مغامر لا يبالى الردى ولا يرهب المنايا ، إلا أنه يمتاز بناحية أخرى أظرف وألطف... ناحية تثير المرح وتبعث الضحك ، ضحك الجد الصارم لا ضحك المشعبذين ورجال المساخر ... إنه كان من عشاق هيلين قبل أن تنشب هذه الحرب ، فلما فاز منلوس بهيلين ، حزن ، وتولاه الكمد ، لكنه تزوج من إحدى قريباتها (پنلوب) التى لم تكن تقل عنها جمالا ونضرة وطلاوة ، والتى استطاعت أن تحتل من قلبه فراغ هيلين كله . . . فلما نشبت الحرب بسبب هيلين وعلم أودسيوس أنه مدعو إلى خوض غمارها فيمن دعى من ملوك هيلاس وأمرائها ، آثر السلامة ، فادعى العته ، وذهب إلى شاطىء البحر بمحراث عظيم يجره ثور وبواد ، وجعل يحرث الأرض ويبذر فيها الملح كما يفعل المجانين . . . ولم تنطل هذه الحيلة على پالاميد رسول منلوس فقد عمد إلى تزييفها بوضعه الطفل تليماك بن أودسيوس فى طريق المحراث . فكان أودسيوس يتفادى ولده فى مهارة أشد الناس وعياً وأكثرهم إدراكا ... وفى الإلياذة كثير من المشاهد التى تدل على براعة أودسيوس وجمال حيلته وعمده إلى الخدعة فى الحرب أكثر من الاتكال على الشجاعة المجردة ، كما كان يصنع ديوميد أو أچاكس أو أخيل ... وخدعة الحصان الخشبى التى فتحت طروادة هى من تدبير أودسيوس ... أما الأوذيسة فانها غاصة بجميل هذا الرجل العجيب ، وهى حيل خلابة لا يمكن استيعابها فى هذه الكلمة المقتضبة عن هوميروس . ونغتنم هذه المناسبة فنشير إلى ما تسرب إلى قصص ألف ليلة وليلة من خدع أودسيوس ، فأكثرنا قد قرأ رحلات السندباد البحرى ، وأكثرنا يذكر المارد الذى حبس السندباد ورجاله فى كهفه ، وراح يسمنهم ويغتذى بهم واحدا بعد واحد حتى دبر

السندباد حيلة سمل عين المارد بالسيخ (السفود) المحمى وما تم بعد ذلك من هرب السندباد ورجاله إلى زورقهم ونجاتهم بأنفسهم فى البحر ... هذه صورة كاملة من صور الأوذيسة اقتبسها الراوية العربى وكساها هذا الرواء القشيب ، مباعدا بينها وبين الأصل ، غير مشير إلى مصدرها . ونحسب نحن أن قصة السندباد كلها لم تكتب إلا بعد العصر الذى فشت فيه الترجمة عن اليونانية ، واشتدت فيه أواصر الصداقة بين هارون عاهل بغداد ، وشرلمان عاهل الفرنجة ، وما تبع ذلك من وفود تجار القسطنطينية إلى بغداد ، ووفود تجار بغداد إلى العاصمة الرومية ، وما كان يصحب هذه الرحلات من تبادل القصص وسرد الأخبار ؛ وليس يبعد كذلك أن يكون لاختلاط العرب بأهل الإسكندرية من مصريين ويونانيين أثر فيما نلحظه من تلقيح القصص العربى بطرائف القصص اليونانى .

هذه بعض شخصيات المعسكر اليونانى تقابلها شخصيات أخرى فى معسكر طروادة . . . ولسناندرى بأيها نبدأ ؟ إن پاريس الذى كان سبب هذه الحرب الضروس شخصية هزيلة مريضة شاحبة ، وليس يستطيع الإنسان أن يفهم كيف جاز أن تنشب هذه المجزرة الشنيعة المروعة بين هذين الجيشين الكبيرين من أجل أن هذا الفتى پاريس ينزل ضيفا على منلوس فيكرمه ويحتفى به ، ثم لا يلبث الضيف أن يغازل زوج مضيفه . ثم ماهو إلا أن يفر بها بعد تدبير هو أسفل ماعرف فى تاريخ الهمجية والقحة ! ! حقا ، لقد وعدته ڤينوس قبل أن يقضى لها بالتفاحة المشئومة أن تمنحه أجمل زوجة وأفتن امرأة . أفلم يكن هذا النذر الإلهى يقضى إلا على هذا النحو ؟ والغامض الذى لم يفسره علم الأساطير هو كيف ساغ ماصنع پاريس فى ذهن أبيه ملك طروادة ؟ وكيف رضى بطل عظيم مثل هكتور عن هذه الدعارة التى أثار بها أخوه الحرب بين هذين الشعبين ؟ قد نلتمس

العصبية الجنسية عذرا واهيا لهذا الرضا ، بيد أنه يكون عذرا واهياً على كل حال .

يدرس الإنسان شخصية پريام الملك فيعجب لنبالة الرجل ، وفطرته التى فطره الله عليها من محبة للعدل وميل إلى الإنصاف وإشفاق على الرعية ، فكيف وزن عمل ولده حين أبى أن يأمره برد هيلين إلى زوجها حقناً لكل تلك الدماء ؟ ! أين المرض إذن ! أفى رأس پريام وملئه ؟ أم هو فى رأس هوميروس ؟! هنا موضع الضعف فى عقدة الإلياذة ، وهو ضعف يشبه الضعف فى عقدة الأوذيسة ، حين يجتمع عشاق پنلوب فى قصر أودسيوس وحين تمر عليهم السنون الطوال منتظرين أن تختار منهم ربة الدار بعلا لها ، فهم بذلك يشبهون القطط . ويحاكون الديكة حين تقتتل على الأنثى... هذا ضرب حيوانى من تفكير هوميروس يشوه جمال ملحمتيه ، ولعل للوثنية نصيبا كبيرا فى توجيه شاعر الخلود هذه الوجهة... ولعل المصريين القدماء لم يكونوا متجنين حين قالوا عن ملاحم اليونان إنها نتاج صبيانى ، ولذا لم يأبهوا لها ولم يعنوا بها برغم ما مدحها لهم صولون .

والعجيب فى هوميروس أنه لم يبال أن يحط بالمرأة اليونانية إلى مستوى دون مستوى المرأة الطروادية بمراحل هائلة ... لقد جعل المرأة اليونانية متاعاً شائعاً وغرضاً تتحيّفه لبانات الرجال ؛ فهيلين زوجة منلوس ملك أسبرطة تفر مع پاريس إلى طروادة دون أن تتأبى أو تمتنع ، ثم تشب الحرب بسببها فلا تحاول مرة أن تفر إلى معسكر اليونانيين . بل تظل طوال السنوات العشر متعة حلالا لپاريس ، وتنتهى الحرب ، وتضطرم النار فى طراودة ، وتعود هيلين إلى أسپرطة ، فلا تثور نخوة منلوس ، ولا يضطرب قلبه بقليل من غيرة الرجال .

أما بنلوب فقد ضربت المثل الأعلى لحفاظ المرأة ووفاء الزوجة ، لكنها مع ذلك عوملت من أمراء هيلاس معاملة عجيبة مضحكة تدعو إلى السخرية التى فاجأ بها المصريون القدماء المشترع صولون ... وإلا فما هذه العصبة من العشاق المعاميد تحتل منزل أودسيوس فتريغ خيره ، وتأكل زاده ، وترتع فى شرفه ، وتستبيح عرضه ؟ ! أكانت منزلة المرأة عند اليونانيين — ولو فى عصر هوميروس — بهذه الدرجة من الهوان ازوجة ملك إيثاكا تكون بطلة هذه المأساة الفرامية الوضيعة . وقد قدم هوميروس من خيوس لينشد ملحمته فى المدائن اليونانية وليسمع أهلها كيف كان أسلافهم يعاملون زوجة بطل أبطالهم ؟ ! .

وكليتمنسترا زوجة أجاممنون ... لقد عشقت هى أيضا إيجستوس المتآمر على عرش مولاه والذى دبر له تلك القتلة الشنيعة بعد عودته ظافراً من طروادة . . . فما الذى صنعه هوميروس بنساء اليونانيين ؟ لقد عبث بهم وهو يرفع أبطالهم إلى ذروة المجد ، وها بعقولهم حين عرض عليها بضاعة البطولة المزجاة ملفوفة فى أكفان تلك الأعراض الممزقة ... حتى آلهتهم ... لقد تناولها كما يتناول الطفل دُماه ولُعَبه يعبث بها ويلهو ... حتى كبير الآلهة وسيد الأولمب ... أنظر إليه كيف احتالت عليه زوجه چونو (حيرا) — الكتاب الرابع عشر — فجعلته يغفى ثم يغط فى نوم عميق كيما يذهب نپتيون لنصرة الاغريق ، فاذا استيقظ فى الكتاب الخامس عشر وعلم ما كان من أمر نپتيون أرسل إليه ينذره فى المعركة ، فيعود رب البحار وينبرى أپوللو لمشاكسة اليونانيين فترتد جموعهم إلى قواعدها عند الأساطيل ...

أما المرأة الطروادية فقد سما بها هوميروس سمواً بلغ الغاية وأوفى على المأمول ... أنظر إلى الأزواج والعذارى والأمهات يجتمعن حول هكتور

فى الكتاب السادس فى عودته من المعركة يسألنه عن ذويهن ، وانظر إلى أمه تبرز اليه من حريم پريام عابسة مقطبة تزجره لأنه عاد من المعركة وهى على أشدها ، ثم تحضه على اللحاق بإخوانه ينصرهم ويشد أزرهم ويردعهم عادية الإغريق ... ثم انظر إلى هذه المرأة المرزأة — هكيوبا — تجمع المتضرعات من بنات طراودة وتذهب فيهن إلى هيكل مينرفا تصلى وتعفر القرابين كيما تشمل جيش طروادة بحسن رعايتها وجميل حمايتها ... ثم استمع إليها تحنو على هيكتور فى الكتاب الثانى والعشرين بعد إذ وعظه والده خوفا عليه من أخيل (الجنى !) وقد أفزعها منظره يصول فى الحلبة ويجول ، فتذرى دمعها وتساقط نفسها بعد إذ أرسلت إلى المجزرة بأكثر أبنائها ... أو انظر اليها تمزق نياط القلوب فى الكتاب الرابع والعشرين إذ هى تبكى هكتور بعد إذ عاد أبوه بجسمانه من لدن أخيل ... أو انظر اليها تتعلق بپريام وقد انقض پيروس (ولد أخيل) على آخر أبنائها يختر مه برمحه . ثم ينقض على پريام الشيخ الفانى المسكين فيجهز عليه ، ثم يقتاد هكيوبا ... هكيوبا المحزونة المفجّعة فتكون فى جملة السبى الذى يعود به اليونانيون من طراودة(١) ، ويكون سبياً يجر عليهم النحس فيُقتل من يقتل ويَرْدَى من يردى .

وأندروماك ! لشد ما يُدَوّى فى فؤاد القارى هذا المشهد الرائع بينها وقد حملت طفلها . وبين زوجها هكتور فى الكتاب السادس من الإلياذة ! إن هوميروس يرتفع فى هذا المشهد إلى ذروة فنه فى ملحمته الخالدة ! لشد ما يحرق القلب وداع أندروماك الزوجة لهكتور الزوج !

أنظر إليها واقفة فوق برج من أبراج طروادة وقد قتل أخيل زوجها وراح بجره وراء عربته فى الساحة حول إليوم ، والرأس الكريم العظيم

(١) هذه الوقائع الأخيرة ليست من الالياذة .

يثير التراب المنضوح بالدم ، وأخيل يلهو بكل ذلك ويشتفى !

بل انظر اليها وقد وقفت تضرب صدرها وتسكب دمعها على جثة هكتور بعد إذ عاد بها أبوه پريام من عند أخيل ، ثم تقول :

« زوجى ! أهكذا تمضى فى عنفوان الصبا وشرخ الشباب ، وتتركنى وحيدة فريدة كاسفة ! هذا ابنك لايزال فى المهد . وهذان أبواك الشقيان! أن يشب ابنك ياهكتور عن طوقه . لأن من دون هذا دك تلك الحصون وتقويض طروادة التى كنت حاميها وحامى نسائها والذّاب عن بنيها ! يالشقاء الحرائر اليوم ياطروادة ! إن هى إلا لحظات ثم يحملن البحر إماء للغزاة ، وأنا وولدى فى جملة السبى ياهكتور ... ولدى ! ولدى البائس الشقى : إلى أين المسير ؟! إلى بلاد العدو الظالم لتكون من جملة الخدم والخول ... ليراك من يحسب أباك قد قتل أباه أو أخاه فيبطش بك ، وينتقم منك ، ويقذف بك من فوق برج أو حصن ...

« لشد ما كنت حَزَنا لأبويك ياهكتور ! بيد أنك كنت حزناً مضاً لمخلوق آخر هو أنا ... ! »

وهكذا بكت هذه الزوجة المخلصة الوفية زوجها ، وهكذا كانت دموعها الغوالى مدادا لا ينفد لمآسى يوريپيدز .

وبعد ...

فهذه مقدمة عن هوميروس ، مسهبة ، وهى مقدمة لهذا الكتاب والكتاب الذى سيليه إن شاء الله لم أر بدا من إثباتها بنصها كما كتبتها بعد أن فرغت من تلخيص الأدب اليونانى ، ونشر معظمه فى أوقات متقاربة . ولم يبق إلا أن يعلم القارىء لماذا آثرت تلخيص الإلياذة والأوذيسة ، ولم أوثر ترجمتهما ؟... ولا أحب أن أطيل فى إيراد سبب ذلك ... فأنا لا أزال عند رأيى من وجوب تحبيب الأدب اليونانى

الخالد إلى قراء العربية ، وإزالة ما عساه أن يصرفهم عن ورده . والاستمتاع بروائعه ، والأدب اليونانى مثقل بمئات من أسماء الآلهة والإشارات الأسطورية التى تصرف القارىء عن لب الموضوع ، بل ربما صرفته عن الموضوع نفسه ، وزهدته فيه فلا يعود اليه أبدا . .

لهذا آثرت التلخيص على الترجمة ، ولهذا بدأت بنشر كتابى « أساطير الحب والجمال عنـــد الإغريق » لأمهد به « لقصة طروادة » وهى هذا « الكتاب » ، « والقصة الأوذيسة » التى ستظهر بعد أسابيع . وأرجو أن أوفق إلى نشر الجزء الثانى من أساطير الإغريق(١) الذى لاغنى عنه لقراء الأدب التمثيلى اليونانى قبل أن أنشر كتبى التى أنجزتها عن اسخيلوس وسوفوكلس ويوريبيدز ، حتى أكون قد ساهمت بنصيبى المتواضع فى التعريف بالأدب اليونانى ولفت أنظار قراء العربية إلى روائعه ، حتى يتيح الله لهذا الأدب من يترجم روائعه ترجمة نثرية لاغنى لقراء العربية عنها.

ولو كانت إلياذة هوميروس تكفى لشرح نفسها بنفسها لاكتفيت بترجمتها ، وأعفيت نفسى من عناء البحث ، ووصل تاريخ حروب طروادة بأسبابها ونتائجها ، فكنت أستريح من تسجيل فصول هذا الكتاب الأولى ، وفصوله الأخيرة ، بالرغم مما فى ذلك من تحد لأزمة الورق وما فى تسجيل هذه الفصول من رفع لثمن الكتاب لم نتعمده ، بل اضطررنا إليه اضطرارا .

القاهرة — ابريل ١٩٥٤ — دريني خشبة

---

(١) هذا الجزء معد للطبع الآن وسيظهر قريبا إن شاء الله .